

في أوقات الفراغ

مجموعة رسائل أدبية تاريخية أخلاقية فلسفية

الدكتور

محمد حسين هيكل

الطبعة الثانية



مكتبة النشر والطبع

مكتبة النهضة المصرية

لأصحابها حسن محمد وأولاده

٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

١٩٦٨

في أوقات الفراغ

مجموعه رسائل أدبية تاريخية أخلاقية فلسفية

بقلم الكاتب الكبير

الدكتور

محمد حسين هيكل

مكتبة النشر والطبع

مكتبة النهضة المصرية

لأصحابها حسن محمد وأولاده

و مشايخه سيدى باشا بالاسكندرية

الى الأستاذ الكبير

أحمد بك لطفى السيد

مدير الجامعة المصرية

سيدي الأستاذ المحترم

لك الفضل الأول في تعليم من أسعدهم الحظ بالاستماع اليك
أول شبابهم كيف يقضون أوقات فراغهم يفكرون فيما يعرض لهم
من النظريات بسبب عملهم و أثناء أحاديثهم ومطالعاتهم • وكنت
أنا أحد هؤلاء • ولك كذلك الفضل في أن جعلت « الجريدة »
ميدانا لما تسيله القلوب والعقول على الأقلام من ثمرات التفكير في
أوقات الفراغ • وكنت أنا ممن أفادهم فضلك هذا بما نشرته في
الجريدة أيام كنت أطلب العلم في مصر وفي أوروبا وحين كنت
محاميا • ولك فوق ما لك من الفضل ما يتركه عطفك الأبوي في
نفس من عرفك من حي لك وتعلق بك • لذلك كان حقا على
وأنا أنشر بعضا من ثمرات أوقات قراغي التي تنشر في الجريدة
منها شيء غير قليل أن أتقدم باهداء الكتاب اليك فذلك أقل
ما يجب لك •

محمد حسين هيكل

الى القارىء

هذه مجموعة رسائل نشر أكثرها فى الصحف والمجلات وكلها
ثمرات لأوقات فراغى • كتبت على أثر مطالعات أو مشاهدات فى
هذه الأوقات وما أثارته هذه المطالعات من تفكير خاص •

ولقد رتبت فى هذه المجموعة ترتيبا نظمت فيه الرسائل الخاصة
بموضوع واحد بعضها اثر بعض من غير مراعاة لتاريخ نشرها
ولا للصحيفة التى نشرت فيها • فبدأت بالنقد وبما كتبه عن أناتول
فرانس فى السياسة وفى الاستقلال وفى السفور ، وفيه قسم لم
ينشر • وتتلو ذلك رسالة عن بيير لوتى • ثم تتلو هذه عدة رسائل
عن قاسم أمين، تعقبها رسائل عدة عن كتب نشرها جورجى زيدان
ومصطفى صادق الرافعى والدكتور طه حسين ومحمد السباعى
وغيرهم من رجال القلم • وهذا هو الكتاب الأول من المجموعة •

أما الكتاب الثانى فرسائل خاصة بمصر ؛ كرسائل بيان الملوك
وخلاصة كتاب مستر كارتر عن قبر توت عنخ آمون • كما أن فيه
قصصا وأحاديث كابيس وسميراميس وخالد وغيرها •

فأما الكتاب الثالث فرسائل متفرقة •

ولقد عنت بأن لا أمس هذه الرسائل بتجوير الا ما كان فيها من
خطأ مطبعي أو بعض نبو في اللفظ عن المعنى المقصود وذلك برغم
ما في بعضها مما أشعر اليوم بأنه يحتاج الى اعادة تحريره من
جديد .

واذا وفقت هذه المجموعة الى أن تشغل من أوقات فراغ القارى
فترة غير مملولة كنت بذلك سعيدا .

محمد حسين هيكل

الكتاب الأول

في النقص

خواطري النقد

دفعني ملال الأرق ليلة إلى التنقل في قرائتي بين كتب مختلفة • فانتقلت من روسو ، إلى الأغاني ، إلى أناتول فرانس ، إلى مصطفى صادق الرافعي ، إلى حصاد الهشيم للمازني • وانقضت على في هذه الحال ساعات كان كل شيء حولى فيها ساكنا لأنها كانت ساعات ليل أرخى فيها الظلام سدوله على الوجود وعكفت فيها الخلائق على نفسها لتستريح من نضال النهار ولتجد في أحضان الكرى نعمة النسيان المطلق تستمد منه قوة تعود بها إلى نضال نهار جديد •

وكنت كلما مللت القراءة في كتاب وضعتني إلى جانبه على المقعد الطويل وأطبقت أجفاني وحاولت تمليق النوم • فإذا استيأست منه تناولت كتابا آخر وقرأت فيه حتى الملل • فلما استطال بى الوقت جعلت أفكر في معركة النقد الأدبي التي حمى وطيسها أخيرا بين كتابنا وانتقلت من ذلك إلى التفكير في النقد في فرنسا ومصر • وتواردت على اثر ذلك خواطر ثبت معها عندي أن الأخذ في مصر بقواعد النقد الأدبي المقررة في أوروبا فيه شيء من التعسف غير قليل •

وأن الناقد في مصر يجب عليه أن يكون أوسع صدرا وأكثر مرونة من غير أن يكون لذلك أقل دقة ومن غير أن يتهاون في الحق أو يتسامح فيما يجب للفن •

يفرق الكتاب في أوروبا بين النقد الذاتي والنقد الموضوعي • ويرى الأكثرون أن النقد الذاتي - الذى يصدر فيه صاحبه عن مجرد تقديره الخاص وحسه بالجمال فيجعله مقياسا لكل ما يعرض له من ثمرات الفن - نقد غير جدير بالتقدير • ذلك أن الناقد مهما يكن من سمو الادراك وحسن الذوق لا يستطيع أن يضع كل صور الجمال ومظاهره في مستوى واحد أمام نظره • وأنت اذا دخلت إلى متحف من المتاحف الجامعة لطرف فن التمثيل الحديث وجدت بين التماثيل الكثيرة التى يعبر بها نوابغ المثاليين عن معنى خاص من معاني الجمال أوجه خلاف شتى • فهذا يرى جمال المرأة في الخصر النحيل والساق الدقيق والنظرة الناطقة بمشاعر الحب كله • وذلك يراه في انسجام ميول الجسم انسجاما تتبعه العين في طمأنينة كما يراه في النظرة البريئة الساذجة ، وثالث يراه في رشاقة الأطراف ، ورابع في بديع استدارة النواتى • أترأى اذا كان حبك وذوقك ميلا لنوع خاص من هذه المعانى الا مأخوذا به أكثر مما يأخذك اليه سواء ؟ مع ذلك فهذه التماثيل كلها بدع من قطع الفن • فإذا أنت حكمت مندفعاً وراء شعورك فقد تعرضت للغلو في مدح

ما راقك وتعرضت كذلك لاهمال ما سواء مما حكم له غيرك من الذاتيين بالتفوق المطلق .

ومهما يكن في هذا الاعتراض على النقد الذاتي من بعض الاسراف - لنسيان أصحابه أن أذواق الناقدين انما تتكون بعد ممارسة طويلة لمختلف صور الفن الذى يعرضون لنقده ومعرفتهم أن الجمال لا يتقيد فى الذهن المثقف بصورة مطلقة - فان فيه كذلك جانبا من الحق غير قليل . فالذاتية فى النقد داعية التحكم . والناقد قاض . وكل قاض تحكم معرض للخطأ . ومهما يقل عن فضائل المستبد العادل فان فيه الى جانب فضله نقصا لا مجيد له عنه لأنه كمين فى طبيعة الاستبداد . ذلك أنه ان أخطأ مرة لم يجد من يصده عن الخطأ فأمن فيه فتعرض لفساد كل مقاصده .

على أن النقد الموضوعى الذى يقصد الى استعراض الأثر الفنى من الوجهة التى أرادها الفنان قصد غاية معينة ليحكم بعد ذلك على مبلغ توفيق الفنان فى اختيار غايته والوسائل التى سلكها لبلوغ هذه الغاية لا يخلو من ذاتية النقد بمقدار قل أو كثر . فالناقد كما قلنا قاض . ومهما يتقيد القاضى بالوقائع والأدلة التى أمامه فان لنوع تعليمه ولادراكه وحسه أثرا مباشرا فى تقدير قيم هذه الوقائع والأدلة ، والقاضى فى أمور الفن أقرب للتأثر بالذاتية من القاضى

فى معاملات الناس . لأن الفن لا يرتبط بقوانين مرصودة النصوص كما ترتبط المعاملات ، والفن لا يتقيد بقواعد مقررة عند السواد كما تتقيد الأخلاق ، بل فيه مزية اللين والمرونة وله فضل الفيض والسيولة . لكنه مع لينه وفيضه ليس حرا الى حد الفوضى ، بل تمسكه الحياة بضرورتها وتخضعه لنواميسها الأزلية الخالدة التى تحكم فى كل مظاهر الحياة . واذا كنا لم نصل بعد لكشف ضرورات الحياة ونواميسها جميعا فى دقة وتحديد علميين فلن يعفينا ذلك من الارتباط بها فى كل ما نعمل ، والفن بعض ما نعمل .

لكن للنقد الموضوعى على النقد الذاتى فضل سعة الأفق ومزية العدل . فالناقد الموضوعى يعمل عمل القاضى السمع يسعى ليجىء تحت نظره عند النقد بالظروف الفنية وغير الفنية التى أحاطت بالفنان . ولا يتبرع برفض كل ما لا يلذه لذة خاصة وكل ما لا يرى فائدته الا بعد ايمان بأن ما كره لا يمكن أن يكون سائغا فى الحياة . وليتكون هذا الايمان فى نفسه يجب أن يرد هذا النوع الذى ينقد الى نظائره وأشباهه ، ويرى هل لهذه النظائر والأشباه مثل فى الحاضر . فان لم يكن لها مثل فى الحاضر رأى مثلها فى الماضى وما كان لهذا المثل من قيمة . ثم هو يستأنى قبل أن يصدر حكمه ليرى أهذا المثل القديم قد قضت عليه الحياة قضاء أخيرا فلا سبيل الى بعثه ، أم أنه كانت له الشهرة زمنا ثم كسفه غيره وقد تعيده ظروف

الى الشهرة من جديد • واذا كانت هذه الثانية هي الحال فهل هذه الشهرة متعلقة بشهوات الناس الأصلية التي تبدو زمنا ثم تخبو ولكن لتبدو من جديد ، أم هي من نوع أقوى حياة وأخرى بالبقاء بل بالخلود •

وقد يظهر فضل النقد الموضوعي على النقد الذاتي واضحا صريحا اذا دخل جماعة من النقاد متحفا كمتحف اللوفر بباريس أو كالمتحف البريطاني بلندره أو غيرهما من هذه المتاحف الكبيرة التي تضم بين جدرانها آثار الفن في العصور والبلاد المختلفة • هذا الناقد الذاتي تراه اذا وقف أمام قطعة أعجب بها أخذته عن نفسه وملكت عليه له ودفعته الى أن ينكر ما لا سبيل لانكاره من جمال الفن في غيرها اذا هو رأى بينهما خلافا أساسيا • أما الناقد الموضوعي فيرى لكل أثر جماله وان اختلف عنده مقدار ما يخلعه جمال كل أثر على عصره وعلى العصور الأخرى من نعمة الحياة التي يرجوها كل انسان في آثار الفن •

وأكد أحسنني لا أغلو اذا قلت ان النقد الذاتي ليس نقدا وانه الى فن القصص أقرب • وهل تراه يزيد على وصف التأثيرات الخاصة لشخص معين أمام مظهر من مظاهر الفن • فاذا كان هذا الشخص عاديا كان قصصه عاديا • وان كان ممتازا كان قصصه ممتازا • لكنه على كل حال قصص وليس بنقد •

وقد يكون هذا الحكم الذي نصدره أصدق ما يكون على الأدب العربي في هذا العصر • فليس نقد لهذا الأدب جديرا باسم النقد وبالبقاء لمن بعدنا على أنه نقد ، الا ما كان من نوع النقد الموضوعي • وما كلف صاحبه من العناء ما يحتاج اليه النقد الموضوعي • فأما الأدب العربي فقد يجمع نقده الذاتي بين القصص والنقد • وسبب هذا الفرق راجع الى نوع الثقافة في الغرب والشرق من جهة والى تاريخ الأدبين من الجهة الأخرى •

فثقافة الغرب قد تأصلت جذورها وتشابكت فروعها وبلغت من الغزارة مبلغا عظيما • وهي بعد ترجع الى أصول متشابكة على ما في ثمرها من مظاهر التناقض • ثم ان ما أطعمت به من ثقافات أجنبية قد جاءها على هون وفي أناة وجاءها على يد أبنائها فتمثلته وأساغته وصار منها وسار في تيارها • ولما كان الأدب مظهرا من مظاهر الثقافة كان تيار الأدب الغربي في كل أمة مرآة لهذه الحياة الغريبة • وكان كل كاتب وكل ناقد ينهل مع أصحابه من ورد مشترك فيشارك بذلك غيره من الكتاب والأدباء في أكثر من ناحية من نواحي حسهم وذوقهم •

ولقد غنت أمم الغرب فيما وضعت من قواعد التربية والتعليم بأن لا تجنى على هذه الشركة القومية العقلية • ومع ماتراه من شدة

تضال الطوائف ومن اختلاف منازع الأحزاب وتقاتل آرائهم، ومع شدة أوار هذه الحرب العقلية الدائمة الاستمرار في الغرب يدرك أهل هذه الأمم تمام الإدراك أن الحزبية والمذهبية يجب أن تكون ثمرات للثقافة وأن لا تكون أصلا من أصول الحياة • فكما أنك تبعث بأبناء الأمة يتلقون جميعا علوما معينة على طريقة معينة، وكما أن ذلك يظل شأنهم حتى يبلغوا الرشاد العقلي ويومئذ يختار كل منهم ما يشعر بالميل إليه من أنواع العلوم؛ فينقطع واحد للحقوق وآخر للطب وآخر للهندسة وآخر للتعليم وهلم جرا، ثم يتخصص الطبيب بعد تمام دراسته لطب العيون أو للجراحة أو للطب الباطني، ويتخصص المهندس للقانوني للمحاسبة أو للقضاء أو للتشريع، وكل من هؤلاء جاز أن تكون له نظريات جديدة في فنه يدعو إليها ويطلب أمثاله بالأخذ بها • كذلك لا تكون الحزبية المذهبية في الأدب أو في السياسة إلا بعد الأخذ من تلك الثقافة الغزيرة المشتركة بنصيب وافر •

فالنضال الذي نرى واختلاف المذاهب والأحزاب في الغرب هو كاختلاف ألوان الزهر والثمر في الشجر • هذه الألوان لا يكون اختلافها آخذا بالنظر داعيا إلى التفضيل إذا كانت باهتة خالبة لأن الأشجار التي أثمرتها ضعيفة السوق ومادة الحياة • وإنما

تأخذ بالنظر إذا كانت أمهاتها من الأشجار قوية مملوءة حياة وكانت تستمد هذه الحياة والقوة من أرض خصبة التربة لا ينفك صاحبها يعمل ليزيدها خصبا وقوة •

وأنت إذا تحدثت هناك إلى مثقف من رجال الدين أو من رجال العلم أو الأدب، أو من رجال الفن، رأيت لأول وهلة الأصل الثابت من الثقافة العامة بادي الأثر عند هؤلاء الرجال جميعا • وهذه الثقافة هي كما تقدم متأصلة متشابكة غزيرة • وهي ترجع إلى أصول مشتركة تمثلت كل مطعوم وكل طارئ • لذلك صح لنا القول بأن النقد الذاتي لآثار الفن الأدبي في الغرب يجمع بين النقد والقصص • لأن آثار الفن ذاتها تصدر عن الثقافة العامة وتقصد إلى الغاية التي جعلتها هذه الثقافة غايتها •

أما النقد الذاتي للأدب العربي فقصص صرف وليس في شيء من النقد • لأنك لا تستطيع مع أكبر الأسف أن تقول إن ثمة في هذا العصر الحاضر ثقافة عربية غزيرة مشتركة الأصول • ولا تستطيع أن تزعم أن أدبنا العربي مظهر هذه الثقافة • فالبلاد التي تكتب العربية وتتكلمها في هذا الزمان الذي نحن فيه قائمة ثقافتها على أرض جرداء، فيها أكثر الأمر نبت مستقيم من مخلفات الماضي المجيد ومجهودات تنفق لتطعيم هذا النبت السقيم بمظاهر مدنية

الغرب الحاضرة • بل ان من الجهود ما ينفق ليطلع بمدينة الغرب غير فرع ولا شجر ولكن ليلقى بها فى هذه الأرض المكسو ظاهرها بالصدأ والمحمل باطنها بميراث الماضى فلا يستطيع أن ينبت نباتا منقطع الصلة تمام الانقطاع بهذا الميراث • وتلك لعمري جهود ستبقى عقيمة حتى يجيء الزمن الذى يربط ما بينها وبين مدينة شرقية قائمة •

وما أرانى أغلو فى شيء مما أقول • وبحسبك مقنعا أن تستمع فى مجلس الى قوم اختلفت معاهد العلم التى أشأته • فانك لن تجد بينهم أى معنى من معانى الاشتراك فى الثقافة • بل ترى الشيخ الذى نشأ نشأة دينية لا يكاد يتفاهم مع من تعلم فى معاهد الحكومة المدنية • وهذان لا يتصل واحد منهما بصلة التفاهم مع الذين أخذوا من الثقافة الغربية بحظ ونصيب • لذلك ترى هذه المجالس تخلو أكثر الوقت من كل حديث مثقف وتدور فيها الأحاديث حول تافه الأمور ومصالح الحياة • هذا على أنك ترى الأحاديث المثقفة أمرا عاديا فى أوروبا فى كل الطبقات • وترى الكلام فى شؤون الفن والأدب والعلم تتداوله الألسن على مائدة الطعام وفى قاعات الاستقبال وفى كل مكان •

هذا التباين فى الثقافة بين الفئات المختلفة فى الشرق لا يجد حتى اليوم ما يخفف من حدته ، بل ان تفشى الجهل فى سواد الأمم

الشرقية وما يترتب على الجهل من ثورة نيران التعصب يجعل كل سعى للتقريب بين هذه الفئات يحاط من الريب والشكوك بما يجعل فشله محتوما أو فى حكم المحتوم • كما أن هذه الفئات لم تبلغ ثقافة واحدة منها مكانا عليا ينبت من بينها الذين ينسون مصالح الحياة ويتعلقون بالحق وحده ويجعلون سعيهم فى سبيل هذا الحق كل غرضهم فى الحياة وأملهم منها • ومصالح الحياة لن تصلح يوما أداة اتصال بين متباين هذه الثقافات للوصول بها الى أن تتشابه فروعها وتغزر مادتها وتتقارب ولو فى أناة لتكون يوما ثقافة قومية لها من الحكم والسلطان ما لثقافة كل أمة من أمم الغرب •

لكن النقد الصالح يكون أداة هذا الاتصال • والنقد الصالح فى هذا الموقف هو النقد الموضوعى البحت • هو النقد الذى يستطيع أن يسيغ كل ثقافة لذاتها وأن يردّها الى أصولها وأن يبين ما فى الآثار الفنية لكل مثقف من أوجه الجمال والقبح والحسن والسوء بالقياس الى الثقافة التى صدر عنها وأن يبين كذلك أوجه الاشتراك الصالحة بين هذا الأثر وبين ما سواه من آثار غير هذه الثقافة ، وأن يجعل من أوجه الاشتراك هذه وسيلة لترسم المستقبل • فاذا أمكن أن يكون هذا النقد وأن يتجه الى ناحية الكمال لينال منه أكبر حظ ممكن كان الأمل فى تقارب هذه الثقافات فى أناة ومن غير احتكاك • أما النقد الذاتى الذى يصدر عن ذى ثقافة معينة لكل

آثار الفن والآدب فقد يكون من أثره أن يزيد ما بين الفئات من تباين وأن يبعد الأمل في وجود ثقافة عربية أو ثقافة مصرية .

وما أحسب أثرا أدبيا أو فنيا يخلو من جمال وحسن مهما تكن الثقافة التي يصدر عنها، كذلك لأحسب أثرا من هذه الآثار خليقا بالمدح وحده . فاذا وضع الناقد نفسه في الموقف الذي وقف فيه الفنان وتحرى الغاية التي قصد إليها والسبيل التي سلك لبلوغ هذه الغاية فانه واجد حتما أن هناك حظا من الحسن كبيرا أو صغيرا ، كما أن هناك حظا من السوء كبيرا أو صغيرا في موقف الفنان وغايته وسبيله . واذن فقد وجب عليه أن يبين هذا الحظ من الحسن والقبح ، وأن يعالج صلة الحسن بما يراه من مثله في آثار الفن الأخرى ليضع حجرا في أساس الثقافة القومية .

أعلم أن هذا النوع من النقد يحتاج الى مجهود كبير . لكنه كذلك جم الأثر . وهو وحده الصالح في رأيي لربط آثار الفن المختلفة واقامة بناء قومي يكون أساس ثقافتنا في المستقبل .

وان الناقد الغربي مثله حين يعرض لآثار الفن مثل الرجل يدخل في قصر مشيد ثابت الأركان مزين بالداخل والخارج قد جرى فيه بزينة جديدة وضعت في مكان معين من إحدى الغرف وهو

يجدى رأييه في صلاح هذه الزينة وصلاح المكان الذي وضعت فيه وهو على علم بالقصر وما اشتمل عليه . فلو أن نقده كان ذاتيا بحثا لم يعتمد فيه الا على تقديره الخاص وحسه بالجمال، لكان عرضة للتحكم ؛ لكنه تحكم نسبي لأن علمه بالقصر وما اشتمل عليه يعدل به عن التورط في فاحش الخطأ أما الناقد العربي فمثله حين يعرض لآثار الفن كمثال الرجل يذهب الى أرض يراد تشييد بناء عليها من مواد كثيرة بعضها حاضر وبعضها غائب وهو مكلف الاختيار بين الصالح من المواد الحاضرة وبين ما يجب احضاره ليكون البناء متينا قويا ملائما للذين يتخذونه مقاما وسكنا . هذا الناقد العربي أدق من صاحبه الغربي مهمة وأشق عملا ، وهو بعد لا يحظى بمثل مكائنه ولا ينال مثل شرفه ، وهو بعد منظور اليه من الفئات المختلفة المتباينة الثقافة بشيء غير قليل من الرتبة ، وقل أن يحظى من الجمهور بذلك العطف والاعجاب اللذين يحظى بهما ناقد الغرب . لكنه اذا رسم نفسه غاية التقريب بين الفرق والتأليف بين مختلف منازعها وآرائها ، وبيان الصالح وغير الصالح من آثارها ، وشمله التوفيق بحظ يجعل عمله شمرا ، اذن فقد مهد السبيل الى الثقافة القومية ووضع حجر الأساس في المدينة الفاضلة التي لا تقوم على غير هذه الثقافة .

وما نحسب أحدا يخالفنا في ترتيب هذا الأثر على النقد الموضوعي .

وما نحسب كذلك أن ما ينفق في سبيل بلوغه من الجهد الا ينفق في خير سبيل ولخير غاية • والجهد الذي يقتضيه النقد الموضوعي يحتاج من الناقد الى الرضوخ لنوع ثقافة الكاتب الذي ينتقده وصلة ما بين الكاتب وهذه الثقافة وموضعه منها وفضل الكاتب أو نقصه وصلته بآثار غيره من الكتاب وهلم جرا •

خذ مثلاً كاتباً كمصطفى صادق الرافعي • فهو من الكتاب الذين يرون جمال الأدب العربي في احتذاء أساليب الأقدمين من الكتاب • وهو قد يغلو في تنفيذ فكرته الى حد التوغل في الماضي والبحث عن آثار الأقدمين على نوع خاص من الأساليب يدو لأهل هذا العصر في ثوب من التكلف الذي لا يسيغه غير الملمين بهذه الآثار ، ولا يرتاح اليه كثير من الملمين بها ومن يجدون بين الأساليب القديمة ما يتصل بأساليب عصرنا ويتسق واياها على خير نحو كأسلوب صاحب الأغاني وكأسلوب ابن المقفع في كيلة ودمية وفي غيره من كتبه • لكن الرافعي حتى عند هؤلاء وأولئك يجيد في بعض الأحيان ويسمو باجاده الى درجة عالية في النوع الذي يعالجه من أنواع الفن ، ويتفق له أحيانا من بديع صور الخيال ما يبعث الى نفس قارئه هذا الأثر الذي يطمع فيه كل فن : الغبطة واللذة • فأنت اذا أردت نقده نقدا موضوعيا وجب أن تبين ما له من فضل وأز تظهر كذلك أن هذا الأسلوب الذي يكتب به

لا يسهل تحميله كل المعاني والصور التي كشف عنها تطور المدنية في هذا العصر •

ولكى تستطيع أن تصف الرافعي أو غيره من الكتاب يجب أن توازن بين أدبه وأدب غيره من مذهبه ومن المذاهب الأخرى • فأنت بهذه الموازنة تجعل القارئ مطمئنا تمام الاطمئنان لحكمك ، وتجعل الكاتب الذي تنتقده بعيدا عن أن يطعن في نزاهتك •

واطمئنان القارئ لحكم الناقد عظيم الأثر في درك الغاية من النقد الموضوعي على ما بينها • وهي غاية سامية على ما رأيت • وليس من غضاضة في أن يجعل انسان من السعى اليها غاية حياته •

هذه بعض خواطر في النقد وردت على الذهن في تلك الفترة من الليل دونها كما وردت ولم نرد أن نضيف اليها شيئا ، وهي لا تزيد على أنها خواطر • ولا نطلب الى قارئها أن يجعل لها أكثر من هذه القيمة •

أناتول فرانس

الاحتفال ببلوغه ثمانين عاما

(فى ١٦ ابريل سنة ١٩٢٤)

احتفلت فرنسا أول من أمس بأناتول فرانس شيخ مشايخ كتابها فى هذا العصر ببلوغه الثمانين عاما • وقد شارك فرنسا فى احتفالها برجلها الكبير كل كتاب العالم المتمدين • فليس أناتول فرانس كاتب فرنسا وحدها ، وهو ليس كاتب هذا الجيل وحده ، انما هو من كتاب العالم الذين تظل كتبهم للعالم فى كل الأجيال وفى كل الأمم • هو هومير ، وهو دانت ، وهو شكسبير ، وهو جيتى ، وهو أناتول فرانس • هو الفكرة الانسانية المجتمعة فى نفس واحدة • لذلك كان الاحتفال به احتفالا بالفكرة • واذا صح أن الفكرة هى الحياة فى أسمى معانيها فالاحتفال بأناتول فرانس احتفال بأسمى معاني الحياة •

ومن حق أناتول فرانس على المصريين أن يذكروه يوم الاحتفال ببلوغه الثمانين ، فهو كاتب من كبار كتاب العالم • وللكاتب من المكانة فى النفوس ما ليس لغيره ، لأن الكاتب كغيره من رجال الفن - بل أكثر من غيره من رجال الفن - هو أداة انتقال الفكرة بين الناس جميعا ؟ وهل كان لغير آثار الفن ومظاهر الفكر خلود على الحياة ؟ ان العالم لا يزال يتناقل شعر الأقدمين وحديثهم وما كتبوا معجبا به مقدسا اياه ، والعالم لا يزال يجد فى آثار الفن مما خلف المصريون القدماء والرومان واليونان متاعا للقلوب والعيون • فالعالم لا يذكر سوى آثار الفن ومظاهر الفكر والفن على صفحات الحياة •

ومن حق أناتول فرانس على المصريين أن يذكروه يوم الاحتفال ببلوغه الثمانين • فقد عرف هذا الكاتب الحكيم ما أصاب مصر من ظلم ، وما تتطلع اليه من حرية ومجد يوم كان الوفد المصرى فى باريس سنة ١٩١٩ • فلما كتب مارجريت كتابه « صوت مصر » وضع أناتول فرانس له مقدمة شارك بها هذا الشعب المجيد الطامح الى الحرية والى المجد فى آماله وفى طموحه •

وكنا نود أن نذكر أناتول فرانس وأن نشارك العالم فى الاحتفال به بشرح فكرته وكتبه ، لكن فكرة أناتول فرانس فكرة واسعة المدى ، وكتبه من تلك الكتب الدقيقة التى تحتاج منك الى عناية

كبرى • لا يسعك أن تترك صفحة من صحفها من غير أن تلتفت إليها ، وأن تشرك القارئ معك فيها • كل صفحة ، بل كل سطر ، كالماسة الدقيقة قد يفوتك جمالها لأول نظرة تلقى بها عليها ، فإذا أنت قلبتها وأنعمت النظر فيها ثم عدت إليها لم تطق بعد ذلك تركها • ومثل هذه الصحف ، ومثل تلك الكتب وما تحويه من فكرة وفن ليس مما يهون نقله في كلمة تكتب في صحيفة سيارة •

لكننا مع ذلك نود أن نشرك القارئ معنا في كل مجمل من بعض نواحي فكرته علنا نكون قد أدينا للكتاب الكبير حقه من الذكر ، ولشريك المصريين في آمالهم ومطامحهم بعض ما يجب له من الشكر •

أنا تول فرانس كاتب ، لكنه كاتب محيط بكل ما في الحياة ، محب لكل ما في الحياة ، ساخر من كل ما في الحياة • هو ليس بالرجل الذي يقف عند أحد مظاهر الحياة فيولج به حبا وينقطع لتقديسه والتسبيح بحمده • وإنما يقف أمام هذه المظاهر جميعا • سواء ما كان منها في الماضي وما هو واقع أمام النظر ، وهو يرى في كل منها موزعا لمسرة النفس والعقل ، فيبحث عن هذه المواضع يبتغي لنفسه المسرة واللذة ، ويطول به البحث فلا يلبث أن يرى

الى جانب المواضع السامية مظاهر الضعف الانساني فيتسم ، وقد يضحك • وهل الحياة الا الاضطراب بين القوة والضعف ، والرفعة والضعف ، والسمو والانحطاط ؟ وجوانب الضعف في الحياة هي التي تجلب الحياة الى أكثر الناس ، بل هي حياة أكثر الناس • وهي ، على أنها جوانب ضعف في نظر العقل وحده ، جوانب القوة في الحياة • أليست الشهوة في الانسان ضعفا ؟ شهوة الحكم وشهوة المال وشهوة المجد وبعد الصوت • لكن هذه هي التي تدفع الانسان لكل النقائص ، هي التي تبعث فيه القوة على الكفاح والسعي والنجاح في الحياة • أفتضحك أنت من سلطان الشهوة الذي يدفع في النفس الحياة ، أم تضحك من حكمة العقل الذي يقف عاجزا أمام سلطان الشهوة مكتفيا بالسخر منها • • • ؟

يقف أنا تول فرانس أمام مظاهر الحياة جميعا ، ماضيها وحاضرها • وهى سبيل الى الوقوف أمام مظاهر الماضي غير الكتب وسائر آثار الماضي • لذلك يحب أنا تول فرانس الكتب ، ولذلك يفرد لها من داره خير مكان ، ولذلك يعنى بها عنايتك بابتك العزيز عليك ، لا يرضن عليها بمشقة • هو قد يعرف أن كتابا نفيسا في بلد سحيق ، فلا يزال يسعى ليحصل عليه ، ولو كلفه السعي الاسفار وأكثر من الاسفار ، ويعدل حبه للكتب حبه لسائر الآثار ، فالرسوم والنقوش والصور على أنواعها عزيزة عنده • وهذا الغرام

يدفع به الى الولع بالمجموعات العجيبة النادرة • وقد يدهشك ما تكلف هذه المجموعات من مشقة ونفقة • سافر «سلفستر بونار» بطل رواية أناتول فرانس المسماة بهذا الاسم الى ايطاليا باحثا عن علبة من الكبريت عليها صورة قديمة تكمل مجموعة من مجاميعه ، وعلب الكبريت وماعليها من نقوش ليست أعجب ولا أندر المجاميع •

وهذا العاشق للكتب يجد أكبر اللذة في التحدث الى ما فيها ومن فيها ، والى كتابها ومؤلفيها • كان من أول ما كتبه أناتول فرانس رسائل في نقد الكتب والكتاب مجموعة اليوم في أربعة أجزاء بعنوان « الحياة الأدبية » • في هذه الرسائل القصيرة صورة من أناتول فرانس ، فيها ترى الرجل المطمئن النفس والضمير ، الدائم الابتسام ، الجامع في ابتسامته بين الاشفاق والاستخفاف ؛ وفيها ترى الرجل الذي استطلع صور الحياة في مختلف العصور ومختلف الأمم • ولعل أصدق صور حياة الأمم ما تتناقله من أساطير • لذلك يحب أناتول فرانس الأساطير ويلذذ أن يرويها هازئا بما فيها من سخف الانسانية التي لا تزال طفلة برغم ما مر بها من القرون ، محبا لهذا السخف جبك لما يبدو من الطفل الصغير الذي تحبه لسخفه •

والحياة في نظر فرانس ، الحياة الانسانية على الأقل ، أو قل الحياة كلها ، ليست نظاما محكما يستطيع العقل تقرير أسسه

وقواعده • انما هو مجموع مضطرب دائم التجدد والانهيار ، للمصادفة في تجدد وانهاره أثر كبير • لذلك لا ترا في كتبه روايا ، ولا شاعرا ، ولا فيلسوفا ، ولا قصصيا • بل تراه حكيما جمع بين الشعر والفلسفة والقصص والرواية ، وألف بينها في نظام بديع كما يؤلف الصائغ بين مختلف الدرر المختلفة اللون والشكل فلا يكون من هذا الاختلاف الا كمال النظام ، ولا يكون من جمع فرانس بين صور الحياة المختلفة الا ما يزيد المجموع حقيقة وحياة •

ولتكون حياته حية حقا ، وليكون فيها كل ما في الحياة من معان وصور ، ينزع هذا الكاتب الكبير في كل كتبه الى الحوار • وهو يجمع المتحاورين من مختلف طبقات الجماعة على صورة عجب • فهو يجمع بين الفلاسفة والعلماء الذين ملوا الحياة فكانوا لشدة ما ملوها أشد لها حبا ، وأكثر بها تعلقا ؛ والشبان الذين لا يزال الآمل في المثل الأسمى يغويهم بالمجازفات والمخاطر ، فيجعلهم بمجازفتهم ومخاطرتهم أكثر استمتاعا بالحياة وان كانوا أكثر لها احتقارا ؛ والعذارى البالغات في الطهر والبراءة حد السخف والتفاهة ، والسيدات اللاتي اعتصرن لب الحياة من قلوب الرجال وعقولهم ، فهن ينعمن به ويخلعن فتات نعيمهن متاعا للرجال • فاذا اجتمع هؤلاء ودار الحوار بينهم رأيت الانسانية على حقيقتها •

و رأيت العقل المحلق في سماوات التجريد يصل الى حدود الوهم ،
ويحسب الوهم حقيقة وحسا ، ورأيت العلم المحقق بالمجهر
المستكشف بالأشعة الواقف عند حدود الملاحظة يزعم أنه كشف
عن حقيقة كل شيء ونظامه ، وهو بعد عاجز عن أن يكشف عن
كثير من أقرب الأشياء لنا وأمسها بنا • ورأيت هذا العلم وذلك
العقل يجدان في اندفاعات الشباب ما يبسم له العالم الفيلسوف •
ورأيت في اندفاع الشباب وشهوته وحياته ما يضطرب له العلم
والعقل فرعا • ثم كانت الابتسامة التأففة الطاهرة ، وكانت النظرة
النسائية المملوءة حبا للحياة وحرصا على خلودها • • • وأنت بين
هذه القوى المتدافعة تشعر بيد الكاتب المحسنة تنقلك من حديث
الى حديث فاذا كل حديث حق وحكمة ، واذا العقل والعلم
والشباب والحب كلها الحياة الدائمة الانهيار والتجدد في نظام
لا يضطرب ولا يتعثر • واذا هذا الحوار الذي جمع بين هذه
المظاهر كلها هو صورة الكاتب الذي يرى الحياة من كل جوانبها
ويحبها جميعا حب خنان ورحمة كما يحب الأب ابنه ، وحب
استمتاع ولذة كما يحب العاشق معشوقته • ثم اذا بك قد شغفت
بهذا الحوار حبا أن صاغه أناتل فرانس حوارا مملوءا بالحياة
والقوة ؛ لكنها حياة مطمئة وقوة هادئة ؛ وهو مع حياته وقوته
ينساب سلسا في أسلوب لا ينبو وكأنه الماء الصافي ينم صفاءه عن
كل ما في الغدير من صور الحياة فيزيدها بهاء وجمالا •

وهذه الحكمة التي تجمع العقل والعلم والشباب والحب وكل
ما في الحياة من صورة ومعنى ، والتي تدرك كل شيء وتعذر من
كل شيء وتشفق على الضعيف اشفاقها على البائس وعلى الأثيم ،
لأنها ترى الأثيم يؤسا وضعفا ، وترى الضعف يؤسا وانما ؛ والتي
تعجب من الحياة بكل صور الحياة - هي أسمى مظاهر ما يسمونه
التشكك واللاأدرية وما شئت من ألفاظ تقابل لفظ (السبتيسم)
الفرنسي • وهل ترى في الحياة شيئا ثابتا تقف عند الايمان به
دون سواء ؟ أليست الحياة تمور وتجدد وتغير ؟ فأى صورها خير ؟
أيها أنعم حالا : هذا الرجل الغني المستمتع بسلطان الغنى وبجاه
المال والقدير على أن يحسن ويسىء ؟ أم هذا الرجل الفقير المنقطع
الى الله يريد أن يغفر الله له وهو لا يستطيع لنفسه ولا لغيره خيرا
ولا شرا ولا يستطيع الاحسان ولا الاساءة ؟ وأيها أكثر بالحياة
استمتاعا : هذا العالم الذي بحث أسرار الحياة ووقف من دقائقها
على كثير ؟ أم هذا الرجل الساذج المفتول الساعد الذي يسير بين الموجودات
سيرة الحيوان القوى ويستمتع بها استمتاعه ؟ وأيها أحب اليك : هذه
المرأة الجميلة التي تجد في كل وقت من اعجاب المعجيين بها ما يملأ
قلبا سرورا ، وهي مع ذلك معنية بهم جميعا معطية نفسها للحاضر
خشية ما في المستقبل من تجاعيد في الوجه ومن بياض في الشعر ؟
أم هذه الأم المكبة على عملها في بيتها تنتظر من أولادها رجلا
يكونون لها في المشيب شبابا وحين الضعف قوة ؟ • ثم أي

الجماعات أسعد : أهى الجماعات القديمة الرحالة العائشة عيش البدو والبساطة ؟ أم هى الجماعات المتمدينة المترفة الجامعة الى جانب يؤس الفقراء ما تنعم الجماعة به من صور الفن والعلم ؟

لكن هذه جميعا على ما بينها من تناقض هى صور الحياة • وهى كلها قد اجتمعت عند أناطول فرانس فوسعتها نفسه فنفتها قلمه ، معجبا بها محبا اياها جميعا •

وهو لا يقف عند محبته للحياة ، بل هو يحب مظاهر الحياة ، على أن تكون هذه المظاهر باقية متجددة • وليس باقيا على الحياة من مظاهرها الا العلم والفن • وهو لذلك بهما مشغوف ولهما عاشق • وهو لشدة شغفه بهما يتمثلها تمثلا • فعلمه فن وفنه علم • اقرأ ما شئت من كتبه • انك لن ترى فيما تقرأ خيالا ولا وهما • انما تلك آثار الفكر الانسانى فى مختلف العصور ؛ وقف عليها فرانس لأن شغفه بالانسانية جعل الأقاصيص والكتب وما اليها من آثار وصور عزيزة عليه فهو لا يفتأ ينقب فيها من غير ملال ولا ضجر • وهل يمل محب النظر الى محبوبه ؟ وهل يمل التفتى بآثاره ؟ وهل يمل الابتسام من ظريف سخفه وحمقه ؟ اذن أنت اذ تقرأ ما يلد لفرانس أن يكتبه من قصص الماضى انما تجتلى ابتسامته الساخرة من غير سوء ؛ وأنت تقرأ تاريخ الرومان فى كتابه (على الحجر الأبيض) وتاريخ العصر الحاضر فى أجزاءه

الأربعة وفى سائر كتبه ، انما تسمع أغاني هذا المحب الوامق للانسانية الخالدة بنعيمها وبؤسها وبجمالها المخيف وقبحها المليح •

لكنه فى حبه للحياة يمقت من مظاهر الحياة القسوة والشقاء ، ولا يرى فى أولئك العظماء الذين يقيمون عظمتهم على الدماء الا قتلة مجرمين ؛ وهو لذلك يحب الاشتراكية لأنه يعتقد انها محقة أكبر قسط من العدل ، وان كان يسخر من الانسان ولو اشتراكيا لأنه يعرفه خاضعا للشهوة ، والشهوة لا تعرف العدل • هو يحب الاشتراكية ويمقت القسوة والشقاء والدم ؛ ويرى فى أبطال الثورة الفرنسية ، أو آلهتها كما يسميهم ، قوما غلبت أطماعهم مبادئهم فهدموا ركن العدل الذى سعوا لاقامته لأنهم لجأوا للبطش والتتكيل بالحرية • وهل للحياة من غير الحرية معنى أو قيمة ؟ أو ليس اذن من واجب كل فرد أن يقوم فى وجه كل اعتداء على الحرية مهما كلفه قيامه من تضحية ؟ ••

أعلنت ألمانيا الحرب سنة ١٩١٤ وكان فرانس يومئذ فى السبعين من عمره ، وكان فى ذروة مجده وحكمته ، مع ذلك هجر قصره ومجموعاته المحبوبة وذهب الى أصدقائه الوزراء يرجوهم ويلج فى الرجاء أن يكون جنديا يدافع عن الحرية المهانة ، وكما كان

أسفه عظيما حين اضطر الى أن يعود الى حياة السكون لأن الجيش لا يقبل من بلغ السبعين في صفوف الجنود •

ولا يزال فرانس الى اليوم أكبر نصير للحرية على مختلف صورها ؛ ولا يزال نصيرا لحرية الفكر والرأى بنوع خاص • دافع عن هرفيه يوم حوكم لأنه كتب يجذب احدى الجرائم • ودافع عن مؤلف (الجارسن) يوم استردت الجمهورية منه (اللجيون دونور) • وهو في دفاعه يرى أن كل عمل وكل قانون يحد من حرية الرأى وابدائه قانون أثيم •

فالحرية وحدها والدفاع عنها هو الذى يثير هذه النفس المطمئنة ، وهو الذى يمحو عن شفاء أناتول فرانس ابتسامتها الدائمة • فأما ما بقيت الحرية مصونة فالحياة سخريه لذيذة تستحق أن تحب في سكوز وسلام ؛ فاذا كان آخر الأجل اطمأن الحكيم الى الانتقال من هذا العالم راضى النفس هادئا مستريحا •

★ ★ ★

فلعل القدر الذى مد فى أجل هذا الحكيم الى الثمانين يضاعف له فى سننى الحياة • فليس شك فى أن كتابا يكتبه فى عام يعدل حياة كاملة تقضى فى حماقة من الحمامات التى تنطوى صفحتها بانطواء صحيفة الحياة •

أناتول فرانس

٢

لمناسبة وفاته فى ١٢ اكتوبر سنة ١٩٢٤

ارتضى أناتول فرانس أن يموت أمس • ولسنا ندري مبلغ ما كان لرضاه من حظ فى فاجعة موته • لكنه عودنا أن نقرأ عمن نقلتهم ريشته من عالم الحياة انهم ارتضوا الموت، وانهم كانوا بالموت أكثر رضا كلما كانوا من الحكمة أو فر حظا • فاذا صح هذا كان أناتول فرانس قد مات لأنه أراد أن يموت، وكان قد طال احتضاره لأنه لذ له أن يتذوق على مهل درجات الحياة ودركات الموت • وكذلك كان من فضل حكمته أن اتفق كتاب أجله مع ما أراد لنفسه •

ارتضى أناتول أن يموت فى منتصف الحادية والثمانين من عمره • وأن يودع العالم ولما لم يمض نصف عام على احتفال العالم بثمانينه • فكأنه استنفذ فى ستة أشهر تاجا من المجد كان يكفى ليقيم حياة متهدمة سنين طوالا • أو كأن الاعتراف بفضل طمأنه الى أداء واجبه للحياة فرأى من حق نفسه عليه أن يستريح من الحياة • أو ليس من حق من جهد نهاره أن ينام مطمئا ؟ فمن حق من جهد حياته أن يموت راضيا •

ولقد قضى أناتول فرانس حياة جد وعمل لم يفتر يوما ولم يخمد نشاطه ؛ ولم يلهه المجد ولا الجاه ولا المال عن العمل • بل كان كلما علا نجمه زاد سعيه ، وكان سعيه في دائرة العلم والفن • وتلك دائرة أزلية خالدة من زادها سعة أجلسه في عالم الخلد على أكثر عروشهم سموا • ولعل العرش الذي قدر لأناتول فرانس أن يجلس عليه هو بين أسمى تلك العروش السامية •

ولد أناتول فرانس بباريس في ١٦ ابريل سنة ١٨٤٤ م • وكان اسمه جاك أناتول فرانسوا تيبو ، وكان أبوه صاحب مكتبة ؛ فشب بين الكتب والنقوش والصور فهو يها جميعا • لكنه أحب القديم منها وتعشقه • فجعل يديم في هذا القديم النظر والفكر • فقرأ كتب اليونان والرومان ودرس كتب المسيحية أول نشأتها • لكن غرامه بهذه الصور لم يشته عن درس عصره وعصور السابقين له • وكان أكثر دراسة للشعراء لأنه كان مولعا بالشعر وبقوله • فكانت أولى رسائله رسالة عن الفرد دفيني Alfred de Vigny نشرها في سنة ١٨٨٦ م • ثم انقطع للقريض يشمره في مجلات الشباب حتى اذا كانت سنة ١٨٨٣ م • نشر مجموعة من الشعر عنوانها *Peèmes Dorés* قابلها النقادون جميعا بالاستحسان وأعجب الناس منها بسمو الفكرة ورشاقة الأسلوب وبروز ذاتية الشاعر •

ثم نشر بعد ذلك عدة كتب تناول فيها بدء المسيحية في انتشارها ، ونالت هذه الكتب من الاعجاب ما نالته مجموعة شعره الأولى حتى لقد قال عنه ناقد : « ان لأشعار فرانس صفاء سماء الشرق وبساطة فرجيل وسلاسة الأقدمين • ولكأنها حديث اللاتين سري بين أبحاثنا في اللغة وفي الإلهام • وشعره ضاحك ضحك دافنيه ، ويشتمله ما يشتملها من أردية الأقدمين التي تمتاز - وان ألقيت على أكتاف شابة - بدقة في الشيا وبرشاقة التماثيل » •

ولم يقف أناتول فرانس عند قرض الشعر ، بل ظل بحكم نشاطه بين الكتب في مكتبة أبيه مغرما بالكتب عظيم الشغف بها والمحبة لها • وكما يود المحب أن يقدم لمحجوبه أجمل الهدايا ، كان هو يود أن يهدي الكتب ما يعجبها ويلذها • فشارك في وضع فهرس نشر تحت اسم *Bibliophil illustré* • ثم نشر لمحبي الكتب مؤلفات راسين وكتاب العفريت الأعرج للساج ومؤلفات مولير وغيرها من الكتب بعد اذ علق عليها جميعا بشروح جليلة الفائدة •

وفي سنة ١٨٨٧ م • تولى قسم النقد الأدبي في جريدة الطان فلم يقف نقده عند ما كان يظهر من الكتب • بل كثيرا ما كان يتناول كتباً قديمة ، وكثيرا ما رجع الى شعراء الرومان واليونان وكتبهم يتحدث عنهم الى قارئيه ويتحدث واياهم عن زمانهم ويشرك قارئيه معهم في الحديث • وكان حديثه يخلق من مقالاته

فى النقد « صالون » أدب ، يأوى اليه الكتاب والفلاسفة قدماء
ومحدثين •

ومن ذلك التاريخ بدأ أناتول فرانس يهجر الشعر ويظهر فى
ثوب جديد • وكان ثوبه هذا أكثر جمالا وبهاء من شعره ، زمن
ذلك التاريخ قيل عنه : « مهما يكن من فضله كشاعر فقد عقد له
لواء المجد عن حق كمتحدث ذى ظرف وكياسة » • لبس ثوب
المحدث فى كتبه وفى قصصه وفى رواياته ، وظل مرتديا اياه لم
يخلعه الا أمس حين عقل الموت قلمه ولسانه •

كان فرانس اذن باريسى المولد والنشأة • وكان فى مكتبة أبيه
يقلب ما يشاء من كتب ونقوش وصور • وباريس عالم يموج بكل
صور الحياة : ماضيها وحاضرها • اجتمع فيها جلال القديم وبهاء
الحديث ؟ تتحدث اليك مدارسها ومتاحفها ؟ تناجيك طرقها
وبساتينها بكل ما قد يجول بنفسك من حديث أو نجوى • كل
سؤال لك فيها له جواب • أتريد أن ترى الملك وعظمته ؟ اذن
فاقصد الى فرساي فناج هذه التماثيل المنتشرة فى كل مكان محدثة
عن جلال الملك وسلطانه • أتحب الديمقراطية والجمهورية ؟ هذه
الحياة هناك فيها كل مظاهر الديمقراطية من حرية ونشاط • وكل

مظهر للملك وكل أثر للحرية تجد منه ما تحب فى هذه المدينة •
والكتب عالم أوسع من باريس وأطول من الحياة • أليس قد اجتمع
فى صفحاتها ميراث الماضى جميعا • هذا الماضى الذى لا نعرف أوله
وكلما كشفنا منه عن جديد أودعناه بطون الكتب • فكيف يكون
حال رجل نشأ فى هذين العالمين - باريس والكتب - اذا كان القدر
قد وهبه نفسا تتسع لهما وتفيض عنهما ، ووهبه قلبا شاعرا يحبهما
ويشغف بكل ما فيهما •

تلك كانت حال فرانس • أحب ما فى باريس وما فى الكتب
من حياة الماضى والحاضر ؟ وكان حبه لهذه الحياة أول شبابه قويا
ينبض به قلبه • لكن قلبه كان رقيقا واز نبض ، لأن قلبه كان فى
حكم عقله وتحت سلطانه • فلما آن للشاعر أن يضع قيثارته لترك
المكان للمحدث الكيس الطريف كان حب فرانس قد شمل الحياة
جميعا • والحب اذا اتسعت دائرته كان لطيفا رقيقا ؟ كان حبا يزنه
العقل ولا تلهيه الشهوة ؟ كان حب الأب لأبنائه الكثيرين لا حب
الأم لطفلها الوحيد : هذا الأب الذى يتسم مغتبطا لابنه المجد ،
ويتسم مسرورا لابنه الثانى حاضر البديهة ، ويتسم فرحا بالطفل
الصغير يتعثر حين يجرى يريد أن يمسك فراشة أمامه • لا تلك
الأم التى تخاف على صحة ابنها ان جد ، وتخاف عليه الحسد ان
يدا ذكاؤه ، وتخشى عليه الخطر اذا تعثر • وهل كان لفرانس

أن يرى في الحياة خيرا أو شرا • وما حكمة الحكيم إذا ظل
يخضع للشهوة خضوع الجاهل لها •

كانت حكمة فرانس اذن باسمه لأنها كانت محيطة بحياة العالم
بل بحياة العوالم • وكانت ترى في كل شيء عذره • وكانت لا تعرف
شيئين متناقضين : أليس الخير والشر جميعهما أعمالا لبنى الانسان؟
وهل بينها من فرق الا ما بين الزيتون الأخضر والزيتون الأسود
من فرق في اللون على تقاربهما في الطعم ؟ لكن الخير يجب أن
يكون ، والشر يجب أن يكون ، كما يكون الوجود والعدم والماضي
والمستقبل • ويجب أن لا يعرف الناس أن الوجود والعدم لا فرق
بينهما ؟ وأن الماضي والمستقبل لا وجود لهما • بل فليعرفوا فلن
تعنى عنهم معرفتهم شيئا •

على أن هذه الحكمة الباسمة الى حد السخر بما في الحياة لم
تدفع صاحبها يوما الى التخلي عن الحياة والزهد في الناس • بل
لقد كان فرانس يحب الانسانية حبا جما • وكانت قاعدة الحياة
عنده العث بالناس والاشفاق عليهم • لكن عبث بهم كان بريئا
واشفاقه عليهم كان عظيما • نكبت روسيا بالمجاعة بعد قيام الحكومة
البلشفية فيها ، وأعطى فرانس جائزة نوبل وقدرها اثنا عشر ألف
جنيه فوهبها لمنكوبى المجاعة من الروس • وكثيرا ما دعاه اشفاقه
على طبقات العمال والبؤساء الى أن يحتمل من أجلهم مشقة وعنتا •

لم يتخل فرانس عن الحياة ولم يزهد العمل ، ولقد يدهشك
أن تعرف أنه كتب أكثر من خمسين كتابا كلها حكمة بالغة • وقد
يزيدك دهشة أن تعرف أنه لم يخط في هذه الكتب سطرا من غير
أن يزنه أحكم الوزن ومن غير أن يختار له أسلس اللفظ وأفصح
وأمتنه • ذلك بأنه كان يرى النبوغ نتيجة جرد وسعى متواصل
لتنمية هبة تخلعها الطبيعة على مختاريها • فأما الذين يكتفون مما
تهبهم الطبيعة ببريقه فأولئك لا ينبغي ولا يعرف الناس لهم قدرا •

واليوم ارتضى أنا تول فرانس أن يموت بعد اذ خلف للانسانية
ميراثا يبقى جديدا على كل زمان جديد • واليوم ينتقل فرانس من
بين ذويه وأهله ليقى خالدا بين الناس جميعا • واليوم تتبادل
عوالم العلم والفن والآدب والحكمة التعازى فيعزيها : ان فرانس
خلدت حكمته ، ومن خلدت حكمته لا يموت •

أناطول فرانس

٣

أشهر مؤلفاته

قل بين القراء من لا يعرف تاييس • فكثيرون من رأوها في الأوبرا تمثلها السيدة منيرة المهدية ، أو على الشريط السينمائي • وكان أولاء قد أحبوها • لكن الذين عرفوا تاييس في قصة أناطول فرانس أكثر لصاحبتهم حبا وان كانوا أقل من السابقين عددا •

وهؤلاء دفعهم حبهم فرأوا تاييس الأبرا وتاييس السينما ، وعشقوا موسيقى الرواية وصورة بطلة الشريط • لكن هذا العشق لم يزدحم غراما بالراقصة القديسة لأن قصة أناطول فرانس تشمل الموسيقى وتشمل الصورة جميعا • فليست نبرة من النبرات ولا جواب ولا قرار يهز نفسك عند سماع أوركسترا تاييس الا كان له مقابله من هزات النفس أثناء قراءة القصة • فأما صورة الشريط فلا تعدو أن تكون خيالا للحقيقة التي يصورها فرانس • وأنت الى جانب الموسيقى والصورة مغمور خلال القصة بعالم بديع تخلفه ريشة

الكاتب العظيم فلا تلبث في انتقالك من صفحة الى صفحة ومن حديث الى حديث أن تشعر بلذائذ مختلفة تتمتع بها مشاعرك جميعا: يتغذى بها عقلك ، وتسرع لها نفسك ويضطرب لها فؤادك ويتنهج بها قلبك وتتغشش بها عواطفك ، ولا يبقى عصب من أعصاب الحس الا ينال من الاستمتاع نصيبا يذره مطمئنا في نشوته ناعما رصيا •

مع ذلك فتاييس قصة ليس أبسط منها ، هي خلو من الوقائع ومن المفاجآت ومن الاضطراب • وهي قد تبدو للنظرة العجلى لهو خيال ظريف يلذه أن يبهرك • لكنها لدى انعام النظر قصة صادقة قوية فيها كل ما في العالم من سحر الحب والألم بالناس •

فقد ولد بافانوس بالاسكندرية من أسرة ذات نبل • لكن أهله لم يكونوا يمدونه من المال بما يسد مطامع لذائذ الحياة عنده • فلما كان في العشرين من سنه لقيه راهب دله على طريق الهدى الذي يؤدي الى لذة الخلد من غير حاجة الى المال • فنسك وانقطع الى العبادة في الصحراء بين المتقشفة والمعتزلة • ولم يطل به الزمن حتى صار قديسا بين الرهبان وصار له تلاميذ وأتباع يأخذون عنه قواعد التقى والايمان •

وقضى نسكه أن يذكر ماضى شبابه ليقدّر شوهه وقبحه • فذكر يوما أنه رأى فى ذلك الحين على مسارح الاسكندرية ممثلة تدعى تاييس بارعة الجمال يثير رقصها البديع شهوات النفوس وتدفع حركاتها الموسيقية الأرواح الى الضياع فى حمأة المذات • وذكر أنه اندفع يوما الى دارها فلم يردّه الا حياء الشباب وضيق ذات اليد • وأثارت هذه الذكرى فى نفسه صورة الراقصة ودقائق جمالها الباهر • فاستغفر ربه من نزغ الشيطان واعتزم خلاص هذه الروح من الخطايا لتخلص معها أرواح كثيرة ، وليكون هذا الجسيم الذى أبدعه الله مثلا للجمال دار روح لا يقل عنه جمالا •

ولم يثنه عن عزمه نصيح أخ له ذى فضل وتقى • بل ودع تلاميذه وأتباعه وهجر الصحراء وسار فى طريقه الى الاسكندرية يدعو كل من لقيه الى حمى الله ويدعو الله غير وان أن ينزل على تاييس هداة • ولما بلغ المدينة استعار من صديقه القديم نسياس ثوبا ستر به ملابس الراهب وذهب الى المسرح فرأى تاييس اكتملت فيها روح المرأة فازدادت بهاء وسحرا • ثم دلف الى دارها يدعوها الى حمى الغفور الرحيم •

ولم يجد الراهب عنتا فى بلوغ غايته • فقد ولدت تاييس فى عائلة فقيرة ، ونشأت نشأة دينية ، وأحبت فى طفولتها ألوانا من التقى • وحين ألقى بها الشباب فى يم الحياة أحبت فتى عريض

الجاه عظيم الثروة أذاقها لذائد العصر طرا • فلما أترعت كثرته فهجرتة فذهبت الى المسارح راقصة بين الراقصات ، فبرزت عليهن بقتة جمالها ورشيق قدها ولين حركاتها ، فسحرت الناس وصارت تاييس الاسكندرية يرتضى عند أقدامها كل عظيم وينثر تحت نعالها الذهب والجوهر • ثم سئمت هذه اللذائد المضنية حين خشيت أن ترسم تجاعيد الزمن على جبينها النقى • فلما ناداها الراهب الى حمى ربه عاودها رجع من تقى الشباب فلم يطل ترددها وتبعته حتى بلغ بها دير الأم « البين » فأسلمها اليها وسجنها فى غرفة ضيقة لتطهر نفسها من رجس العالم ولينسى جسمها لمس الأيدي ومس الشفاه وحرارة الأنفاس ورعشة القبلات •

وعاد بفنوس الى تلاميذه فى الصحراء ؛ لكنه عاد عامر النفس بتاييس • فكان لا يذكر غيرها ولا يقترب بعبادته الا كمال جمالها • فاستغفر ربه واستعان على الشياطين بكل ما فى الدين من عون ومدد • ولم ينجه الدين من نزغ الشياطين فترك صومعته وهام ، فوجد فى الصحراء عمادا رفيعا منفردا اعتلاه كى يتعرض جسمه للتلغ بنار الشمس وزمهرير الشتاء ومياه الأمطار لعل نفسه تصلح بتلف جسمه • لكن خيال تاييس لم يفارقه • فتولاه اليأس ونزل من عليائه وعاد لهيامه فصادف قبرا خرابا فاتخذة ملجأ وسكنا • لكن خيال تاييس لم يفارقه داخل القبر أيضا • وانه كذلك اذ من

به رهبان عرف منهم أن آية من السماء دلت كل ناسك على أن
انطوان رئيس متينة الصحراء قد آن له أن يلقي ربه وان النساك
جميعا قد هرعوا اليه كي يباركهم قبل موته • فسار بفنوس معهم
وقد ملأ الهم نفسه ان تجافت آية السماء عنه • فلما كان عند انطوان
تضرع اليه أن يباركه وأن يستغفر الله له • فاستدنى انطوان بولس
الساذج ليتكلم • وانفتحت السماء أمام الساذج فرأى من أمر ربه
أن تاييس توشك أن تموت يحفظها الايمان والخوف والحب • وان
بفنوس سيبقى يعذبه الغرور واللذة والشك • وأعلن ما رأى •
فانطلق بفنوس وقد انقلب شكه يقينا وايمانه كفرا وجعل يلعن
السماء والآلهة • وأسرع يطلب تاييس في بيت « البين » يريد أن
يضمها الى صدره ويستمتع وايضا بالحب ولذته ، ويدفع اليها من
حياته حياة تمد في أجلها وتغفر له ما أذنب في هدايتها • وألقاها
في النزع تستقبل فجر صباح الأبد وترى الملائكة والقديسين •
فناداها ألا تدغن للمنوز وأن تبقى لتحب ، فلا حق في الحياة الا
الحب • لكن تاييس ارتضت الموت بعد ما استنفدت الحياة ، وتركت
هذا البائس المسكين يلقي من « البين » ومن عذارها لعنة لم تزرعجه
بعد ما كفر •

هذه قصة تاييس • وهى تبدو لهو خيال ظريف يلذه أن يهرك •
فكيف ينقلب الناسك القديس كافرا والراقصة البغى تقيّة بتولا ؟ !

والحق أن الخرافة القديمة التى بعثها أناتول فرانس فى هذه
القصة لم تشر الى شىء من صبا بفنوس وميله لتاييس • ولم تنته
بفنوس الى الالحاد والى حب تاييس • وانما ذكرت أن تاييس
كانت فتنة الاسكندرية حتى بلغ من غيرة محبتها أن كانوا يقتتلون
عند بابها فكان هذا الباب ملطخا أبدا بالدماء • وذهب بفنوس عندها
فلما دعتة اليها طلب غرفة بعيدة عن الأنظار • وكانت كلما دخلت
به الى غرفة كرر طلبه • فلما كانت آخر الغرف قالت له : ان كنت
تريد البعد عن الناس فهذه غرفة لا يسمع أحد لك فيها ركزا ؟
لكنك غير ناج من عين الله وان حاولت • فلما علم أنها تؤمن بالله
وباليوم الآخر وتخاف عقاب الله وترجو ثوابه دعاها للنسك فقبلت
بعد شىء من التردد • وظلت ثلاث سنين رهن محبس ضيق تعذب
جسمها لتظهر روحها • فلما انتهت تلك السنون باركها بفنوس
وأصبحت قديسة يقام لها عيد فى ثامن أكتوبر من كل سنة • وظل
بفنوس فى الصحراء يفوح منه شذا القداسة ويجتمع حوله
المؤمنون •

لكن أناتون فرانس لم يرض أن يصدق هذه الرواية • فقد
ذكر تاريخ القديس بفنوس أنه وقف بمجمع تير سنة ٣٣٥ ميلاد
السيد المسيح فى وجه القائلين بضرورة انفصال الراهب عن زوجه
لما فى ذلك من مقاومة الطبيعة ومخالفة ما يفرضه الزواج لكل من

الزوجين • فبنفوس اذن كان يؤمن بأن للطبيعة سلطانا لا يقاوم • وهل سلطان أقوى من سلطان الزهرة ! ولما كان لكل خرافة فى التاريخ أساس فلا بد أن يكون للخرافة التى اتشحت باسمى تاييس وبنفوس أصل هو الذى صور له أناطول فرانس •

ولم لا تنقلب البغى قديسة بتولا ؟ ألم تسكب المجذلية دمع التوبة عند أقدام السيد المسيح فطهرت من الرجس وصار مقامها فى السماء بين المقرين ؟ واذا كان للبغى أن تنقلب بتولا فللقديس أن ينقلب ملحدا ؟ وكما فتح الحب للمجولية باب التوبة فقد فتح لبنفوس باب الخطيئة ؟ ولو أن بنفوس أخطأ قبل أن يجب لصهره الحب وطهره كما صهر تاييس وطهرها • لكنه طهر قبل أن يجب فاستحال حبه خطيئة كما تحيل النار الماس فحما • ذلك سلطان الطبيعة وتلك سنتها ، لن ينجو منه أحد ولو كان راهبا •

ليست تاييس اذن لهو خيال ظريف يلذه أن يبهرك • وانما هى صورة صادقة من صور الحياة • وهى أكثر صداقا أن تمت بالاسكندرية فى القرن الرابع المسيحى حين كانت مدرسة الاسكندرية زاهرة وكانت آراء الفلسفة من زهد أو اباحه تشبك مع طقوس الدين وألوان الايمان اشتباكا رفيقا لا عنف فيه ولا جفاء ، وكانت أبيقورية الترف واللذة الفاشية فى المدينة لا يؤذيها انتشار المتقشفة والرواقين فى الصحراء • فلا عجب وهذه هى الحال أن جذب جمال الايمان بغيا أو استغوت نعمة المدن ناسكا •

لكن أناطول فرانس لم يكفه أن لا تكون قصته عجبا ، فجعل بغيره التى نسكت متدنية بدء حياتها ، وجعل ناسكه الذى بغى مترفا بدء حياته ، ثم نقل الشباب كلا منهما الى نقيض نشأته • فلما آن للحياة أن تنحدر الى منبت الطفولة عاد كل منهما الى عهده الأول • فبغى الناسك ، ونسكت البغى •

وقصة تاييس هى قصة هذا الانتقال الأخير • وقد وصف أناطول فرانس فى هذه القصة حياة ذلك العصر أدق الوصف ، فرسم الصحراء ومن فيها من المعتزلة وما فيها من أكواخهم المنشورة على الرمال وما يعالجونه من طقوس العبادة وأنواع التقشف ، ورسم بذلك صورة المؤمنين بالدين أول نشأته : يغلبون فيه الى غير حد ، ويقومون بفرائضه على صورة ألم يتوهمها صاحب الدين يوم أعلنه للناس • ورسم الاسكندرية وما فيها من ترف وما تصبو اليه نفوس أهلها من لذائذ ، وما يدور فى مجالس فلاسفتها من حديث • لكنه فيما صور من ذلك كله كان أناطول فرانس فى أسلوبه وفى تفكيره وفى ابتسامته وفى سخره وفى اشفاقه • فليست تنسى لحظة وأنت تقرأ القصة أنك تقرأ أناطول فرانس • ذلك بأن الكاتب خيل هذا العالم القديم أمامه بما شاء بحته وعلمه ، ثم نظم كما يريد ، ونقشته ريشته بعد أن تم نظامه ، فبرزت تاييس للقارئ صورة من نفس فرانس ومن العالم القديم مطبوعا فيها •

ولعل أقل صور أشخاص القصة وضوحا صورة تاييس • فانت لا تستطيع أن تعرف عنها أكثر من أنها راقصة بارعة الجمال فتنت الاسكندرية ، فلما خافت تجاعيد الزمن ودعاها بنفوس الى الهدى لبث دعوته • لكنك لن تجد في القصة كلها شيئا يميز تاييس عن كل راقصة جميلة • فمن أى نوع كان جمالها ؟ وأى نفس كانت تختفى تحت هذا الجمال ؟ وما ميول هذه النفس وما طبيعتها ؟ وما عسى أن تكون الخواطر المبهمة التي تمر بها ؟ ذلك شيء لا يحدثك فرانس عنه • وذلك ضعف تجده في كل تأليفه • فبطلاته الجميلات نسوة لا ذاتية لهن • ولعل سبب هذا الضعف أن نفس فرانس كانت أقوى من أن تتمثل نفس امرأة كملت فيها حياة المرأة • وهذه « تريز » بطللة الزنقة الحمراء وهي مثال المرأة في نظر الكاتب الكبير لا تزيد صورتها على صورة تاييس وضوحا • أو لعل سبب الضعف ما يسبغه فرانس على هاتيك البطلات من ثوب حكمته وما يجريه بين شفاههن من حديث لا عهد لامرأة به من عهد حواء ! • • • أم أن تشابه صور النساء في كتب فرانس لم يكن ضعفا ، وانما كان مرجعه عقيدة فرانس في المرأة • فهو لم يكن يراها خاضعة لحكم العقل ولما يدعو اليه من تردد واضطراب يؤدي الى اختلاف نفوس الرجال في الصور والألوان والمشارب • بل كان يراها تسير في الحياة متأثرة بهدى الفطرة وشهواتها السليمة

غير خاضعة لثمويه الفكرة البديع الألوان • وهو لذلك لم يكن يرى موضعا للتفرقة بين صور نفوس نسائه • فهن عنده سواسية في السمو فوق مدارك الفكر وفي الانحدار مع ميل الهوى • وتاييس الراقصة وتريز زوج الوزير وألودى أخت المصور وكاترين بائنة الدتلا وملاني خادمة البيت جميعا سواء • يختلفن في المظهر لكنهن يلتقين عند دوافع شهوات الفطرة • ولم تقصر ريشة فرانس في رسم اختلاف المظهر وتباين الميول الاجتماعية رسما صادقا دقيقا • فأما وصفه لنفس أية من نسوة كتبه فيصدق عليهن جميعا • فكل امرأة تهوى في الرجال محبتهم اياها واعجابهم بها ، وتحرص من حياتها على ما يجلب هذا الاعجاب وتلك المحبة وتعجب من الرجل الذي يحبها وتقسو في محبته قسوة الشحيح على ماله •

وهل بين النسوة امرأة مهما تبلغ من الطهر ، ومهما تكن زوجا وأما ، تتوهم ذبول جمالها في غير الصورة التي رسمها أناتول فرانس لتاييس وقد عادت يوما من المسرح الى منزلها الغني المترف فجلست في « كهف العذارى » بتغى الراحة من غناء رقص بالغت في اتقانه فأحيت به ما مر بخاطر كل مصور وكل رسام وكل شاعر من بديع الخيال ، « ثم استشفيت في مرآتها نذر انحدار جمالها وفكرت في فزع أن اقترب حين الشعر الأبيض وتجاعيد

اوجه ، وعبثا حاولت تسكين روعها بما حدثت به نفسها من أن احراق بعض الأعشاب والنطق ببعض تعاويذ السحر يكفيان لاعادة نضارة اللون ، فان صوتا لا أثر للرحمة فيه صاح بها : « ان الهرم مدركك يا تاييس لا محالة » ، وأثلج جبينها عرق الفزع . لكنها عادت فنظرت الى نفسها في المرأة نظرة كلها العطف فألفت نفسها لا تزال جميلة بأن تحب . فابتسمت لصورتها وتمتت : ليس في الاسكندرية امرأة تستطيع أن تنافسني في ميس القد وخفة الحركات وبهاء الأذرع ؛ والأذرع أى مرآتي هي سلاسل الحب حقا » .

قد تختلف عبارة كل امرأة حين تعرب عن هذا الاحساس . لكنه يمر بنفوسهن جميعا على هذه الصورة يخلط فيه الخوف بالرجاء والضعف بالقوة ، وتتأثر فيه أعصابهن وعواطفهن بأثر واحد . ذلك ما يؤمن به فرانس . ولذلك لا يكون تشابه نسائه ضعفا بل يكون كمالاته في تصوير الطبيعة النسوية .

فأما صورة بفنوس في قصة تاييس فالغة حد الكمال في وضوحها . وهل قصة تاييس الا صورة بفنوس ، وهي صورة المؤمن العبوس الايمان . وهي لذلك النقيض من صورة أناطول فرانس اللاأدري المتشكك الباسم في لا أدريته وتشككه ، الساخر

من اللاأدرية والايمان جميعا ، الضاحك للحياة ومما في الحياة ضحكة تشوبها مرارة الهزء بكل شيء . والاشفاق على كل شيء . ولعل أناطول فرانس قد انتقم في تصوير بفنوس للشك من الايمان كما انتقم في تصوير نسياس للايمان من الشك . وان كان انتقامه من الايمان قاسيا ، وانتقامه من الشك لطيفا رفيقا .

فقد اعتزل بفنوس الحياة وانقطع لله فأزمت الحياة انتقامها من احتقاره اياها ، فسلطت عليه الزهرة آلهة الجمال والحب وألبستها صورة تاييس ومكنت لها من نفسه . وأقامت عليه الآلهة جربا بدأتها بالخدعة . فظلت به حتى قادته الى المسرح ثم وقفته في حضرة تاييس . وهي فيما فعلت من ذلك انما كانت تسخر من ايمانه أن جعلته يتوهم أنه صاحب السلطان على مشيئته . فكان باسم الايمان يحب تاييس وباسم الايمان يعبد جمالها . فلما طالت الحرب وشعر الراهب بالزهرة تغالب الايمان وتكاد تغلبه تولاه الفزع وجعل يخارب نزغ الشيطان في نفسه . لكن سلطان الحب رفيق شديد . فلم يستطع بفنوس مغالبته ، بل انتهى الى الفكر حين عرف أن تاييس مشرفة على الموت .

في هذه الحرب بين الحياة والزهد في الحياة تجلت نفس بفنوس مملوءة حقدا على العالم وأنانية وكبرا . فهو يزعم لنفسه سلطانا على

الكائنات جميعا ويتهم كل خارج على عقيدته بالنقص والرزيلة • ولما كان التسامح مظهر الحياة فقد كان هذا الجاحد المتعنت عدوا للحياة • وماذا يستطيع الرجل ان هو نصب نفسه للحياة عدوا؟ ولو أن بفنوس صانع الحياة واتخذ الزهد لذة من لذائذها وجعل من انقطاعه لله فرضا يؤديه للحياة لما عصفت به وبإيمانه • لكنك تلقاه في طريقه الى الاسكندرية وفي حضرة تاييس وفي مادبة الفلاسفة وفي تعذيبه نفسه فوق العباد وداخل القبر قاسى النظرة يود أن يحترق كل ما لا يعجبه ، وتستمتع له فاذا حديثه سوط عذاب مسلط على أجمل ما فى الحياة وأبهاء • ولست أذكر لك كيف صوره أناتول فرانس فى حالاته • ولكنك اذ تقرأ « تاييس » لا تستطيع أن تحول بين نفسك وبين الشفاق على رجل تتلاعب به صروف الحياة وتجعل من عظمته ومن إيمانه ألم نفسه وسخرية سواه •

ولو أنه اتخذ الزهد لذة من لذائذ الحياة لما عصفت به • وهذا هو فى طريقه الى الاسكندرية قد لقي « تمكاس » المتشكك فألفاه وقد أدى به ازدراؤه الحياة الى التخلي عما فيها جميعا • مع هذا كان « تمكاس » راضيا لأنه كان قد نزع من نفسه كل أثر للطمع فى هذه الدنيا وفيما بعدها ، واتخذ طقوس حياة بوذا وان لم يؤمن بدينه • فالزهد لم يكن اذن سبب عذاب بفنوس وانما كان حرصه

على النعيم سبب عذابه • وقل أن يحرص انسان على نعيم الآخرة كلها ويزهد فى متاع الدنيا ونعيمها جميعا •

هذا ما يريد أناتول فرانس حين فصل عذاب بفنوس وسخر منه • ولو أن بفنوس كان على إيمانه متسامحا وعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا ، ولآخرته كأنه يموت غدا ، وأوغل فى الدين برفق، لما تقطعت به الأسباب ولما انتقل من النقيض الى نقيضه فكفر بعد إيمان وطلب لذة الحياة بعد الزهد فيها •

★ ★ ★

صورة بفنوس هى النقيض من صورة أناتول فرانس • وأناتول فرانس لم يدع واحدا من كتيه الا رسم فيه صورة من نفسه • فهو « برجريه » فى أربعة أجزاء (تاريخ العصر) وهو « بروتو » فى (الآلهة ظمأى) • وهو « بير » فى أربعة كتب كتبها عن طفولته وبدء صباه • وهو « جيروم كوانيار » فيما عزاء من قصص وذكربات ومذكرات الى « جاك تورنبروش » • وهو « نسياس » فى قصة « تاييس » : وأى مؤلف ينسى نفسه حين يكتب؟ وأى مؤلف يكتب عن شئ غير نفسه؟ وأى قارئ يرى فيما يطالع غير نفسه؟ والذين يقرأون أناتول فرانس سعداء لأنهم يجدون فى صورة المؤلف ما يجذبهم اليها ويجعلهم يحبونها ان كان صاحبها قد اتسعت نفسه فوسع العالم وما فيه حبا ، ووسع العالم وما فيه سخرًا واشفاقًا •

نيسياس ابيقورى مترف يتمتع من الحياة بكل لذائذها من غير
تفاوت على هذه اللذائذ أو حرص عليها • وقد استمتع «تاييس» •
فلما جاء صديقه القديم بفنوس لهدايتها وطلب اليه رداء يستتر به
مسوحه نصح اليه نيسياس أن يحذر انتقام الزهرة ، ولم يفكر في
أن يصدده عن غايته • فلما وثق بفنوس من تاييس صحبها الى مائدة
كان نيسياس بين من دعوا اليها • وقضت تاييس الليل تسمع الى
حديث الفلاسفة • فلما آن الليل أن يولى كان القوم قد أمال الشراب
أغناقهم • فخرج بفنوس وتاييس الى دارها فحرقا متاعها وانطلقا
بيغيان الصحراء • فأحاط بهما أطفال رجموهما بالأحجار ولم
ينجها منهما الا أن جاء نيسياس قشر الدراهم بين الصاخين فشغلهم
ونجا بصاحبيه • ثم كان بين الثلاثة حديث يمثل نفس نيسياس
ويمثل نفس فرانس ويمثل الشك واللاأدرية فى أجمل صورها •
فقد ذكر نيسياس فى أسف مطمئن مغادرة تاييس الاسكندرية •
فأجابته أنها ملته وأمثاله المترفين وملت ما تعرف ، وأنها تريد
البحث عما لا تعرف وترجو أن تجد المسيرة فى الألم كما قال لها
بفنوس : لأن بفنوس قد ملك الحقيقة •

قال نيسياس باسما :

— أما أنا أيتها النفس الصديقة فأملك الحقائق ، ولئن لم يك
لديه منها الا واحدة فهي عندي جميعا : فأنا أكثر منه ثروة وان

لم أكن والحق يقال أكثر منه لذلك كبرا ولا أعظم سعادة •

ولما رأى الراهب يسدد اليه نظرات كأنها اللهب قال :

— لا تحسب يا عزيزى بفنوس انى أراك سخياف كل السخف
أو بعيدا كل البعد عن موجب العقل • ولو أنى قارنت حياتى
بمثالك لأرتج على القول أيهما أفضل لذاتها • فهأنذا ذاهب الآن
أغتسل فى الحمام الذى أعدته كرويل ومرتال ، ثم آكل بعد ذلك
صدر دراج من دراريج فاز ، ثم أقرأ للمرة المائة بعض أساطير
«أبيولي» أو بعض رسائل «بورفير» • أما أنت فستذهب الى
صومعتك فتنيخ كما ينيخ الجمل الوادع وتلوك من التساييح ماطل
بك عهد مضغه ولوكة ؟ واذا أمسيت تبلغت بالفجل من غير زيت •
أنرى يا صديقى أننا فيما نقوم به من هذه الأعمال المختلف ظاهرها
الا يدعن كلانا لعاطفة واحدة هى وحدها المحرك لأعمال بنى الانسان
طرا ؟ فكلانا يسعى وراء لذته يرغبى غاية مشتركة هى السعادة • هى
هذه السعادة المستحيلة • فليس من حسن الذوق يا صديقى أن
أنسب اليك الخطأ اذا أنا نسبت الى نفسى الصواب •

« وأنت يا تاييس فاذهبى وتمتعى ، وان استطعت فكونى فى
الزهد والتشف أكثر سعادة مما كنت فى الغنى والمسرة • وانك
على كل حال لتحسدني • فاذا كنت أنا وبفنوس قد أطعنا طبعنا ولم

نُسخ الأوراء لون واحد من ألوان الرضا فانك أيتها العزيزة تكونين قد طعمت في الحياة لذائد متضادة قلما كان لانسان من الحظ أن يعرفها • والحق انى أود أن أكون مدى ساعة قديسا كعزيزنا بفنوس • لكن ذلك ما ليس لى اليه سبيل • فالوداع اذن يا تاييس • اذهبي حيث تقودك القوى الخفية فى طبيعتك وفى حظك • اذهبي تصحبك خير أمانى نسياس • ولئن تكن هذه الأمانى خلاء فهل أستطيع أن أمنحك خيرا من عقيم الحشرات وفارغ الأمانى ثمنا لما اشتملنى بين ذراعيك من لذيد الأحلام التى لا يزال خيالها الى باقيا ؟ ! الوداع يا من أحسنت الى ! الوداع يا رحمة لا تعرف أنها رحمة ! يا فضيلة تحوطها الأسرار ! يا لذة الناس طرا ! الوداع يا أبدع صورة أَلقت بها الطبيعة على وجه هذا العالم لغاية غير معروفة ؟

فلما أنتم حديثه كان الراهب قد نفذ صبره فانسابت من فمه لعنات نظمها أناتول فرانس خير نظام • فكان جواب نسياس أن نظر اليه نظرة رفق وعطف وقال :

— الوداع يا أخى • ولعلك مستطيع أن تحتفظ حتى الفناء الآخر بكنوز ايمانك ومقتك وحبك • وداعا يا تاييس • عبثا تسسيننى ما دمت حفيظا على ذكراك •

كذلك قال نسياس • ولا يحسب القارىء انى أحسنت النقل •

فكل نقل لعبارة أناتول فرانس الى غير لغته يجنى عليها • وما أحسب أحدا ممن حملوا أنفسهم عناء ترجمته الى غير لغته الا نظر الى ما صنع فذكر قول نسياس :

— لو أن الفضيلة حصرت فى المجهود وحده لكانت الضفدعة التى تتنفخ لتعظم حتى تصير كالعجل مؤدية أكبر عمل من أعمال الرواقين •

تاييس وبفنوس ونسياس هم أكثر أشخاص قصة تاييس حياة وحركة ، وقد أحاطهم فرانس بعدد جم من الرهبان أمثال بفنوس والرواقين أمثال نسياس وبجملتين تأكل الغيرة صدرهما حقدا على تاييس لتفوقها عليهما فى الجمال • ولئن لم يكن لهذا العدد الجرم غير دور ثانوى فى القصة • فقد رسم فرانس صورة كل واحد منهم بما طبع عليه من دقة • فالجميلتان فلينا ودروزيه تنفسان على تاييس جمالها وتنافسانهما فى استهواء الشبان كما تنفس كل امرأة على كل امرأة وتنافسها • والرجال ينظرون الى النسوة الثلاث بما ينظر به كل رجل الى كل امرأة من عطف ويملقونهن بالكلام الرقيق العذب الذى يسحر به الرجل المرأة كما يسحر الطاووس أثناء بريشه والبلبل أثناء بصوته • فأما الفلاسفة زنوتوميس وهرمدور ودريون والمسيحي ماركوس وأصدقاؤهم فى

الوليمة فليسوا أشخاصا ذوى حياة تتجلى فى صلات أفراد الرواية بعضهم ببعض وإنما هم أمثال للمذاهب الفلسفية والدينية التى كانت اسكندرية ذلك العصر الذهبى مهدا لها • على أنك لا تعدم مع ذلك أن تجد فى حديث كل واحد منهم ما يرسم أمامك منه صورة تميزه عن سواه من أهل مذهبه وتجعله انسانا يخضع رأيه وإيمانه لميوله وشهواته ، شأننا جميعا فى الحياة •

أما الرهبان والقديسون متدنية الصحراء فيبينهم من الشبه فى ازدراء الحياة ما بين النساء فى محبتها والحرص عليها •

تلك قصة تاييس ، وأولاء هم أشخاصها • وهى عند كثيرين أفضل كتب فرانس • ولعلك اذا دخلت حديقة أو عند جوهرى تردد كثيرا أى أزهار الحديقة البديعة النظام أبهى وأى أحجار الجوهرى الدقيقة الصنع أكرم • وذلك رأينا فى كتب أناطول فرانس • وهو عندنا على ما قال جول لمتز « أسمى خلاصة للروح اللاتينية وأبهاها » •

أناطول فرانس

٤

الآلهة ظمأى

أناطول فرانس - ذلك الشيخ الذى ذهب أول هذه الحرب رغم مجاوزته السبعين من العمر يريد أن ينتظم جنديا للدفاع عن وطنه فرنسا - هو رأس طائفة المتشككة من كتاب هذا العصر فى فرنسا وفى العالم أجمع • فهو لا يؤمن بمذهب ويعتقد كل المذاهب • وهو يرى الحياة سخرية سخيفة لا معنى لها ويجدها ذات لذة وجمال • وهو يحب الفقراء ويحتقر الضعفاء ، ويعجب بالقديم ويولع بالجديد ، وهو يهزأ من كل شئ ويسخر من كل عمل ويضحك مما يجله الناس ويسم أمام ما يقدسون • وهو مع ذلك لا يخفى ميله للابيقورية على أنها أعقل من سواها من المذاهب الأخرى العاقلة جميعا • لذلك كانت كتبه ورواياته ليست تلك الغابة القطوب التى تأخذ لبك وتذلك بقطوبها على عظمة شجر السنديان أو البلوط وقوته على كل ما سواه ؛ ولكنها الحديقة الغناء تنتقل فيها من زهرة الى فاكهة الى فرش سندسية الى خريز النبع الجميل المنحدر من قمة التل تتوجه الأشجار الكبيرة تغرد فوقها

الطيور المختلفة اللون والصوت • وهذه الحديقة ليست متروكة للطبيعة ينمو بعض أجزائها على حساب البعض الآخر ، بل هي مشمولة بعناية الانسان ورعايته • فكل ما فيها من زهر وفاكهة وغرس ونبع وتل وشجر وطير مختلف جمالا وصحة ونضارة وكله يأخذ بنظره ويستدعى التفاتك ويبعث الى نفسك أبدا سرورا رقيقا ، حلو يجعلك دائم الابتسام لأنه سرور النفس والعقل وليس سرور الحس المضطرب بتيارات يستدعى الضحكة العالية ليعقبها بدعة مرة •

ومن العسير أن يقال أى كتبه المفضل • فمن بين كتبه الأربعة والثلاثين أو الستة والثلاثين يقع كل قارئ على عدد منها غير قليل يستدعى كل إعجابه • على أن ما لا شك فيه أن كتابه عن الثورة الفرنسية الذى وضعناه عنوانا لهذا المقال هو من خير كتبه وأدقها تصويرا لعصر كثر عنه الكتاتيون • وناهيك بالثورة الفرنسية • فما نحسب مؤرخا ولا سياسيا ولا شاعرا ولا روائيا ولا خطيبا ولا صحفيا الا تناولها فى ما كتب عنه واستشهد به ووصفه واستظهره • وكثير من أولئك قام بما قام به بطرافة وقوة لا ينكرها عليه أحد • لكن أنا نول فرانس من بين هؤلاء جميعا كان أدق مصور فى يمكن تذوقه • فهو لم يكن فوتوغرافيا جمع رجال الثورة وفى يد كل منهم مجموعة خطبه وكتبه ليأخذ منهم صورة كصورة الموظفين

الذين يجتمعون تذكارا لسفر أحد رؤسائهم ؛ بل كان ذلك المصور النابغ الذى يلقي نظرة عامة على ما أمامه ثم يتجه لركن يأخذ بنظره فيستظهر المحيطات الدقيقة والجليلة التى حول ذلك الركن والأضواء المتسلطة عليه والغمام المتراكم فوقه • وأنت فلا تلبث أن ترى الصورة التى أبدعتها ريشة المصور حتى يظهر أمامك مجموع الثورة ناطقا قويا ظاهرا ببوارزه وخوافيه وبفضائله وبما فيه من جمال وقبح • ترى فى هذه الصورة التى رسمها فرانس ما كان قواما للثورة من فظيع المجازر ؛ وترى فيها تحت الفظائع والفضائل النفس الانسانية كما هى ، مدفوعة بطوائعها فى الطريق الذى لا تعرف لسيرها فى سبيله سببا • فى هذه الصورة تظهر العواطف والشهوات والعلاقات الجنسية طبيعية بسيطة لا تعرف هياج روسو ولا أوهام شاتو بريان • كما تظهر فيها نفسية الشعوب فى حالة الثورة نفسية عادية تافهة ميالة للركود لولا النفوس القوية المتطلعة للكمال التى تؤثر بسحرها على نفس المجموع المطبوع على عبادة القوة والبطولة • ويظهر فيها كذلك ما لقوة الايمان من أثر فى الوصول الى ما يريد المؤمن مهما تقم فى وجهه المصاعب والعقبات ما دام لا يرى الا الغاية التى يحددها له ايمانه وما دام لا يحول نظره الى غاية سواها •

« افارست جاملن » بطل الرواية نقاش شاب يعيش مع أمه العجوز في حي القنطرة الجديدة من أحياء باريس الثائرة ويهتم للسياسة اهتماما صرفه عن المثابرة على النقش وعن كسب ما يعيش منه هو وأمه عيشا معقولا • وكان له أخت هجرت البلاد مع شاب من الاشراف الذين هاجروا أول الثورة • ويسكن في أعلى غرف الدار التي يقطن حكيم اسمه (برتو) كان شريفا وكان ذا مال ونعمة • فلما استولت الثورة على أموال الأشراف وامتيازاتهم ترك برتو ماله ولقبه غير آسف وقع من الحياة بوكره الذي كان يتسلق اليه تسلق الحيوان الى غش الطائر وعكف على قراءة (لوكريس) وعلى صنع لعب للأطفال يجد منها ما يقيته • وكان لبرتو صديقة قديمة من الأشراف تدعى مدام رشمور عرفت كيف تنتقل من العصر القديم الى الثورة مع الاحتفاظ بماله ونعمتها ومع الاستمرار على دعوة الكبراء والمعروفين الى حفلاتها الراقصة • فعرض لها ذات يوم خاطر أن تسعى لتعيين جاملن محلفا في المحكمة الثورية • ومع ما أظهره لها برتو من التخوف من هذه المحكمة التي تدفع الى (الجليوتين) المرأة البغي ومارى انتوانيت والتي تؤلب الفرق المتنازعة ضدها بما تصبه عليهم جميعا من جامات غضبها ، فقد نجحت رشمور وتعين جاملن محلفا • ومن ذلك اليوم ازدادت حبيته (الودى) تعلقا به وشغفا • ولما استفسرها عن ماضيها أخبرته أن شابا من الأشراف استغواها • فملكك هذه الفكرة على المحلف

الجديد نفسه وجعل يرقب في كل شريف يعرض للمحاكمة مغرى محبوبته • فلما اتجهت شبهاته لأحد الأشراف الذين قدموا للمحاكمة والذين كانت الأدلة عليهم تافهة لم يأل جهدا في اقناع زملائه بأنه رجل مجرم خطر على البلاد قدير على قلب الحكومة • وكأنما كان يقول في نفسه ان أولئك الذين لا يعبأون بالعرض ولا بالشرف بالنسبة لفتاة تستسلم اليهم جديرون أن يكونوا كذلك مع أمة يجدون الى استلام زمامها الوسيلة • ومع عدم اقتناع أكثر الباقين فقد انتهى الحال بأحد المحلفين الى أن قال لجاملن :

— يجب أن يتبادل الزملاء الخدمات في ما بينهم حتى هنا يا صديقى • وانضم لصف جاملن وحكم على الشريف بالاعدام وأعدم •

وجاملن شاب طاهر القلب طيب النفس قوى الايمان بمبادئ الثورة حقيق أن يكون من أتباع مارا وروبسيير اللذين كانا آلهة العصر وموضع اعجابه وعبادته • لذلك لم يخطر بباله أن يبرأ أحدا الا مرة أول تعيينه • أما بعد ذلك فقد كان يرى في القواد الذين انهزموا وفي الفتيان الذين يصيحون « يحيى الملك » في الميادين العامة وفي الأشراف الذين يتهمون بالارتباط مع الأعداء أخصاما للثورة قديرين جميعا اذا لم يكبح جماحهم بالقتل أن يقبلوها ويعيدوا نظام العهد القديم • وكان يعتقد أن شرف المساواة الذي

نشرته مبادئ الثورة ليس مقصورا على الحقوق التي يتمتع بها الأفراد، بل هو ممتد الى العقوبات التي تنزل بهم أيضا • على أن شرف المساواة في العقوبة هو الذي كان في يده دون شرف الامتاع بحقوق الحياة الذي لم يكن في يد أحد • لذلك حقق هو وزملاؤه المحلفون والقضاة أعضاء المحكمة الثورية الشرف الأول ولم يستطع أحد أن يحقق الشرف الثاني •

ولما عرض أمر رفيق أخيه على المحكمة لم يكن أكثر اشفاقا في هذا الظرف منه في أى ظرف آخر ، بل رفض أن يرد نفسه قائلا ان سلام الجمهورية أعلى من أن تؤثر فيه علاقة أو عاطفة • وكذلك أعدم « دشاساني » مع من أعدم •

وفي هذه الأيام غضب الضابط هنري رفيق مدام رشمور منها فسرق خطابا كانت موجهة اياه لأحد الأشراف المهاجرين وقد ذكرت فيه ما قاله برتو عن المحكمة الثورية وعن الجيوش المحاربة • ولما سرقه وعرضه على رجال الادارة كانت النتيجة أن قبض على رشمور وبرتو وحليف لبرتو من القسس يدعى لنجمار وفناة احتمت عند برتو ولنجمار من أبحاث السلطة وتفتيش رجال الثورة وأودعوا جميعا في السجن •

ولما كانت المحكمة الثورية قد ضاقت ذرعا بالتحقيقات العادية وبالتهمين يقدمون اليها واحدا بعد الآخر فقد صدر قانون يبيح

محاكمة من يشتم من أعمالهم أنهم يتآمرون بمجرد جمع الأدلة ثم يحصل البحث في المحكمة • فلما قدم برتو وصحبه وتلا المدعى العمومي ورقة الاتهام التي جاء فيها من تهم برتو أنه قال : « ان المحكمة الثورية تشبه روايات شكسبير التي تخلط بين أفطع المناظر الدموية وأسخف التفاهات ، وأنه ينتظر من وراء انتصارات الجمهورية أن يجيء أحد هؤلاء الذين يحملون السيف فيبتلع الجميع كما ابتلع الطائر الضفادع في الخرافة • ومن تهم رشمور أنها متصلة بالخارج ومختلطة بالمرتشين : لما تلا المدعى العمومي ورقة الاتهام وسئل برتو : هل تأمرت ؟ أجاب أنا لم أتامر وكل ما جاء في ورقة الاتهام التي سمعت الآن باطل ؟ فكان الرد عليه : ألا ترى أنك تتآمر الآن من جديد ضد المحكمة ؟ !!

وبعد ذلك وبعد أن سئم الناس القتل والدماء رأت الجمعية الوطنية أن رويسبير قد بلغ حدا أصبح لا يطاق معه فاعتبرت أعضاء الأقسام المنضمة اليه وأعضاء المحكمة الثورية ومحلفيها كلهم خوارج على القانون ويجب اعدامهم وأعدموا وأعدم جاملن •

هذه الصورة التي أبدعها أناتل فرانس والتي نقلنا هنا ظلا منها قد لا يوازي ما ينقله الكارت بوستال عن أبدع صور اللوفر ، لا يمكن أن يتذوقها الا من يقرأها ويعيدها ثم يعيدها غير مرة •

وحينئذ تبدى له الثورة الفرنسية كلها وكيف كانت وتتفتح من أمامه الغيوم التي يجدها في كتب التاريخ الجامدة والتي تنقل حكاية الحوادث كما تنقل الأجواء صدى الصوت البعيد •

وانى لفى غنى عن أن أذكر شيئاً عن أسلوب أناتل فرانس وألوان ذلك الأسلوب الدقيق الهادى الرزين لا تشعر معه بالتكلف بل تسيغه سهلاً عذبا ينساب الى نفسك فلا يهزها هزات عنيفة كأسلوب الشعريين ولا يستوقفها ببيوسه التحليلية • ومع ذلك فلن تجد تحليلاً ولا شعراً أبدع مما عند أناتل فرانس • وان وصف أشخاص رواية الآلهة ، لأكثر ما تكون الصور دقة فى التحليل • وبحسب أسلوب فرانس مقدرة على اشتغال فضائل كل الأساليب أنه سهل ممتنع لا تستعصى عليه صورة ولا يتعقد معه رأى • وبحسب رواية الآلهة أنها كتبت بهذا الأسلوب وأنها رواية الثورة الفرنسية أكبر ثورة عرفها التاريخ وأبعدها فى حياة الأمم أثراً •

أناتول فرانس

٥

مارى باشكير ستف

(لأناتول فرانس كتاب يقع فى أربعة أجزاء عنوانه « الحياة الأدبية La Vie Litteraire » جمع ما كتبه فى النقد والتعليق على الكتب وما وضعه من خلاصة تاريخ بعض الأشخاص فى أخص ما تتميز به حياتهم • وكتابة أناتول فرانس فى النقد لا تعتبر حجة لأنه يأخذ فيها بالمذهب الذاتى أكثر مما يأخذ بالمذهب الموضوعى • لكن ذاتية أناتول فرانس وما برزت به على كل ذاتية سواها من صفات خاصة مر بالقارئ شئ منها فيما قرأه تجعل كتابته فى النقد شائعة محبوبة لذاتها • أما ما وضعه من خلاصة تاريخ الأشخاص فله طابع خاص يسمو به على آرائه فى النقد • فأنت تراه ينظر من جوانب حياة الشخص الى الجانب الذى كان له فى حياته أكبر الأثر • ولعل من القراء من اطلع على ما كتبه فى الحياة الأدبية عن بسمارك وفى « الزنبقة الحمراء » عن نابليون فرأى كيف أظهر فرانس ما فى هذه النفوس من ضعف كان سبب قوتهم ومن هوس سما بهم الى العظمة • وها نحن أولاء نترجم رسالة من رسائله فى « الحياة الأدبية » عن مارى باشكير ستف ليرى من

لم يطلع على موجز تواريخ الأشخاص بالنحو الذى يكتبها به فرانس مثلاً قد يتبين منه ما لم نستطع نحن بيانه من صورة نفس الكاتب العظيم) •

ماتت مارى باشكيرستف ، التى نشرت يومياتها أخيراً ، منذ أربع وعشرين سنة • وكانت وفاتها فى ٣١ أكتوبر سنة ١٨٨٤ وقد خلفت عدة نقوش وبعض صور تنبىء عن حب خالص للطبيعة وعن هيام وولع بالفن • وكانت حفيدة الجنرال جريجوريقتش باشكيرستف أحد من تولوا الدفاع عن سباستوبول ، كما كانت تزهى بأن فى عروقتها دماً تترىا عريقاً ورثته عن أمها • وكانت بيضاء اللون بديعته ، حمراء الشعر ناهدة الخدين قصيرة الأنف عميقة النظرة ذات شفاه كأنها شفاه الطفل • وكانت صغيرة الجسم جميلة التكوين • وكان هذا من غير شك سبب ولعها بالنظر الى التماثيل حتى لكانت وهى فى الثالثة عشرة من عمرها تمضى الساعات أمام تماثيل الرخام فى متحف الكابيتول بروما • ولم تكن يداها الرقيقتان البيضاوان على أحسن صورة • لكن مصورا ذكر أن الطريقة التى كانت توضع بها هاتان اليدان على الأشياء كانت غاية فى الجمال • كانت توضع بين هاتان اليدان على الأشياء كانت غاية فى الجمال • لكنها مع ذلك قلما كانت تصف نفسها فى يومياتها • وانما ألاحظ

صورة كتبها فى ١٧ يولية سنة ١٨٧٤ بالغة فى جمال التنسيق قالت : « شعرى أشد ما يكون حمرة ، وعلى فستان من الصوف الأبيض رشيق حسن الهدام وطريحة من الدتلا حول العنق • وكأنى بذلك احدى صور الامبراطورية الأولى • وانما احتاج لكمال تلك الصورة الى أن أقف تحت شجرة وأن أمسك بيدي كتابا » ثم أضافت الى ذلك أنها تحب الوحدة أمام المرأة •

وكانت أكثر إعجاباً بصوتها منها بجمالها حتى كان من أولى آمانيها أن تصبح مغنية عظيمة •

وقد أردت أن تبدو كما هى بنقائصها وفضائلها ، وبعدم ثباتها وبدوام تناقضها • لكن انفتها أبت عليها أن تعترف بشئ لشخص مهما يبلغ من قدره فكشفت فى يومياتها عن نفسها للعالم كله •

أينا لا نال باشفاقه وعفوه تلك الطفلة المسكينة التى كانت بائسة أن لم تحظ بالطفولة • وليس على أحد فى ذلك من ذنب • فان مارى بشكير ستف لم تكن أبداً من أولئك الذين غلبهم الآله الذى كانت تعبد كل يوم بأنهم وحدهم حقيقون أن يدخلوا فى ملكوت السموات • فهى لم تعرف قط تلك اللذة الرقيقة لذة التواضع والغر • بل طارت بجناحيها فى الخامسة عشرة من عمرها ولم يبق للعن الذى طارت عنه ذكر عندها • لذلك كان ينقصها دائماً البساط والمرح الساذج •

وأول الأسرار التي تبوح لنا بها في يومياتها العوبة بدأتها في أيام الكرنفال في روما • وكان كل ما انتهت إليه منها قبلة بين عينيها • وقد أبدت الفتاة في ذلك غير قليل من الخلاعة والحيلة • فقد قال لها ابن عم الكردينال ، وكانت اتخذته في تلك العيد رقيقا :

— وآسفا فآنت لا تحييننى •

— كلا •

— أليس لى أن آمل ؟

— بلى • يجب أن تأمل دائما فالآمل فى طبع الانسان • لكنى

لا أترك لك من جهتى حظا فيه •

وأظهر ابن عم الكردينال غاية الظرف والرقّة • لكن ماري بشكير ستف لم تخدع له • ثم انها ترددت بعد ذلك • « لو أئنى اعتقدت ما قاله لبلغت بذلك غاية السرور • لكنى دأخلنى الشك رغم مظهره الصادق الرقيق البسيط • وذلك حظ الشقى من شقاوته » ثم أضافت « على أن الخير فيما وقع » • وهى لم تكن ترغب مطلقا فى الزواج من المسكين بتر • بل فكرت :

— لو كنت زوجة اذن لقضيت على ثروته وقصوره ومتاحفه • فان بى من الطمع والكبرياء ما لا حد له • والعجب أن يحب

شخص مخلوقا ذاك شأنه لا لشيء الا لأنه يعرفه • أو لو عرف هذا المخلوق • • • أواه • • • أنه مع ذلك لا يحبه • •

وكان الظهور والاستلفات والاشراق أملها الدائم • وكان الكبير يقتلها • فقد كانت تردد من غير انقطاع : « أواه لو كنت ملكة • وكانت تصيح أثناء رياضتها فى روما : « أريد أن أكون قيصر أو أغسطس أو ماركس أورليس أو نيرون أو كاراكالا أو الشيطان أو البابا » • وكانت لا تجد جمالا فى غير الأمراء • أما سائر الناس فلا يستحقون نظرة ولا التفاتا •

وكانت الأفكار المتناقضة تختلط فى رأسها فتضطرب فيه اضطرابا غريبا • فقد كانت تقيه ورعة تصلى لله صباح ومساء وتطلب اليه أن يهبها أميرا تتزوجه وصوتا حسنا وصحة كصحة أمها • وكانت تصيح : « ليس شىء أدعى للفرح من عدم القدرة على العباداة » • وكانت تخلص التوجه للعذراء وتقوم بطقوس الديانة الأرثوذكسية • وكانت تتعرف المستقبل فى مرآة مكسورة حيث كانت ترى جما من الصور الصغيرة وأرض كنيسة من الرخام الأبيض والأسود كما كان يبدو لها فى تلك المرآة نعش فى بعض الأحايين • وكانت تستشير المخرف الكسب الذى كان يرى الكردينال أتنونلى فى نومه ، كما كانت لا تحجم عن أن تدفع دينارا للعرافة جاكوب كى تفتح لها الغيب • وكانت تعتقد بكل

الخرافات ، فكانت مقتنعة بأن عين البابايوس التاسع حاسدة ، وكانت توجس شرا اذا هي رأت الهلال الجديد بالعين اليسرى .
الا أن آراءها كانت سريعة التغير في كل لحظة . فقد سألت نفسها فجأة وهي في نابولي : « أى شيء ذلك الروح الخالد الذى يطير شعاعا لكل تخمة تصيينا » . ولم تفهم كيف يترتب على ارتباك في المعدة أن يطير الروح السماوى الى بارئه ، واستنتجت من ذلك أن ليس تمت روح وان هذا الاسم « محض اختراع » . . . ثم لم يمس على ذلك الا أيام حتى وضعت مسبحة في عنقها لتشابه بياتركس » ولأن الله في عظمتة المجردة لا يكفينا فيجب أن تكون في حيازتنا صور تنظر اليها وصلبان نعلها » .

وهي رشيقه وهي مجنونة . لكن هذا الرأس المضطرب ممتلىء امتلاء رأس قارئ كتب قديم . فقد قرأت ماري باشكير ستف ولم تعد السابعة عشرة من عمرها أرسطو وأفلاطون ودانتى وشكسبير . وكانت حكاية أميدى تيرى للتاريخ الرومانى تأخذها عن نفسها . وكانت تذكر مغبطة « كتابا مفيدا عن كونفوشيوس » وكانت تحفظ عن ظهر قلبها هوراس وتيبيل وأمثال سيرس . وكانت تتذوق شعر هوميروس الى أعرق نفسها . . . ومن قولها : « لن يستطيع أحد أن يتخلص من عبادة القدماء . . . فلم تترك مأساة حديثة ولا قصة ولا مهزلة مما يكتب دوماس أو جورج ساند في نفسى ذكرا باقيا

ولا أنرا عميقا صريحا كالآثر الذى تركه فيها وصف الاستيلاء على ترواده . فانى يخيّل الى انى شهدت هذه الفظائع وسمعت تلك الصيحات ورأيت النار تشتعل وكنت وأسرة بريام مع أولئك التعساء الذين كانوا يختبئون وراء محراب القرايين التى كانوا يتقربون بها لآلهتهم لتكشف عنهم النيران الملهبة فى مدينتهم ولا تسلمهم الى أعدائهم . . . وأينا لا نعروه هزة حين يصل من قراءته الى طيف كروز » .

وكان رأسها مخزنا تختزن فيه مختلف الكتب والروايات من غير ترتيب . وكانت دائبة على السياحة تذهب من نيس الى رومه ومن رومه الى باريس ومن باريس الى بطرسبورج وفينا وبرلين . واذ كانت لا تستقر أبدا فقد كانت السامة تتولاها أبدا . فكانت ترى حياتها مرة خلاء حتى كانت تقول : « فى هذا العالم كل ما ليس أليما سخيف وكل ما ليس سخيفا أليم » . وكان ينقصها كل شيء لأنها كانت تريد كل شيء . وكانت لذلك فى هم مفزع ، ترسل حولها صيحات الألم . لكنها مع ذلك كانت تحب الحياة . قالت « اننى أجدها طيبة . فهل يظن ذلك أحد ؟ وأجد كل شيء فيها طيبا لذيذا حتى الدموع وحتى الألم . اننى أحب أن أبكى وأحب أن أياأس . أحب أن أكون حزينة آسية . أحب الحياة بالرغم من كل شيء . أننى أحب أن أحييا ومن القسوة أن أموت وأنا كذلك مؤاتية لينة » .

وكانت تمر بها ساعات تشعر فيها شعورا مبهما مفزعا بالمرض الذى اندس اليها • وهى قد شعرت به من ربيع سنة ١٨٧٦ اذ كتبت فى أول يونيو « الساعة وأنا خارجة من غرفة زيتى مربي طيف مفزع • فقد رأيت الى جانبى امرأة فى ثوب طويل أبيض تحمل النور فى يدها وتتنظر الى ورأسها منحني شاك على مثال طيف أساطير الألمان • لكن مهلا ! ان هذا الطيف لم يكن الا خيالى عكسته المرأة • ألا كم أخشى أن تكون هذه الآلام النفسانية منشأ مرض جسمانى » •

وفى سنة ١٨٧٧ تولت هذه النفس الحائرة شهوة واحدة • فكرست ماري باشكير ستف كل وجودها للتصوير وجمعت له كنوز ذكائها المشتتة واجتمعت عنده كل آمالها فى المجد ولم يبق لها من حياتها غاية الا أن تكون فنانة كبرى • فأجهدت نفسها فى الدرس فى أكاديمية جوليان ؟ ولم يمض غير قليل حتى كانت من خيرة تلاميذها ، وكان ذلك بعض تلك الانقلابات الفجائية التى تجد لها مثلا شتى فى حياة الصالحين والتى تنبىء عن طبع مخلص متطرف كثير التحول • ومن ذلك الحين لم يبق للأمرء عندها قدر بل أصبحت جمهورية اشتراكية بل ثورية بمقدار • فلم تعد تلبس لبس المترفين وتسربت بالجلباب الأسود الذى ترتديه النساء الفنانات واكتشفت جمال البأسين وأصبحت مخلوقا جديدا • ولم يمض الا ستة أشهر حتى كانت على رأس فرقتهما مع مدموازيل بيسلاو •

وفى انتظار المجد الذى كانت ترجوه كانت منكبة على العمل مجدة فيه • وقد رأت فى ٢١ يناير سنة ١٨٨٢ لأول مرة باستيان لوباج ، وكانت تعجب به وتقلد نقوشه • « وهو صغير الحجم شعره لون الذهب ناتىء الأنف له لحية الشباب ، وكان يومئذ مصابا بالمرض الذى قضى على حياته بعد قليل » وهى الأخرى كانت تشعر بأن اصابتها شديدة • فقد مضى عليها سنتان يهزها سعال ممزق ، وكانت فى خلالهما تزداد نحافة وفى خلالهما أصيبت بالصمم • وقد أدخلت هذه العاهة اليأس الى نفسها فكانت تقول « لم يخلقنا الله لنألم • واذا كان هو الذى خلق العالم فلم خلق الشر والألم والسوء ••• اننى لن أبرأ وسيبقى بينى وبين العالم حجاب • فلن أسمع حفيف الريح فى الشجر ولن أسمع خرير الماء المتساقط على ألواح النوافذ ولا الكلمات التى تلفظ بصوت واطىء • كلا ، لن أسمع من ذلك كله شيئا » • ثم لم تلبث أن علمت أن صدرها مصاب وأن رثتها اليمنى تفنى فصاحت « فليتركوا لى من اليوم عشر سنوات وليتركوا لى خلالها الحب والجد فأموت فى الثلاثين مطمئنة راضية • ألا لو وجدت من يعاهدنى على ذلك لعقدت معه أن أموت فى الثلاثين بعد اذ أكون قد حييت » •

وسار السل فى طريقه المحتوم • فكتبت ماري باشكير ستف فى ٢٩ أغسطس سنة ١٨٨٣ تقول :

« انى أسعل الوقت كله رغم حرارة الجو • وقد أخذتني سنة على المتكأ عصر اليوم أثناء راحة النموذج فرأيت نفسي نائمة والى جانبي شمعة موقدة •

« أتراني أموت ؟ لشد ما أخاف ذلك » •

وهي اليوم والحياة تفر منها تغرم بالحياة حبا • فالفنون والموسيقى والنقش والكتب والناس والثياب والترف والصحة والضحك والحزن والآسى والحب والقر والشمس والفصول كلها وسهول روسيا الساكنة وجبال نابلي والثلج والمطر والربيع وجنونه وأيام الصيف الهادئة ولياليه البديعة ذات النجوم • • كل ذلك هي تحبه وتعجب به • • لكنها يجب أن تموت : « والموت كلمة سهل أن نقولها وأن نكتبها • لكن التفكير في أمرها • • الاعتقاد بأن الانسان سيموت عاجلا ! • • وهل تراني أعتقد ذلك ؟ كلا • ولكني أخشى » •

وبعد أيام من ذلك أزاحت عنها هذه الآوهام التي تطوف حول مراقد المسؤولين وحدثت بالموت وجهها لوجه :

— « ها هو ذا اذن غاية كل آلامنا • كم في الحياة من الآمال والرغائب والشئون و • • • ويموت الانسان في الرابعة والعشرين عند أبواب ذلك كله » •

وفيما كانت تموت كان باستيان لباج المحتضر يحمل كل يوم اليها • وفي يوم الاثنين ٢٠ أكتوبر وقفت يومياتها • وفي ذلك اليوم حضر باستيان لباج معتمدا على أخيه عند مرقد المريضة • وقد ماتت ماري باشكير ستف بعد أحد عشر يوما من هذا التاريخ « في يوم ملأ الضباب جوه فصار أشبه الأشياء بما نقشته هي في احدي صورها الأخيرة : الممشى » •

ان من المناظر التي تمس القلب دائما ذلك المنظر الذي نرى فيه الطبيعة والحب والموت متقاربين في مضيق بشع • لكن في حياة ماري بشكير ستف القصيرة ما أدرى أية مرارة وأى يأس يقبض القلب • وانه ليخيل للانسان اذ يقرأ يومياتها أنها ماتت قبل أن تطفأ رغباتها • • لذلك يسرى طيفها منتقلا في بعض الجهات ينوء بحمل من الرغبات الثقال •

وانى كلما فكرت في اضطراب تلك الروح المتعبة واتبعت تلك الحياة المجتشة ألقى بها الى كل رياح أوروبا زمزمت في اخلاص المتعب بهذا البيت من شعر سانت بيف :

من لى بأن أولد وأعيش وأموت في بيت واحد •

أناطول فرانس

٦

خرافة يونانية

كم خلق خيال بنى آدم من صور ، وكم أخذت هذه الصور
شبهة الحقيقة زمنا حتى جاءت صور غيرها ردتها الى عالم الحلم
والوهم وقامت مكانها تزعم أنها الحقيقة الملموسة . ثم جاء عصر
جديد زج بهذه الحقيقة فى عالم الخرافات لينبئ هو لنفسه اعتقادات
وحقائق جديدة من يدرى كم يكون على الزمن بقاؤها . وهكذا
يبقى بنو آدم يلعبون بالخيال والوهم ويلعب الخيال والوهم بهم ؛
وهم فى ذلك يحسبون أنهم يتبعون الحقيقة وفى أملهم أن يصلوا
اليها يوما ما .

وقعت على خرافة قديمة من خرافات اليونان . خرافة أبدعها
خيال شاعر وطرح بها وسط قومه على أنها الحقيقة . واتخذها
قومه مثالا للحقيقة حتى تغير الزمان وتغيرت هذه الحقيقة معه .
وفى هذه الخرافة فكرة حلوة خلاصة لفتنتى .

فقد زعموا أن يونيا هى التى خلقت جماعة البشر . ولم تخلقهم
من أب واحد وأم واحدة كما قررت الأديان طرا ، بل رأت - وهى

محققة فى كل ما ترى - أن خلق عدد كبير من هذا الجنس أضمن
لسرعة العمارية فى العالم . ولكيلا تستغرق زمنا طويلا فى ابداع
هذه الخلائق ولتبعثها كلها فى لحظة واحدة قامت بادىء الأمر
بتسوية كل عضو من الأعضاء منفردا . فسوت عددا من أذرع
الرجال وعددا آخر من أرجلهم ومثلها من الجماجم والقلوب
وسائر الأعضاء . وسوت مثل هذا العدد من أذرع النساء وأرجلهم
وصدورهن وسائر أعضائهن . ثم ما كادت تتم ذلك حتى دعاها
ياكوس اله الخمر لوليمة أولها . فأجابت دعوته وذهبت مع من
دعى معها من الآلهة الى الوليمة ، وهناك أمضوا وقتهم فى الشرب
والطرب . وقامت يونيا ورجعت الى عملها وقد ملكتها صورة
الخمر . فلم تكد تميز أعضاء الرجال من أعضاء النساء . فجعلت
من حين لآخر تضع فى كيس مما أعدت لاحتواء هذه الأعضاء صدر
رجل مع بقية جسم امرأة . وجمجمة امرأة مع بقية أعضاء رجل .
وبعد اذ ملأت كل الأكياس نفخت فيها من روحها حياة وحركة .
وكان ذلك مبدأ خلق الناس . ومنه خرجوا ومن بين رجالهم من
يعاوده ضعف المرأة لأن صدره يحوى قلب امرأة ومن بين النساء
من تجد فيها شكاسة الرجل أو شدته لأنها أوتيت خطأ فؤاده أو
ذراعيه . وبقي ذلك ميراثا يتسلل على مر الأجيال .

هذه هى الخرافة التى كان يفسر بها اليونانيون ما نراه فى بعض

الرجال من الخنثة وفي بعض النساء من الشكاسة • وهذه الخرافة أخذت صبغة الحق زما ما ثم جاء الحق الجديد فأزهقها وصرفنا معاشر الناس من كل الأجناس أبناء آدم وحواء •

ملحوظة - هذه الخرافة في كتاب من كتب أناتل فرانس وعنه أخذنا فكرتها •

بيير لوتي

لمناسبة وفاته

متى ؟

نعاه البرق منذ أيام ، فنعى كبيرا من كتاب فرنسا المعدودين وأحد محبي الإنسانية الذين امتازوا بالعطف على الشرق وعلى مصر عطفًا خالصا من كل شائبة • فقد ظل لوتي رغم أحداث السياسة في هذه الأيام الأخيرة شديد العطف على تركيا ، شديد التعلق بها ، شديد الأمل في ألا يقع بينها وبين فرنسا ما يدفع الألم الى قلبه الذي جمع بين محبة وطنه واعزاز تركيا •

ولو لم يكن من آثار لوتي الأدبية الا كتابه (موت أنس الوجود) الذي كتبه عن مصر وأهداه الى المرحوم مصطفى كامل باشا لحق على المصريين أن يشاركوا فرنسا في الأسف على موته وأن يقيموا له بينهم ما يخلد ذكره ويديم أثره • ولم لم يكن الا هذا الكتاب لوجب عليهم أن يعنوا بدراسة كتابه وبمعرفة ما انطوت عليه روحه من عبقرية وما اشتمل عليه قلبه من عواطف دائمة التجدد ، ولكان

أول واجب عليهم فى هذا السبيل أن ينقلوا الكتاب الى اللغة العربية ليقف بنو مصر جميعا على ما انطوى عليه من قوة عبارة ، وسحر أسلوب ، وجمال وصف ، وسلطان عاطفة •

على أن (موت أنس الوجود) ليس الا جزءاً من عشرات الأجزاء التى وضعها لوتى والتى أحدثت فى الأدب الفرنسى نوعاً طريفاً جمع بين بساطة القديم وجمال الحديث ، وكان ولا يزال له أثر على قارئه اذا هم قرأوه فى سن معينة واستمعوا فيه الى نغمات أسلوبه المتجاوب البديع الذى يحرك فى النفس الشابة كل أنغام حياة الشباب والذى يبعث الى النفس التى تعدت الشباب صوراً من الشباب تحيىها فتلد لذكرى ماض كان لذيذا حين عاشته ثم لم يزد تدره فى طيات الماضى الا جمالا وروعة •

وليس يسعنا ، نحن أبناء الشرق ، اذا قرأنا كتب لوتى الا أن نشعر بشيء من التجاوب بين نفوسنا الممتلئة بالخيال وبين ما فى هذه الكتب من صور العالم وخیالاته • ويصل هذا التجاوب الى حد التمازج أحيانا ثم ينتضى التمازج ويضعف التجاوب وتحتاج النفس الى غذاء عقلى أكثر دسما مما يجود به الخيال •

ونحن أبناء الشرق فى أشد الحاجة الى المتاع بهذا التجاوب ثم التمازج ثم الانفصال • فان أدبنا القديم غنى ولكنه قديم • فيه

العواطف الرقيقة القوية وفيه نزعات النفس للفضيلة ونزغها للهوى وفيه المعانى الكثيرة • لكن لكل عصر ميولا خاصة • ومهما يعترف الأوربى بأن أدب القرن السابع عشر الفرنسى بالغ غاية الابداع فانه يعترف بأنه لا يتجاوب مع نفس رجل القرن العشرين • ولذلك يحب الرجل منا بعد اذ يعيش عصور امرىء القيس وحسان وجريير وأبى نواس والمتنبى أن يعيش العصور الحديثة • والأدب العربى فى العصور الحديثة متهم بالضعف • وهو من غير شك قليل فى كنهه لا يروى ظمأ النفس فى هذا العصر الذى فتح من كنوز مخبات العالم ما لا تقنع النفس أمامه بوشل من خيال فج أو ذهن محصور أو عقل ضيق الأفق •

أنت بحاجة اذن الى أن تقرأ لوتى • وأنت تحس بنفسك تتحدث مع نفسه وخیالك فى حاجة الى السبح مع خياله • وأنت تتركه بعد ذلك متطلعا الى غذاء أدسم • فاذا وقفت عليه وانقضت سنون ورجعت الى لوتى شعرت بلذة الماضى ورأيت فى هذه الكتب صديقا قديما كان معك زمنا ثم تخطيته وقد يتعذر أن تعود فتبقى طويلا معه •

ولا عجب • فليس لوتى بالرجل الذى حبس نفسه فى غرفة جعل فيها يستقصى تاريخ الأمم ويرد فيها الوقائع الى أصولها ويحلل هذه الوقائع ثم يضع قصة تاريخية أو تحليلية أو يقيم نظرية خاصة

تؤيدها قصته • بل هو رجل نشأ ضابطا في البحرية الفرنسية فجاب أقطار العالم وتخطى البحار فوق ظهر الموج المضطرب فعرف الوحدة اللذيذة المتشابهة وعرف الانكماش فوق سطح المركب الساعات الطوال يناجى الطبيعة الهادئة أحيانا والمضطربة أخرى والمتجددة دائما في صور متشابهة متعاقبة لا يمل تشابهها ولا يؤيس تعاقبها • وهو في انكماشه لا يفتأ يستعرض أمام خياله ما قد يكون وراء الحجب التى يحيطه بها الأفق من كل جانب من ذلك الغيب المريب الذى بدأ منذ الأزل ولزم العالم وما زال ملازما له برغم جهود الأجيال المتعاقبة لكشف مستوره • ولم يكشف له خياله من ذلك الغيب الا عن مخاوف تلخصت عنده في ذلك الشبح المفزع الذى أفسد عليه نسمات الحياة - شبح العدم المتجدد في صور الموت الذى يحصد كل صور الحياة والتجدد • كشف له خياله عن ذلك الشبح فرآه في كل قوته وكل سلطانه لا يغالب ولا يقهر فاستسلم له وأنكر كل ما سواه وأقر له بالقدرة وجعل منه الغاية الأخيرة للحياة فرتب حياته وفاق هذه الغاية •

كثيرون غير لوتى يرون فيما رأى هو من صور الطبيعة ومظاهر الوجود دليلا على الخالق ووسيلة الى الايمان ودافعا للامعان في تقديس الله والتسبيح بحمده • أما هو فقد أثقلت هذه المظاهر كاهله بفكرة العدم والموت • فكان عبوسا • لكنه استسلم لفكرته فكان

عبوسه في غير ثورة ولا قطوب • بل كان عبوس أبيقورى مستسلم لفكرة الحياة استسلامه لفكرة العدم مندفع في سبيل المتاع بالحياة حتى ينسى نفسه في الحياة قبل أن يدركه العدم •

وهذه الفكرة البسيطة العظيمة • وهذه الطبيعة المترامية الأطراف التى يظل يجوبها من طرف الى طرف طول شبابه • وهذا الاستسلام للطبيعة والفكرة التى ألهمتها الطبيعة اياه - ذلك كله هو ما تراه واضحا جليا في كتبه ظاهر الأثر في أسلوبه •

كان لوتى يجوب البحار مستسلما لهواجسه رازحا تحت حمل فكرة العدم « يدس الموت بسمه في حياته فيفسد عليه لذتها وينغص عليه شهوتها » • ولذلك كان اذا رسا به السفين عند الشاطئ يندفع مع زملائه يريد أن ينسى نفسه في الذائد الحياة وشهواتها تخلصا من عبء فكرة العدم والموت • وكان بطبعه سريعا الى الانخراط في البيئة التى يحل بينها والى تقمص روح الطبيعة والناس الذين يحيطون به والى العيش كما يعيشون والى المتاع بما به يتمتعون • فكان تركيا في تركيا مصريا في مصر يابانيا في اليابان مستوحشا في تاييتى • وكان يرى في الحب خير متاع ينسى به ألم الحياة كما كان يرى فيه خير مطية تنقله فوق لجة الحياة الى ساحة العدم • وأنت لذلك لا ترى في كتبه الا وصفا للطبيعة المحيطة به يشعر

بمبلغ حبه لها وبأنه فنى فيها فانطبعت بكلها فى خياله ؛ وتحدثه بعيشه بين أهل البلاد التى نزل فيها على صورة حياة أهلها ؛ وقصصا لحكايات حبه للفتاة التى تمثل فى هذا الوسط مجموع جمال الوسط مجسدا فى المرأة • ثم تبدو من خلال ذلك الوصف وهذا الحديث والقصص فكرة العدم والموت من حين الى حين • وتبدو فى صورة مجزونة تدلك على مبلغ ما وخز الألم لوتى حين مرت هذه الفكرة المخيفة بخياله المستسلم للمذات الحياة •

وأنت ترى كذلك فى كتب لوتى ما يجعلها أشبه بالذكريات كتبها صاحبها لنفسه فوصف فيها ما رأى وما سمع ، وما أحسه وما اندفع نحوه • وكأنه يريد بهذه الذكريات أن يزيد فى متاعه بالحياة وأن يجمع حوله فى كل لحظة من لحظات الحاضر صورة ذلك الماضى المتعاقب بملاذه وشهواته وآلامه ومخاوفه حتى يكون متاعه بالحياة مضاعفا وحتى ينسى مع هذه الذكريات شبح المستقبل الذى لا يحوى عنه لوتى الا صورة الفناء الأليمة المحزنة ••• على أن هذه الذكريات لم تكن لتكفى كاتبها أداة لنسيان فكرته • لذلك جمع حوله حين عاد الى مسقط رأسه تذكارات شتى من البلاد التى مر بها فكان منزله مجموعة عجيبة مما فى الأرض من عجائب • وكان لوتى وهو فى وكره فوق ثرى فرنسا يشعر وسط هذه المجموعة بالأرض مجتمعة حوله وبصور صديقه تحيط به وبالزمن مجتمعة سنوه تحت نظره •

كان لوتى اذن يحب الحياة ويخشى الموت وكان حبه شديدا وخشيته شديدة • فكان يجمع حوله كل أدوات الحياة يتلهم بها عن شبح الموت • وكان دائم الاشتغال بما يحب وما يخشى فلم يتسن له أن يتسهم للحياة ولا أن يسخر من الموت • ذلك بأن المحب والخائف لا يعرفان الابتسام • انما يتسهم من يقف موقف المتفرج • من أجل ذلك كان أسلوبه بين الاستسلام والتهجم • وكان تصويره للأشياء تصوير المعجب بها أو الحذر منها • وكان حبه للمرأة حب امتلاك ليفنى فيها ولتفنى فيه أكثر مما كان حب غزل ليلهو بها وتلهو به ، وأكثر مما كان حبا نفسانيا يتشارك المحبان بسببه فى المتاع بدقائق الكون وبدائع الخليفة • كان لوتى لا يتخير لحبه الا فتاة فجة الذهن والنفس تفتحت عيونها للحياة كما تفتتح عيون الزهر ان حان موعد ازهاره ، وبقي قلبها غضا يدفع الى وجودها شبابا عذبا لا يقتر يتسهم لأنه الشباب ولأنه عذب كما لا تقتر الزهرة تبعث من أريجها ما دامت فى شباب ازهارها لم يجيء عليها ذبول ولا أفول • « فأزياديه » « وفاتوجيه » « وجنان » ومدام « كريزتم » وغيرهن كن فى عذوبة الشباب جمالا ورقة وكن فى طفولة الانسانية استسلاما وطفولة • وهن قد بلغن من ذلك ان كن لا يرين فى اتصالهن بلوتى خطيئة ولا اثما •

وكان لوتى يعرف كيف يصف هذا الحب المتنقل وهاتيك

الطفلات المحبوبات وتلك الطبيعة المترامية الأطراف المتنوعة الأرجاء •
كان يعرف كيف يصف ، وكان يعرف كيف يرى ، وكان يرى
كل ركن من أركان الأرض بالعين التي يراه بها أهله • وكان قلما
يلجأ الى الكلمات المبهمة المعنى الا اذا كان المعنى الذى يريد أن
يصيغه مبهما لذاته • مع ذلك كان عدد كلماته محصورا حتى
لا تكاد تجد كلمة وحشية أو معقدة أو مهجورة • وما للوصف
والكلمات المهجورة أو المعقدة أو الوحشية • انما يصف الكاتب
ليرى القارئ من غير حاجة لمنظار معظم • وليس منظار يحتاج اليه
القارئ • أتعس من القاموس يلتجئ اليه •

على أن لوتى كان كثير التكرار فى وصفه • ليس ما يمنعه من
أن يصف مغرب شمس اليوم ليعود بعد قليل فيصف لك مشرق
شمس غد ثم مغربها • وليس ما يمنعه من أن يصف سفوح الجبل
سفوح الجبل ينتقل منه الى وصف السفوح المجاور له • وقد يجد
الناس مثل هذا التكرار مملا • لكن للكاتب الوصاف عذره •
فالشمس تشرق كل يوم وتغرب كل يوم وليس يضعف ذلك من
أن كل مشرق شمس جميل • وأنت تتمتع كل يوم بصور متاع
متشابهة فلا يصدك عن المتاع شئ • غدا أنك تمتع بمثله اليوم • بل
لقد يكون فى التكرار لذة لذاته • وقد يكون التكرار مضاعفا للذة
لأنه يضاعف قوة الاحساس بها • والصحيفة التى يكتبها الكاتب

المجيد كمشرق الشمس أو كسفح الجبل أو كساعة الحب تود لو
تعود اليها • فما بالك لو أنك رأيت مشرق الغد فكان أكثر من
مشرق اليوم بهجة وان كان أقصر منه حيناً • أو لو أنك رأيت
سفح الجبل غدا فاذا أزهار جديدة تفتح عنها أكمامها فتزداد بشداها
متاعا والتذاذا •

فالتكرار لا يمل لذاته • وانما يمل منه ما زاد عن الحاجة •
وليس كاتب مجيد الا يعرف مقدار هذه الحاجة والا تداعت
اجادته • وقد ظل لوتى وصافا مجيدا حتى أتى عليه الموت •

وقد لا يعينك وأنت بين جنات لوتى أن ترى عقلا كبيرا وحكمة
كثيرة • انه ينقلك من وحدة التفكير الى ساحات العالم الواسع •
وهو ينتقل بك من متجمد الشمال حيث تكون بين الصيادين فى
اسلانه الى المحيط الهادى الى خط الاستواء • فليس لديك وقت
للتفكير • وهو لا يعنى بأن يحبس عنك صور الوجود المترامى
لتحبس نفسك على التفكير فى ذرة من ذراته ولو أيقن أن هذه
الذرة أصل الحياة ومصدر الوجود •

تلك بعض خواطر عن لوتى الذى نعاه لنا البرق أخيرا • وليس
يسيرا أن نكتب عن لوتى فنوفيه حقه • وانما أردنا أن نقف برهة
عنده فى ساعة ارتحاله الى العالم الآخر • أو ان شئت فقل فى ساعة
دخوله من باب الموت الى ساحة العدم التى كان يفرع من هولها •
وحق علينا أن نقف عنده • فقد كان شاعر فرنسا • ولكنه كان
نابغة من نوابغ العصر • وكان مجبا للانسانية كلها • وكان كلفا
بالشرق معجبا به •

قاسم أمين

١

لكل عصر فى حياة أمة من الأمم مميزات خاصة • ولم يعن
المؤرخون بدرس هذه المميزات فى أوروبا الا فى العصور الأخيرة
بعد ما ثبت لهم أن مواليد الملوك ووفياتهم وما يقومون به من الغزو
والفتح ليس هو وحده الذى يقيم حياة الأمم • كلا بل ليس هو
الركن فى اقامة حياتها • وان قيام الملوك ونزولهم عن عروشهم
وما يتخلل ذلك من الحروب ليس الا مظهرا من مظاهر هذه
الحياة • خصوصا بعد اذ دك عرش الاستبداد وقامت الديمقراطية
حاكمة آخذة بيدها النهى والأمر • وانما قوام حياة الأمم مميزاتهما
من أخلاق وعادات وعقائد وآمال • تلك مجموعة المظاهر التى
تصدر عن الأمة والتى تقوم عليها الحكومات والملوك والحروب •
من يوم ثبت ذلك لعلماء التاريخ فى أوروبا وجهوا عنايتهم الخاصة
لبحث جميع المظاهر التى كانت تصدر عن المجموع الذين يريدون
تعرف ماضيه • فلم يتركوا أثرا يهدى لبعض هذه المظاهر الاقفوه •
وبذلك أمكن لهم أن يرسموا فى التواريخ التى وضعوها صورا
مضبوطة من تلك الأمم واستطاعوا من بعد ذلك أن يربطوا الحاضر

بالماضى وأن يقدموا بذلك لأنفسهم ولغيرهم من المفكرين وعلماء الاجتماع مادة جيدة غزيرة يمكن معها رسم أقوم الطرق للوصول الى أحسن ما يرجى فى المستقبل •

وكما كانت القوانين وكتب العقائد من تلك الآثار المفيدة التى عنى المؤرخون ببحثها والتنقيب عن أصولها لمعرفة العلاقة بين الفرد وضميره وبين الفرد ونفسه ، وبين الفرد والفرد ، كذلك كانت كتب المفكرين وكتاب الآداب من الآثار النفسية التى قامت نبراسا لهداية الباحثين الى عوائد الأمم وأخلاقها وطرق تفكيرها ونظام حياتها اليومية فى أعمالها • ولهذا اتجهت عناية التاريخ الى دراسة هذه الكتب على اعتبار أنها آثار اجتماعية لا مجرد مظاهر فردية ، وانقطع كثير من رجال العلم للتنقيب فيها يريدون رد كل فكرة أو صورة أو خيال مما يجدونه الى الأصل الاجتماعى الذى صدر عنه ، كما استعانوا بها لتحقيق هذه الاصول الاجتماعية وتحديداتها • وذلك المعنى هو ما أراده (تين) حين قال فى مقدمة كتابه عن تاريخ الآداب الانجليزية : لقد ظهر للمؤرخين أن الأثر الأدبى ليس مجرد حركة خيالية ولا هو شهوة ساعة لرأس حامية ولكنه صورة من الأخلاق وأثر من آثار الحال النفسية التى تحيط به • ومن الخطأ درس الأثر الأدبى على أنه عمل قائم بذاته • فما آى الايمان بشئ لذاتها • وانما هى أثر الذين وضعوها • وانما يكون

التاريخ الحق حين يبدأ المؤرخ يتعرف الرجل من خلال غيابات الزمن ويميزه حيا عاملا ذا شهوات وعوائد مسموع الصوت منفلور الوجه ويرى اشارته وملابسه ويحيط به واضحا كاملا كأنما كان معه فى الطريق ولما يكذب يتركه •

وظاهر أنه متى وصل المؤرخ من استفسار الآثار العقلية والأخلاقية والمادية لأمة من الأمم حتى أحاط بها احاطة استطاع معها أن يعرض أمام النظر صورة دقيقة من الشعب الذى اختار فى الزمن الذى اختار كان من السهل عليه وعلى من يقف معه عند الصورة التى وصل اليها الاتفاق على رسم طرق الاصلاح والعمل لتوطئة مستقبل أقل أغلاطا من الماضى وأكثر سعادة • ومن دونه يكون نظر كل فرد أو جماعة صغيرة للحاضر وأحواله وحوادثه محدودا ضيقا وتكون الوسائل التى يتخيرها المفكرون للعمل خير فى المستقبل متشعبة متناقضة متضاربة • ومهما تكن حياة الأمم من القوة فان الشعب والتضارب فى خطط السير التى ترسم لها تذهب بمجهودات المجموع فيها ولا يكون لها حينذاك مهما حسن حفظها الا أن تتقف فى نقطة لا سبيل الى التقدم بعدها • ووقوف الحى عن التقدم معناه التدرك الى الفناء •

وانه ليحزننا أن نقول ان مميزات حياتنا والآثار التى صدرت

عنها لم يعن بالنظر فيها منا أحد • وترانا لذلك أشد ما نكون جهلا بحقيقة حياة هذا الوادى الذى نعيش فيه وبالتالى أبعد ما نكون عن معرفة الوسائل لاصلاحه • ولكم علت صيحاتنا طلبا للاصلاح ثم كم اختلفنا على هذا الاصلاح لا لشيء الا لأننا نجهل حقيقة حاله ، كم اختلفنا على هذا الاصلاح لا لشيء الا لأننا نجهل حقيقة حالنا ، اليها حتى يتم بعض ما نريد •

ولو غنى بعض دعاة الاصلاح باستظهار صورة حية ناطقة من تاريخنا المتصل بحاضرنا أو البعيد عنه عناية المؤرخ الذى يريد أن يتعرف الرجل من خلال منائى الزمن ويميز شهواته وعوائده لوفروا علينا كثيرا من مجهوداتنا الاجتماعية الضائعة ولطرقوا باب الاصلاح الصحيح الذى منه يصلون •

لا أعرف مصريا كتب عن عوائدنا وعقائدنا ليظهر صلة ذلك بباقي مظاهر حياتنا القومية ولا صلته بتاريخنا القريب أو البعيد • ولا أعرف مصريا فسر لنا صورة كتاب من كتابنا وجاهد ليرد أفكاره الى مصادرها ويظهر حقيقة هذه المصادر • لا أعرف مصريا بذل أى مجهود جدى ليعلم المصريين تاريخ مصر •

وقفت على الجزأين الثانى والثالث من التاريخ الذى وضعه الشيخ محمد رشيد رضا عن المرحوم الشيخ محمد عبده • والشيخ

رشيد ان لم يكن مصريا فهو متمصر • وفى هذين الجزئين ما كتب المرحوم من المقالات وما كتب عنه حين وفاته من المرائع • ولكن الجزء الأول ، الجزء الذى يحوى صورة الشيخ محمد عبده حية ناطقة متصلة بحياة العصر الذى عاش فيه متأثرة بهذا العصر مؤثرة فيه مفسرة له متفسرة به ، هذا الجزء وهذه الصورة التى يريدنا الناس من المؤرخ بقيا فى صدره الى الآن وقد مضى على عزمه على اظهارهما عقد من السنين •

وقعت كذلك على بعض أجزاء مما كتب عن حياة المرحوم مصطفى كامل باشا • ولا شك فى أن مصطفى كامل من الأشخاص الذين يفسرون جهة من جهات حياة هذه الأمة ويتفسرون بها فى العصر الذى ظهر فيه • ومع هذا كان كل ما فى الأجزاء التى أذكر أنى رأيته جملة من الخرافات لا تفسر حياة الكاتب ولا تبين صلتها بعصرها وتفسيرها له وتفسرها به بشكل من الأشكال •

ولا أذكر أن أحدا فكر فى استفسار كتابنا بعد هذا الالهم الا بعض مقالات فى الصحف تظهر عن كل كاتب أيام حياته أو على أثر وفاته • هذا على أن كتابنا أمثال قاسم أمين وفتحي زغلول وعلى يوسف وغير هؤلاء وأولئك قد كان لهم فى حياة الأمة أثر غير قليل ، كما أنهم كانوا مظاهر خاصة لحياة الأمة • واذا كان هؤلاء

لا يزالون على مقربة منا وقد عاشوا بيننا وربما وجدوا فيمن بعدنا من يعنى بمعرفتهم فان من هم أقدم منهم من الكتاب أمثال الجبرتي وابن اياس لم يجدوا من يعنى بدرسهم ودرس ما كتبوا على اعتبار أنهم مظاهر اجتماعية للأجيال التي عاشوا فيها •

كذلك لم يعن أحد بدرس ما سوى الكتاب من مظاهر حياة الأمة في الماضي وآثارها ، بل كلنا نعيش للحاضر وفي الحاضر • نعيش وحدات مستقلة متأثرة بضرورات الحياة غير محسنة بمعنى الاجتماع ولا بما يستلزمه العيش المشترك • فاذا مر بنا هذا الاحساس كان أقصى ما يستثيره عندنا رغبات وآمال تطير مع الهواء ولا تجد لها مستقرا ثم لا تبقى لها بعد ذلك باقية •

والحقيقة أن طرق باب الإصلاح يستلزم قبل كل شيء الاحاطة بحال الأمة • والأمة لا تتكون من اللحظة الحاضرة بل ان للماضي في شركة حياتنا قسما أكبر مما للحاضر • الماضي هو حياتنا كلها • هو الأب الذي أنشأ اللحظة الحاضرة وسلطان أبوته سلطان فعال قاس شديد المحال • وانما يكون الإصلاح بالاستعانة بما في هذا الماضي من حسنات ومساعدة هذه الحسنات لتسرى الى المستقبل وتنمو فيه وبمحاربة ما فيه من مفسد محاربة استئصال وابادة • • أما مجرد ارسال الرغبات تلو الرغبات والتعلق بجمال الوهم فيحلم

ينقضى مع صاحبه ولا يترك أثرا بعده • والتألم على فوات أمل لم يتبعه عمل تألم الطفل على ما خيل له في حلمه أنه حصله فلما استيقظ لم يفد شيئا • وحاشا أمة تريد البقاء أن تتعلق بوهم هذا مآله • وانما عليها أن تعمل للوقوف على ماضيها لتستطيع اصلاح مستقبلها •

وربما كان أحق الناس بالتغلغل في خبايا الزمن واستطلاع حقائق التاريخ جماعة الأدباء والعلماء • ولكن الحال أن أدباءنا ناسون هذا الواجب تائهون في خيالهم وشعرهم وعلماءنا واقفون عند ما خطت أقلام السلف وما ينقل اليهم من أوروبا فليس من سبيل الا أن يتولى ما أهملوا قوم قد تساعدهم ارادتهم على التقدم بما يستطيعون من فائدة لسواهم • ولا يكلف انسان في الحياة الا وسعه •

لهذا رأيت أن أبحث من جوانب حياة قاسم أمين حياته ككاتب ومفكر اجتماعي بحثا تحليليا أظهر فيه صلة رجل قام بحركة فكرية كبيرة في مصر بمجموع حياة الأمة ومقدار تأثيره بهذا المجموع وتأثيره فيه وأبين الأصول التي يمكن أن ترجع اليها الأفكار التي قام بها قاسم أمين والتي كانت من الظواهر الاجتماعية المحسوسة التي ظهرت في العصر الأخير في مصر •

قاسم أمين

٢

من أجل درس رجل من الرجال فيلسوفاً كان أو كاتباً أو شاعراً يجب قبل كل شيء أن نعرف الوسط الذي عاش فيه والحال النفسية الخاصة به حتى نعلم تأثير هذه البيئة المعينة على هاته النفس المعينة . فإذا تم ذلك تفسر الفيلسوف أو الكاتب أو الشاعر الى حد كبير .

لهذا نرى للوصول الى تفهم أسلوب قاسم أمين وأفكاره أن نحلل حال الوسط الذي عاش فيه والأوساط الأخرى التي قد تكون أثرت عليه في حياته ثم نبحث من بعد ذلك حاله النفسية الخاصة به . فإذا تهياً لنا من ذلك ما أردنا كلان لنا أن نحلله ككاتب وأن ننظر في كتبه من جهة أسلوبها ، ومن جهة الأفكار التي وضعت فيها . حينذاك يكون قاسم قد ظهر لنا ككاتب ومفكر ظهوراً تاماً ونكون في حل من الحكم على قيمة كتبه وما لها في الوجود من حق البقاء .

الأوساط التي أحاطت بقاسم

ولد قاسم أمين في مصر وأقام بها كل حياته الا سنين قلائل قضاه في فرنسا . على أن هذه السنين القلائل كانت ذات أثر كبير عليه . ولذلك يجدر بنا أن نحلل الوسط المصري وأن لا تغفل

الوسط الفرنسي . أما سياحاته الأخرى في بلاد الترك والشام فلم تترك عنده أثراً خاصاً ولم تكن أكثر من موضع ملاحظة السائح المار في ربوع تلك البلاد . ويجدر بنا للوصول الى نتيجة ما من بحثنا الوسط المصري أن نعني به من جهتين ، وبتعبير آخر أن ندرس منه نوعين : أولهما الوسط الطبيعي ، والثاني الوسط الاجتماعي للعصر الذي عاش فيه قاسم . ذلك بأن الوسط الطبيعي ذو أثر كبير في الناس الذين يعيشون فيه ، وبالأخص فيما يتعلق بخلقهم . والوسط الاجتماعي هو صاحب الأثر الأكبر في تشكيل أفكارهم .

١ - الوسط الطبيعي :

بينا ترى مصر البرزخ الذي يصل بين الغرب والشرق اذا طبعته الجغرافية تضعها في عزلة عن العالم بشكل غريب . فالصحارى تحيط بها شرقاً وغرباً وجنوباً والبحر المتوسط يحجبها عن بلاد الشمال . ووسط هذه العزلة المنقطعة ينساب نهراً المبارك الغدوات الميمون الروحات يظل واديه طقس متشابه دائم الابتسام وسماء صافية لا تتلبد بجهاًم وجو معتدل وشمس دائمة وصفو وسكينة . تجوب الوادي من أقصاه الى أقصاه فلا تقابلك عقبة تحتاج مجهوداً لازالتها ولا تشور عليك من ثائرات الطبيعة ريح أو زوبعة أو مطر . يل تراك تسير بين جبلين يقتربان حيناً فيحدان الأفق دون مرمى

نظرك وبتعدان أحيانا فلا ترى دون الأفق مما يجلل أرض الوادى
الا النبات النامى والأشجار اليناعة وأسراب الطير السانحة والبارحة •

وسط هذه المزارع الواسعة ترى الدواب فى سكنية أشبه شىء
بسكنية الخلد ، وأكثرها من تلك الدواب الهادئة المطمئنة الى عيش
السكون • فالثيران واقفة وسط مزارع البرسيم أيام الشتاء لاتتحرك
من مكانها ، والحمير مدلاة رؤوسها الفارغة لا تهتم بأكثر من أن
تنال علفها القريب منها • وقل أن تجد سوى هذين النوعين من
أنواع الحيوان الا ما قام الزينة أصحابه •

بل ان الحيوانات المستوحشة مما يوجد فى البلاد هى على قلتها
حيوانات ضعيفة مستسلمة • فتلك الذئاب الضئيلة الضعيفة لا ترى
الا نادرا ولا يسمع أحد أنها شنت الغارة يوما على مخلوق مما يعيش
قريبا منها • وهاتيك الثعالب المستميتة لا يعلم عنها الا اعتداؤها أحيانا
على بعض منازل الدجاج • وهذان أشد الحيوانات مما يوجد فى
مصر حركة وافتراسا • وليس هناك سواهما الا ما هو دونهما
بمراحل فى الضالة والضعف والاستسلام • حيوانات كلها لا تهيج
طائرا ولا تبعث الى موجود هزة الخوف •

لذلك كان كل شىء مما ترى تظهر عليه هدأة السكون • سكون
يجبل لك معه أن هذه الأشياء تائهة فى أحلام مبهمة وخيالات

يعيدة • ليس ثمت ما يكدر على شىء منها صفو أحلامه • ليس ثمت
ما يمنع الصرصار من أن يستمر فى صفيره ولا ما يقطع على الضفدع
تقيقه ثمانية أشهر فى السنة • ليس ثمت ما يزعج الحمر عن مرابطها
من قيط محرق أو قر مخيف • ليس ثمت تلج يترك الأشجار مدة
الشتاء عابسة قائمة • ليس ثمت تلك الاختلافات التى تجيء بها
الطبيعة فى بعض البلاد فتغير وجهها ما بين فصل وفصل وتغير لذلك
معالم كل الموجودات التى عليها • وليس ثمت تلك الحواجز الطبيعية
التي تستثير فى كل مخلوق حب الاستطلاع أو تستدعى منه صرف
المجهود للتغلب عليها •

وليس هذا السكون الذى ترى سكون الصحراء البلقع المقفرة •
بل ان ذلك الوادى المفرد فى عزله هو مستقر النضرة والنعيم •
فنهره الفياض يوجد عليه كل عام بماء الحياة ويجعل من أرضه
روضة يانعة كلها الخصب والثروة •

ولقد بلغ من ذلك حتى ذهب الأقدمون الى أن النهر يستمد ماءه
الغنى من ينابيع الجنان وأن الوادى قطعة من رياض الجنة • وتفتنوا
فى تصوير ذلك ما شاء لهم الخيال المتدفق الذى يتغنى بكل موجود
على ضفاف النهر •

وعلى الرغم من هذه الثروة التى يوجد بها النهر على واديه ترى
حكم الطبيعة المتشابهة الساكنة على كل ما فى الوادى حكما قاسيا

يخضع كل شيء لشدته • فأنك تمر وسط الحدائق والمزارع والمروج بقرى كلها من اللبن متضائلة تائهة في سكون الوادى كأنها بأكوأخها الترايبية اللون آثار بالية مما خلف الماضى • أو هي أوجرة وأو كار لتلك الحيوانات الضئيلة المستسلمة • فإذا ما دخلت أحدها صدق الواقع ظنك فوجدت نفسك في غرف مظلمة لا يجد النور إليها سبيلا الا كرها • ثم اذا أضاءها أصحابها ليطاعوك على ما فيها جاءوك بمصباح قذر قليل النور فرأيت على شعاعه جدرانها السوداء العارية وأرضا ربما غطاها فرش من الحصير أو القش • وهناك عند أحد الأركان معلقة جريدة من سعف النخل تحمل كل ما في الدار من فرش ودثر وما لأصحابها من ملابس وأردية • وان أنت عثرت في بعض القرى بمنزل ذى نوافذ وفي نوافذه زجاج كان ذلك دليل ما عند أهله من سعة ويسار غير عاديين • على أن هذا اليسار لا يحمل أحدهم ليدخل من مواد الترف الى داره ما يثور على الطبيعة القانعة المستسلمة •

وفي هذا الوسط الخالد الى السكينة يجد الضيف النازل رجا وسعة • ولا يمر بخاطر موجود ممن في الوادى أن يحسب فيه منافسا أو مضيقا •

رزق الوادى ويسعه ويسع غيره معه • وكل ما يطلب اليه أن لا يبالغ في الأذى وأن لا يزعج موجودا عما هو فيه من أحلامه

وسكنته • للتمساح اذا دخل في النهر أن يعيش مما يصل اليه من رزق • له أن يأكل ما ضعف عنه من الأسماك • ولكن عليه الى جانب ذلك أن لا يثير في البر أو في الجو الفساد •

عليه أن يترك القوارب تخطر فوق مياه النيل كما تشاء •

عليه أن لا يخرج الى حيث الناس والدواب فيقلقها عن مرافقها • فان هو لم يفعل ذلك استعدى كل من في الوادى الآلهة واستعانوا عليه بما قد يبعث أذاه الى نفوسهم من الحركة والهياج ضده • والآلهة وأكبرها الطبيعة ضمنية أن تخرج هذا الضيف الذي لا يلائمها من ملكوتها ملكوت الحياة المطمئنة الساكنة •

فتد جاء في التاريخ أن النيل قذف أكثر من مرة بالتماسيح الى شاطئه ونزل عنها وتركها وسط الرمال في جو لا يلائمها فذهبت ضحية مقامها في وسط غير وسطها •

وجاء أن بعض السباع عدا على البلاد فخانه الوسط الطبيعي ولم يجد لنجاته سبيلا الا الرحيل • وكل ما بقي من الضيفان من خضع للنجو المحيط به ونزل عن كثير من أخلاقه ورضى بالعيش الذي يكرهه عليه ما حوله من المجاورات • • أو على الأقل من تصنع هذا الرضا والخضوع •

وهذا الوسط هو الذى أحاط بمن نزل وادى النيل من قرون

التقرون وهو الذى خلق الموجودات والناس ممن عاشوا فيه • ولم يؤثر فيه الناس ولا الموجودات الا أقل الأثر •

فماذا عسى تكون الخلائق التى أوجدها وماذا عسى يكون أثره فيهم ؟

ب - الوسط الاجتماعى :

لسكان وادى النيل مميزات خاصة امتازوا بها منذ القدم • مميزات فى أنظمتهم الجسمية ومثلها فى أنظمتهم الأخلاقية والعقلية • وكلها خلق ذلك الوسط الطبيعى الذى يعيشون فيه • فكما أن طقس بلادهم طقس هادىء دائم السكينة قليل الغير ؛ كذلك تلمح فى وجوههم أثر السكينة الهادئة المطمئنة ، وتلاحظ فى أخلاقهم الاستسلام والعيش فى الحاضر ، وترى فى تفكيرهم خلودا للماضى وعدم ميل للتغير • هم يعيشون على نحو ما عاش آباؤهم خلا أمانى تجول برأسهم قد يتغنون بها أحيانا اذا ساعدتهم الوقت على التغنى ، كما يتغنى الطائر ما دام الصيف وما أسعده الدفء ، فاذا جاء الشتاء أسكته •

كذلك اذا تغيرت الظروف انكمش المصريون ونسوا أغنياتهم ورجعوا الى عيشهم الأول مكتفين من الحياة بحرث الأرض وبانتاج مواد الرزق وما تستلزم المعيشة •

وهذا هو سبب ما نرى فى التاريخ من تقلب الولاة والحكام الأجانب على هذه الديار من غير أن يدفع أهلها لمناوأة حاكم ملكهم دافع • بل لقد بقيت الأسرار الفرعونية تتوالى واحدة بعد أخرى وليس من بينها أحد من سكان الوادى الصميمين • وهؤلاء السكان أبعد ما يكونون عن التفكير فى اسقاط أسرة أو الطمع فى الاستيلاء على العرش • ويبقى الحاكم متربعا فى دسسته آخذا بيده النهى والأمر حتى يجىء سواه من جنسه أو من جنس آخر فيستعين عليه بالقوة أو بالدهاء حتى يسقطه ويأخذ الحكم مكانه • والمصريون ينظرون لذلك كله بعين مطمئنة وقلب ان جالت به بعض الوسواس فانها لا تخرج الى أكثر من الهمس الذى يزول يوم ينكشف النزاع بين المتجادلين • وأى منهما غلب كان صاحب الحكم وصاحب الحق على عرش وادى النيل وصاحب الرعاية على سكانه •

وعجبية قوة الوسط الطبيعى للوادى فى اخضاع من يقيم فيه لسلطتها • فلا يلبث الحاكم اقديم أن يتدرك الى ملابسة الناس من أهل الوادى ومخالطتهم والعيش بينهم حتى تداخله وتداخل أبناءه الأخلاق الخاصة التى امتازت بها الطبيعة • فهو سرعان ما يميل الى الاستسلام للطمأنينة والأخذ فى طريق الحياة الساكنة القانعة من العيش بما تنبت الأرض وبما يرزق الله • لهذا لم نر أسرة من الأسر بعد اذ غلبت على أمرها كونت لنفسها حزبا تناوش به من

بنزها عرشها سعيًا وراء استرجاع ذلك العرش اللهم الا في ظروف نادرة ولوقت قصير •

ولقد كان من أثر هذه العوامل الرئيسية أن زادت في ذلك الاستسلام الطبيعي الموجود في النفس المصرية • فاصطبغ كل ما دخل إليها من الأخلاق والعقائد بصبغته وأصبحت قواعد الأديان التي توالى على أرض مصر مرتكزة على أساس الجبرية والايمان كما امتازت الأخلاق المصرية بالسكون الى حكم القضاء • ولم يكن من صالح الحكام المتعاقبين تغيير شيء من ذلك كله فانغرست تلك الصفات وتأصلت ووصلت الى حد الجمود •

لذلك كله كان واجب المصلحين في هذه الديار أشق وأنعس ما يتصور •

كان قاسم أمين والوسط الذي عاش فيه تحكمه كل هذه الصفات • ولكن كان الى جانبه حركة اجتماعية جديدة قامت على أثر الحركات المتوالية التي تعاقبت على مصر في القرن الأخير حركة حرة قامت على أساس فكرة الإصلاح متأثرة بما حصل في البلاد في سنتي ١٨٧٦ و ١٨٨٢ وبما عقب ذلك من أوجه الإصلاح الاقتصادي والنهضة الشبابية العلمية التي أخذتها بيدها حكومة ذلك الوقت • وأعان هذه الحركة الإصلاحية الحرة على البقاء والتقدم

المركز الخاص الذي وجدت فيه مصر بعد سنة ١٨٨٣ والذي أدى لوجود حكم البلاد في يدين متنافستين تنافسا سمح بازدياد الحرية الفردية وترك للأمة أن تبدى على الملأ ما كان يجول بخاطرهما من الأمناني متأثرة في ذلك بما ورد إليها من نظريات الغرب الذي كان قد بدأ يهتم لها اهتماما خاصا لما خلقه لها قتال السويس من المركز الخاص •

لكن هذه الحركة الجديدة كانت قاصرة عن أن تمتد الى جوف البلاد • بل كانت لا تزال متركزة في العاصمة ولا يصل منها الى بعض المدن الا صدى لا يؤديها بشكل مضبوط ولا يترك منها في نفوس أهل تلك المدن الا أمرا ضعيفا هو أشبه شيء بما يتركه الحلم في وهم الحالمة بعد يقظته • كما أنها كانت لا تزال مترددة لم تخط لنفسها طريقا معينا ولا هي تحددت بحدود خاصة الا في نفوس بعض الرؤساء القائمين بها •

ولما كانت متركزة في العاصمة كانت كل ملاحظاتها وكل أطماعها وكل الأغراض التي ترمى إليها مأخوذة من نوع حياة العاصمة وموجهة الى اصلاح هذا النوع من الحياة • ومن شأن العواصم أن تعزو كل ما تراه بين جدرانها من الخير والشر وما تتوهم في ربوع البلاد من بر وفقر الى عمل الحكومة والى نظامها • لذلك كانت

حركات العواصم متطلعة أغلب الأحيان الى الناحية السياسية • وفى حركة العاصمة المصرية فى سنة ١٨٨٢ شئ من هذا المعنى • لكن ما قدمنا من صفات أوجدتها الظروف الطبيعية والسياسية فى الشعب المصرى كان من شأنه أن يضعف عزم كل مصلح يريد الدعوة للانقلاب السياسى ويدعوه للتفكير فى البدء بالاصلاح الاجتماعى • هذا فضلا عن أن قوى خارجة كانت تحول بين السياسى وبين نجاح الدعوة للانقلاب • لهذا كانت الحركة الحرة التى نشأت عند نشأة قاسم أمين مضطرة الى أن تهتم بالاصلاح الاجتماعى قبل كل شئ •

ولما كانت هذه الحركات ترمى الى شئ من التجديد فى طرق العمل والتفكير والاعتقاد كانت المعارضة القائمة فى وجهها غاية فى الشدة • فلم يكن قوامها الا المركز الممتاز الذى كان للقائمين بها • ولولا مثابرة هؤلاء الرؤساء وما لقوا من التعضيد من بعض الجهات التى كانت تهتم بأن تبقى الحركات الاصلاحية اجتماعية كلها لماتت تلك الحركات فى مهدها •

وكان من الحركات الاصلاحية الأخرى التى قامت الى جانب هذه الأولى حركات ذات وجهة سياسية اعتمدت فى انتشارها على سغب الرأى العام لمثل المبادئ التى كانت تنادى بها • وقد لقيت هذه الحركات نجاحا وانتشارا كبيرا فى العاصمة • لكنها اندفعت الى

مقاومة تيار حركة الاصلاح الاجتماعى فى بعض ما كانت ترمى اليه مقاومة ذات قيمة •

ولقد ساعد تلك المقاومة أن هذه الأحزاب كانت تناصر المبادئ الجامدة التى توارثتها الأمة وتجذبها ، على حين كان أهم ما ترمى اليه حركة الاصلاح الاجتماعى زحزحة الأمة عن مركزها الجامد وادخال نوع من التفكير الحر الى نفسها كى تستعين به على التحلل من بعض العادات والأنظمة • أى أن هذه الحركة كانت احتجاجا ناطقا على هذا الجمود وصيحة عالية فى وجهه •

وكان مما وجه اليه بعض المصلحين نظرهم بوجه خاص ما كانت عليه الأمة — ولا تزال — من الوقوف فى الدين عند تفاسير قديمة رأى أولئك المصلحون أنها لا توافق روح العصر الذى يعيشون فيه من جهة ، وليست ضربة لا زب ولا ضرورة من ضرورات الدين من جهة أخرى • فرأوا من الواجب الأخذ بغير هذه الآراء والتحلل من قيودها ونبد ما ترتب عليها من المفاصد التى تراكت بعضها فوق بعض مع الزمن والتى أصبحت فى اعتبارهم علة من العلل التى أصابت الدين وهو منها برى • وكان على رأس هذه الحركة الشيخ محمد عبده •

ولا شك أن هذا الباب من أبواب الاصلاح كان يومئذ الأساس لكل ما سواه • لأن الفكرة الدينية كانت وحدها المتسلطة على عقائد

الناس وأحلاقهم وأنظمتهم ومعاملاتهم تسلطا مطلقا لا يفكر أحد في أية وسيلة للتدخل منه ولو الى أضعف الحدود • ومن أجل ذلك سمح المصلحون الدينيون لأنفسهم أن يجوسوا خلال كل أنواع الإصلاح • فكانوا يتقدمون بالرأى في الحال الاقتصادية وفي الحال الأخلاقية وفي الحال الاجتماعية • ولم تكن الا الحال السياسية هي التي أغلق بابها دونهم لأنها لم تكن في يد الأمة كما أن أصحابها لم يكونوا ليتهاونوا في أمرها أو ليدعوا لغيرهم أن يبدى فيها رأيا •

ولقد وجه رئيس الحركة الإصلاحية المرحوم الشيخ محمد عبده همه الأول الى تصفية الدين مما يعتقده الناس من الترهات التي ألصقت به • وكان مثله في ذلك مثل لوثر وكلفن وغيرهما من المصلحين الذين قاموا بالحركة الدينية في أوروبا في القرن السادس عشر • أى أنه جعل العقل مقياس الدين ، فكل ما لم يتفق مع العقل من تفاسير السابقين هو يعتبره دخيلا لا يستحق البقاء ويجب أن يقوم مجتهد يحل غيره محله • وكان أكبر همه من ذلك هو جعلها لما يختص بالعقائد • لذلك تراه أصدق ما يكون حملة على مسائل الأولياء والنذور وأمثال هذه الطقوس مما هو دخيل على الإيمان بالآله في رأيه • أما ما كان متعلقا بالأنظمة الاجتماعية والاقتصادية فلم يكن صاحب نشاط فيه وان كان صاحب رأى •

ورأيه انما كان أغلب الأحيان أثرا من آثار مركزه • فقد كان يصدره كفتاوى فيما تطلب منه الحكومة الفتوى فيه وفيما يعرض عليه من غير الحكومة •

ولقد كان لهذه الحركة التي قام بها الشيخ محمد عبده في وقته من القوة ما لم يكن سهل الاحتمال عند الأمة لولا الظروف الخاصة التي كان فيها الشيخ المفتى • فقد كان صاحب الافتاء في البلاد • كما أنه كان باطلاعه الواسع وبحسن فهمه للظروف المحيطة به وبتفوقه ما بين العلم الشرقي والعلم الغربي صاحب مكانة لم تنهيا لغيره من المصلحين • مكانة سمحت له أن ينفث روحه في الصحافة ويؤثر بذلك في الرأى العام •

لكن المصريين كانوا مع ذلك أنصار القديم الا الأقلين منهم كانوا أنصار الطمأنينة للحياة والسكون للماضى والاستسلام للحاضر وعدم الميل لجديد • بل أن كثيرين من الأقلية لم يناصروا الشيخ محمد عبده ومدرسته الا لغرض في نفوسهم • فقد كانوا يرون أن هذه المدرسة تتصل بالسلطة الحاكمة وتقدر بذلك على افادتهم فائدة مادية • لهذا ما لبث الشيخ محمد عبده أن وافاه الأجل المحتوم حتى ابتداء عقد مدرسته يفرط ، وان بقيت آثاره في نفوس جماعة الذين لم ينقطعوا للعلم الدينى • وبهذه الآثار استطاعوا أن يجعلوا الأمة تسيع من مبادئ الحديثة ما لم يكن في وسعها أن تسيعه من قبل •

لكن هذه الهوادة في قبول الأفكار لم تجيء إلا بعد زمن طويل وفي ظروف غير التي كان فيها قاسم • لم تجيء إلا بعد قيام نهضة غير مستمدة من الدين كان قاسم من السابقين إليها والذين لم يتمتعوا بثمارها •

وفي هذا الوسط الاجتماعي ظهرت أفكار قاسم فاضطرت أن تأخذ صبغته إلى حد كبير لولا نزعات كانت ترجع إلى ما أفاده الكاتب من فرنسا وإلى حاله النفسية الخاصة • وقويت هذه النزعات عنده في الكتب التي وضع آخرها - المرأة الجديدة والكلمات • ولو أنه عاش بعد ذلك طويلا لزادت قوة ولكانت من أقوى العوامل في مساعدة الروح الشابة الحاضرة ، روح التجديد •

ج - الوسط الفرنسي :

قضى قاسم أمين سنين دراسته العالية في فرنسا • وككل شباب يتاح له المقام في إحدى ممالك أوروبا زمنا غير قصير تأثر قاسم بما رأى في تلك البلاد ، وتأثر أكثر من سواه ، وكان تأثره بنوع خاص من جهتي الاحساس والتفكير ، وترك ذلك في حياته الخاصة وفي مظاهره العامة أثرا غير قليل • لذلك يجدر بنا أن نستظهر قدر الطاقة نوع الوسط ومميزاته حتى يتسنى لنا تتبع قاسم ككاتب ومفكر •

ولسنا ندعي امكان الاحاطة بمميزات الوسط الفرنسي في هذه الكلمة القصيرة • فان مثل هذا الدرس تحوجه مؤلفات طويلة • لكننا انما نريد أن نضع أمام النظر الجهات الخاصة منه التي تأخذ بذهن الشاب الشرقي الذي يقصد إلى تلك البلاد ليفيد منها العلم والنظر • وربما وصلنا إلى ما يساعدنا على تحليل أسلوب قاسم وكتبه وأفكاره وعقيدته •

تقابل النظر في فرنسا طبيعة جديدة جميلة لم يعرفها في مصر ولم يتذوقها إلا من طريق الخيال • تقابله جبال وغابات وغياض وحدائق يأخذ جمالها بالنظر ويسترعى اللب والفؤاد • وتقابله كذلك مبان فخمة بديعة النظام فيها غير المعنى التاريخي الذي ألفناه في مبانينا التي وجدت على التاريخ قبل أن يوجد التاريخ معنى الانساق والتوازن • وفي كثير من هذه المباني يجد التماثيل والنقوش والصور وكلها مثل الجمال على مختلف أنواعه • فلا يلبث أن يرى ذلك كله حتى تأخذه نشوة تدعوه إلى تكرار النظر إليه والاستزادة منه • فهو يذهب المرة تلو المرة إلى قصر اللوفر الفخيم يشاهد فيه أبدع الصور وأدق التماثيل مما خلف اليونان والرومان والهولنديون والاطاليون وأهل الأمم ذات المدنية والحضارة • ويتردد إلى غاب بولونيا يشاهد فيه أبهى مناظر الطبيعة من بحيرات وأشجار ، وارق مظاهر المدنية من جياذ مطهمة وسيارات بديعة

تحمل الحى زاد نفسه جمالا بدقة ذوقه فى نوع لباسه وكيفية
إتسامه وما يشف عن رقة طبعه • ويعود بعد ذلك مارا بقصور
الاليزيه وبميدان الكونكورد وبعدائق التويلرى وبما فى ذلك من
مختلف صور الجمال الصامت والناطق • ثم هو يخرج أيام الأحاد
الى الضواحي فتقبله الجبال الصغيرة والأنهار والغياض • فإذا تغلغل
فى أحشاء فرنسا الى الأوفرن سحرته عن نفسه ببديع جمالها تلك
الجبال المنيعه الرفيعة تجلج هاماتها الثلوج وتغطى سفوحها الأشجار
وتتساب فى أخاديدها المياه دائمة الخرير ويتوجها كل مساء مغرب
الشمس الباهر •

وهو فى حل ما دام فى فرنسا من أن يرى جديدا من هذه المناظر
الطبيعية والمدنية متى شاء • أمامه غير قصر اللوفر متاحف لايحصيها
العد وغير حدائق التويلرى وغاب بولونيا حدائق وغابات لا تنتهى
وغير الأوفرن جهات الرفييرا والتيروول وسواهما • وكل هذه
المتاحف والحدائق والغابات والنواحي تحوى من الجمال ما يدعو
إليه ويوجب فيه • كلها الشعر الناطق بأى الحكمة والبهاء والرواء •

تسترعى هذه الأشياء كلها نظر النازل فرنسا وتفتح أمامه عالما
جديدا لم يجل قط من قبل فى تصوره وتدعوه بذلك للاستزادة
ما استطاع مما حولها • فيقصد مسارح التمثيل يرى فيها أثر الفكر
الانسانى مجسما متنوعا كما يرى التفنن فى حسن الذوق حين

يجل بصره فى صالات التياترو المزدهمة أثناء هذات ما بين
الفصول بالمتفرجين • ويذهب الى ملاعب الموسيقى فتأخذ بسمعه
نغمات جديدة مملوءة بالحياة والقوة مختلفة جد الاختلاف عن
نغمات موسيقانا المستسلمة الشاكية • قد لا تطربه هذه النغمات
بإحدى الأمر ، ولكنه يرى فيها معنى خاصا غير الذى ألفه فى الموسيقى
الشرقية • يراها أغلب الأحيان موسيقى عصية يهزها الفرح أو
يخرجها عن طوقها الحزن • فإذا انبعث عنها الوجد والشكوى لم
تدم على ذلك الا ريثما تصور المدنف الواله وسط الحركة الشديدة ؛
حركة المدينة الحاضرة •

ثم يرى فيما حول ذلك كله المتاجر والمصانع كلها النشاط
والحركة ، ويحس فى كل مخلوق مما على أرض هاته البلاد أنه
يحب الحياة حبا حقيقيا ويرى فيها مواضع للفائدة واللذة يمكنه
الوصول اليها متى أراد • ولن يكون ذلك بالاستسلام ولا بالطمأنينة
للحاضر ولكن بالجد والعمل • فكل يجد ويعمل يريد أن يستخر
كل ما على الطبيعة لفائدته ولذته • هذه هى النواحي الظاهرة التى
تأخذ بنظر النازل فرنسا •

فإذا هو تعمق فى تعرف شئون الفرنسيين الى أكثر من النظر
الظاهر؛ اذا هو بحث أنواع حياتهم ومبلغ احساسهم وأوجه التفكير
عندهم مستعينا فى تفسير ذلك كله بما رأى تبدت له صور

واحساسات وأفكار وأنظمة أكثر أخذا باللب وأوقع في النفس مما رأى قبل ذلك • تبدت الأسرة وليست هي مجرد ذلك القطيع الانسانى لا يجمعه أكثر من الروابط الطبيعية روابط الأبوة والبنوة تحت امرة الأب ، ولكنها شركة انسانية أساسها تبادل الاحساس الخالص والزيادة فى سعادة الفرد من طريق الاجتماع وخلق الآبناء والقيام عليهم ليكونوا فى مستقبلهم رجالا أحرارا أو سيدات يعرفن معنى الحرية ويقدرسن الواجب •

وتبدت له احساسات دقيقة رقيقة قوية عنها صدرت تلك الموسيقى العvisية الحرة وهاته النقوش والصور البديعة المملوءة حياة ونظاما ومعنى ، وتلك الروايات المملوءة بالشعر والفكر ؛ وعنهما تصدر كل جلائل الأعمال التى يرى فى تلك البلاد •

وبدا له الى جانب هذه الاحساسات وآخذا بيدها فكر دقيق مصقول هو مصدر فلسفة طويلة عريضة لم تترك نقطة من نقط الأخلاق أو العقائد أو الأديان الا حققتها وحللتها ووصلت فيها الى مختلف النتائج •

وليست هذه الفلسفة فلسفة استسلام وتواكل • بل هى الأخرى فلسفة قوية مبناها احترام الجنس الانسانى وكل ما ينتج ، لاتعرف تقديس الماضى ولا الخضوع له • بل هى تأخذ كل ذرة من ذراته فتحللها وتبحث عن مصدرها وأصلها وطرق نموها والنتائج التى

أبنت عليها ثم تبحث عن قيمتها وحقتها من البقاء فان لم ترها متفقة مع العقل أو رأتها عقيمة النتيجة طرحتها جانبا •

لذلك لم تذر الاعتقادات دون النقد المر ولم تترك الديانات ولا أساسها الا بعد اذ هدمت منها جانبا غير قليل • وقد سارت فى هذا الطريق أزمانا طويلة حتى كانت مسألة عدم التدين فى العصر الذى نزل فيه قاسم أرض فرنسا مسألة مفروغ منها بعد ما استنفدت من الكتب الفلسفية ومن كتب الشعر والأدب آلاف الصحائف •

وكان من أثر هذه الفلسفة اللادينية أن بثت فى الشعور العام فكرة جديدة عن الأخلاق وعن المعاملات وعن طرائق النظر عامة • فصارت فرنسا المفكرة تعمل لبناء عمرانها الاجتماعى على أساس من العقل والعلم والبحث ؛ وصارت فرنسا المتصلة بهذه الأولى - أقصد بذلك شعب المدن - بعيدة عن أن تدين بالأفكار القديمة أفكار الزهد والتقشف • بل آمنت بالأفكار الاقتصادية المنادية بوجوب السعادة فى هذه الحياة الدنيا •

ولقد كانت هذه الطوائف جميعا قائمة بهذه المبادئ بنفس الوحدة والقوة التى قام بها أهل العصور السالفة النصره الدين • فكأن هذه الأفكار العلمية البحتة كانت ترمى لتأخذ صبغة ايمان جديد يحل محل الايمان القديم ويطالب أنصاره بتعزيزه بمبلغ ما عزز الدينون ايمانهم الأول •

لكنما كانت هذه المبادئ الجديدة لا تزال في تشعبها لم تتركز ولم تصل الى حد الايمان فعلا • كان كل صاحب رأى يجاهد لاعلاء أمره جهاد صاحب الدعوة • لكن أصحاب الدعوات المختلفة كانوا جميعا من التحمس بحيث لم يصل أحد منهم ليلفج بدعوته من النفوس ما يجعلها دينا جديدا يحل محل الدين الذى هدمه فولتير ورينان وتين ومن عاصر كلا منهم من الفلاسفة •

هذه الحركة الفكرية القوية فى ذلك الشعب الحى وسط تلك الطبيعة الناطقة المتحركة ، وهذه المظاهر الفنية من نقوش وتمائيل وروايات وموسيقى ، وتلك العواطف الشديدة التى تحرك النفوس - ذلك كله هو أول ما يأخذ بنظر الأجنبى المقيم فى فرنسا - وذلك كله هو أساس مدينة الغرب •

فى هذا الوسط أقام قاسم أمين زمنا من حياته وتأثر به أكبر الأثر • تأثر به الى حد تدثرت معه صفات وملكات مما يستلزم الوسط المصرى المستسلم الساكن • وظهر هذا الأثر فى حالته النفسية وفى أخلاقه وفى كتبه وعقائده الى حد كبير •

الرجل

لم تتح لى معرفة قاسم أمين على قرب عهدنا به • وكل ما كنت أعرفه عنه مظهره فى الحياة ككاتب وكقاض • على أن هذه المظاهر

كفت لتحل الرجل من نفسى مكانا جمع بين الاجلال والمحبة • فلما وافته منيته فى سنة ١٩٠٨ شيعته الى مقر رفاة وفى القلب لوعة حزن وأسى وحسرة •

لكن انعام النظر فى صورة الرجل والتدقيق فى ما كتب وفى ما ذكره عنه من عرفوه ومقارنة ذلك كله بعضه ببعض تحيى فى النفس منه صورة مضبوطة تجعله أمام المخيلة حيا جالسا فى هدأته العvisية الحزينة تؤثر فيه الحوادث جميعها دقيقتها وجليلها من جهات العواطف والاحساس أولا ومن جهة الفكر المنطقى البحث بعد ذلك وتستدعى منه ملاحظات عvisية هى الأخرى ولكنها بعيدة عن ذلك التهيج الذى يلزم فى أحيان كثيرة جماعة الكتاب العواطفيين • فاذا هو توترت أعصابه أمام تكرار المشاهد والمناظر وأمام جمود المحيطين به دون التأثر بما يراه هو ويلاحظه ترك الناس الى وحدته آملا أن يجد فيها من الطمأنينة والسكون ما يرد اليه هدأته ، وكذلك تبقى هاته الحال العvisية تتناوبه حتى تدفعه ليكتب أجمل ما فى كتابيه « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » وليحفظ فى أوراقه الخاصة بعض كلمات بديةة أظهرتها الظروف بعد وفاته •

وكانت هذه الحال العvisية المحتوية نفسها مرتبة حياته الخاصة كما كانت مصدر أعماله جميعا • كانت منبع سعادته ولذته وأمله

وسبب آلامه ومتابعه ومصدر كتاباته وأفكاره وأساس أحكامه وقضائه • فكأنما كانت أعصابه أوتارا تتأثر بملامسة الحوادث تأثرا سريعا ينقل الى نفسه الاحساسات المختلفة • وينقل الى الخارج مظاهر هذه الاحساسات على النظام الذى تعطيها اياه قوة ملاحظته الحادة الدقيقة •

عاش قاسم أمين حياة لم يتخللها حادث غير عادى يجعل لها صبغة غير مألوفة • دخل المدارس فى مصر ثم سافر مع ارسالية الحكومة الى فرنسا فلما عاد منها اشتغل فى وظائف قضائية انتهت به الى منصب مستشار فى محكمة الاستئناف الأهلية • وبقي فى هذا المنصب حتى آخر حياته •

لكنه مع ذلك لم يكن الشخص العادى فى أى طور من هذه الأطوار • فلقد امتاز فى فرنسا بحدة فى الذهن لفتت اليه أساتذته • وانى لأذكر الساعة يوما كنت فيه مع الأستاذ « لرنود » أحد أساتذة كلية الحقوق فى باريس ومال بنا الحديث الى المصريين فذكر لى قاسم بشئ من الاعجاب ملأنى كمصرى غبطة ، وكمعجب بقاسم سرورا أن شاركنى فى احساسى عالم كبير • كما أنه امتاز فى القضاء بحسن ذوق غير متعارف وبدقة فى التقدير أكسبته ثقة زملائه وعطفهم • كذلك لم يشاركه فى حياة مصر العامة مشارك • لم يقم معه قائم بمبدأ جديد بتلك الثقة بالنفس وهذه القوة فى

العقيدة • وهذا الامتياز فى درجات الحياة التى مر بها راجع الى حالته النفسية • الى تلك الحال العصبية الحساسة •

فلم تكن تقابله مسألة مهما تكن من البساطة الا تأثر بها وارتسمت فى مخيلته واستدعت منه النظر والفكر واهتزت نفسه لهما • فتلك امرأة محجوبة تسير فى شارع الدواوين مبرقة كما يسير آلاف غيرها • ولكن يظهر من هيئتها أنها من عائلة كبيرة • ففى عيون قاسم الواسعة تحدق بها ، لماذا ؟ لأن احساساته تأثرت ونفسه تغيرت أن رآها « تمشى خطوات مرتبة يهتز معها جسمها مأجبا كما تفعل الراقصة على المسرح ، وتخفص جفونها بحركة بطيئة وترفعها كذلك وترسل الى المارة نظرات دعابة ورخاوة واستسلام يجعل مجموعها تحريضا مهيجا لحواسهم » • هذا هو أثر حى أمامه من آثار الحجاب الذى يحار به • وهذه هى الصورة التى يدعى خصومه أنها مثال ذلك النظام الذى وضعته العادة محافظة على العفة • أفلا يرى الناس هاته المرأة أمامهم تكذب كل ما يزعمون ؟

وتلك بعض الحوادث فى عمل القضاة لا تتفق مع وجدانه وضميره • حوادث يأتيها بعض زملائه لسبب قد يعرفه وقد لا يعرفه • قضايا يحكمون فيها أحكاما لا تتفق مع المألوف • فإذا كان لا يستطيع أن يعين هذه القضايا فانه يعجز عن أن يسكت نفسه دون أن تصيح :

« أعرف قضاة حكموا بالظلم ليشتهروا بين الناس بالعدل » .

ويتوفى صاحب اللواء وتمر جنازته في الشوارع ويشهدها قاسم ويرى تلك الجموع الحاشدة التي تسير فيها جامعة مختلف طبقات الأمة وأهالى بلادها المختلفة مظهرة اتحادا في الشعور فتتهز أعصابه وتمتلئ بالآمل نفسه المحزونة ويرى أن « الاحساس الجديد ، هذا المولود الحديث الذى خرج من أحشاء الأمة ، من دمها وأعصابها ، هو الأمل الذى يتسم فى وجوهنا البائسة . هو الشعاع الذى يرسل حرارته الى قلوبنا الجامدة الباردة . هو المستقبل » .

وكانت هذه الهزات العصبية تترك فى نفسه صورا مضبوطة من الحوادث أو المظاهر التي انتجتها . فالمرأة التي رأى فى شارع الدواوين « طويلة القامة ممثلة الجسم عمرها بين العشرين والثلاثين فى وسطها حزام جلد مشدود على خصر رفيع . . . وعلى وجهها قطعة من الموسلين الرقيق أقل عرضا من الوجه تحجب فاهها وذقنها حجابا لطيفا شفافا وتترك الحواجب والجبهة والشعر والرأس الى منتصف الشعر مكشوفة » .

وقد رأى مدة وجوده فى فرنسا طفلا عمره عشر سنين كان يتفرج بجانبه على فرقة من العساكر الفرنسية وهى عائدة من حرب التونكين . « فلما مر أمامه حامل العلم وقف هذا الغلام باحترام ورفع قبعته وحيا العلم وصار يتابعه بنظره حتى غاب عنه » .

أمام هذه الصورة المضبوطة من جاره وحركاته أحس قاسم « أن الوطن تجسم لهذا الطفل فى العلم الذى مر أمامه وأثار فيه جميع الاحساسات التي بعثها فيه ما تربى عليه من حبه حتى خاله رجلا كاملا » وصور غير هاتين كثيره يمر بها من يقرأ ما كتب قاسم . صور حية ناطقة بما تحوى منبهة باهتزاز روح واضعها وتأثره .

وكان من أثر هذه الحال العصبية الخاصة عنده أن كان على الرغم من دقة ملاحظته ومثانة تفكيره رجل عواطف يحس بالحياة أولا ويحللها ثانيا . لم تكن الحياة وما فيها من مظاهر وموجودات موضوعا خارجا عنه فهو يحلله وينظر فيه بالهدأة التي يشرح بها الطبيب جثة أمامه يريد أن يعرف ما تحوى ، ولكنها كانت روضة يريد أن يسعد بما فيها ويود لو يشاركه فى هذه السعادة أمثاله . لذلك تراه دائم التغنى بمعانى الحب وآثار الجمال داعيا الناس بشوق وشدة يريد منهم أن يسيروا معه ويشاركوه فى المتاع بذلك الجمال وأن يسعدوا أنفسهم بالحب ليكون له بسعادتهم سعادة مضاعفة . ولذلك تراه شديد المقت لكل ما يحول دوز هذا المتاع من ظلم أو جهل أو فساد . وهو يمتقه بنفس تلك الهزة العصبية التي توجهه فى جميع أفكاره واحساساته . هو لا يريد لبنى آدم ممن حوله أن يعيشوا عيش النبات يشبون ويدبلون ويفنون من غير أن يكون لهم فى ذلك من حظ . ولكنه يريد منهم ولهم عيشا

إنسانيا ممتلئا ، عيشا تهزه العواطف وتملأه الأعمال ، عيشا يسمح لهم بورود مناهل السعادة ويجعل لمجموعهم وللأفراد الممتازين منهم محلا للخلود الشريف .

وظاهر من ذلك أن قاسم لم يكن من مذهب الساكخين من الحياة وأنه كان يرى لها قيمة كبرى ويظنها مجالا للسعادة والنعيم . هو لم يكن يقول لنفسه : مادام الموت هو الغاية العظمى والنتيجة الأخيرة لهذا الوجود المملوء بالمتاعب والآلام فخير الطرق إليه أسرعها وأقلها متاعب وآلاما . ولكنه كان ينظر الى الموت بعين الخائف الوجل . ويخيل الى أنه كان يتمنى لو يصدق الظن ويحشر مع أهل الجنة وينجو بذلك من الفناء المخوف الأسود الذى يقول بعضهم أنه ينتظرنا ساعة الموت . ولقد عبر هو نفسه عن هذا الاحساس بكلمة بالغة فى الدقة والابداع قال : « أتعس البرية انسان ضاع ايمانه يدس الموت بسمه فى حياته فيفسد عليها لذتها وينغص عليه شهوتها » تلك كلمة تعبر عن أثر الخوف من موت يقطع كل أمل فى البقاء . تعبر عن احساس نفس تحب الحياة وترجو البقاء فيها وترى أن فيما يحيطنا من أنواع الجمال وفيما يختلج صدورنا من مختلف العواطف وفى ذلك العالم المملوء بما يبهى العين ويأخذ بالقلب ويستدعى الملاحظة ويشحذ الفكر وينبه الاحساس وبالجملة ما يبعث الى النفس السعادة والى الذهن النشاط — ترى فى ذلك ما يجعل الحياة حقيقة لذيدة تستحق أن يتمسك بها وأن يسعى لها .

وكل ما كان يؤلم نفس قاسم تلك العقبات التى يجد فى سبيل الوصول الى هذه الحقيقة اللذيذة والاستمتاع بها كلها . ويهزه ذلك الألم فيبعثه الى النظر والسعى فى ازالة هذه العقبات التعسة . ولكن ما فى طوقه من ذلك قليل .

فاذا هو شعر بضغفه أمام المجموع وأمام العادة وبعجزه أمام طبيعة الحياة عاوده الغضب حتى يكاد يخرج عن طوقه . ثم يستطيع لكثير ما درب نفسه أن يسكن ثائرة نفسه أو على الأقل أن يخفيها عن سواه . وانك لتشعر فى كثير من كلماته التى خلف بعد وفاته بأثر هذه الثورة العنيفة المغضبة . اسمعه مثلا حين يقول :

« اذا رأيت الرأى العام يرمى أحد رجال الحكومة بالخيانة ساخطا عليه شديد الرغبة فى سقوطه فاعلم أنه غالبا رجل طاهر وعامل نافع — واذا رأيت الرأى العام معاديا لكاتب وأعد له خصوما يتسابقون الى نقض أفكاره وهدم مذهبه وعلى الخصوص اذا رأيتهم ذهبوا فى مطاعنهم الى السب والقذف فتحقق أنه طعن الباطل طعنة مميتة ونصر عليه الحق — ما هو الرأى العام ؟ أليس هو فى كثير من الأحوال هذا الجمهور الأبله عدو التغيير — خادم الباطل ومعين الظلم » فمن هو هذا الكاتب الذى عاداه الرأى العام ؟ أليس هو قاسم نفسه ! ولم كل هذا الغضب ؟ لأن الحالة العنيفة لا تسمح لنفس صاحبها أن لا يتأثر بالحوادث . وكل ما استطاع قاسم أن

يكتسب هذا الغضب في نفسه فلا يظهر عليه سواء • بل انك تراه يعيد الكرة في جهاده ، وكتابته هي هي لم تخرجها ثورة نفسه عن حدها الأول •

وكذلك عاش قاسم مناديا للسعادة طالبا ايها يحدوه الأمل في الوصول اليها من طريق عواطفه مرة ويتوقعها أخرى من طريق الصداقة والجماعة • ولكنه طول حياته « يجد السامة غالبا في الاجتماعات ولا يشعر بها في الوحدة • يشق الى الناس فاذا اختلط بهم رأى وسمع ما يزهده فيهم فيفر منهم ويرجع ملتجئا الى نفسه فيجد فيها الراحة والسكون » • وبكلمة أخرى بقي دائما وكل سعادته في الحياة منتزعة من أحلامه بالسعادة •

ومات وهو لا يزال في دور جهاده • مات تاركا من بعده أثرا خالدا هو عمله الذي كان لذته الأخيرة الباقية بعد اذ خذلته واحدة بعد أخرى كل ما سواه من اللذات •

ذكرى قاسم أمين (١)

لعل ذكرى الكتاب والمفكرين أجدر من كل ذكرى سواها بالحياة والخلود • ذلك أن الكتاب هم كلمة الحق • وكلمة الحق هي روح الحياة الخالدة ، بينا عدوان القوة انما هو رسول الموت المبيد • ذلك شعور تمتلئ به كل نفس ويقره كل انسان • ولذلك ينزوي رجال السيف في أركان التاريخ أشبه الأشياء بالآشباح المخيفة وكل أثرهم أنهم كانوا في وجود الانسانية غمامة سوداء انهمرت على سطح الأرض دما وموتا • على حين ترى رجال القلم من شعراء وكتاب وفلاسفة ومفكرين هم الشمس الساطع التي تضيء طريق الانسانية في سيرها الى الكمال •

ما نابليون الى جانب هوجو ؟ وما مولتكى الى جانب جيتي ؟ وما ولنجتون الى جانب شكسبير ؟ ما أولئك الا الأجساد البائدة الى جانب الأرواح الخالدة • أو لم يقل نابليون ان فخره بالقانون المدني يعدل أضعافا مضاعفة فخره بينا وأوسترلتر ؟ وهلا ترى كل حرب تنتهي تاركة وراءها الخراب والويل ملقية عبء الاصلاح والتنظيم على عاتق العلماء والكتاب والمفكرين ؟

(١) ملخص خطبة أُلقيت في احتفال بهذه الذكرى أقيمت في شهر ابريل سنة ١٩٢٠ بدار الجامعة المصرية •

فلاحتفال بذكرى رجال الفكر والقلم هو أجمل عمل انساني يدل على الاعتراف بالجميل لرجال نسوا مصلحتهم الفردية حرصا على مصلحة الجماعة •

وقاسم أمين كان من رجال الفكر والقلم الذين نصروا كلمة الحق • فمن حقه أن تحيا ذكراه وأن يعرف الناس جميعا أفكاره ونزعاته •

نشأ قاسم أمين في وقت كانت البلاد فيه تحت أثر الهمود الذي أصابها عقب الحركات العنيفة التي كانت ميدانا لها أيام الخديو اسماعيل وفي أوائل حكم الخديو توفيق • وفي هذا الوقت كان هم الجميع أن يسكنوا الى الطمأنينة وأن يخلدوا الى الراحة • لذلك كانت تحل المصائب بالبلاد فتقفل المدارس ويضيق نطاق التفكير وتتخذ مقاليد الحكم من أيدي الأهلين ويستقبل الناس ذلك بالاستسلام والسكون • وكانوا يظنون أن هذه الحالة لا بد ستتهي بطبيعة الظروف كما انتهت حالات غيرها من قبلها • وما كانوا يدور بخلدهم أن الأفكار الاستعمارية كانت تتطور لتأخذ شكلا جديدا هو الاستعمار على أساس تمدين الأمم التي يعتبرها المستعمرون في نظرهم قليلة المدنية •

وظلت الحال كذلك وقاسم يشتغل في ميادين العمل الحكومي ويدل على مواهب نادرة ولكن من غير أن يظهر في ميدان الحياة العامة حتى ظهر كتاب الدوق داركور في سنة ١٨٩٣ عن المصريين • ويرمى هذا الكتاب الى وصف المصريين بالتأخر في مدنيته وفي تربيتهم وفي تفكيرهم وينعى عليهم حبسهم النساء وتركهم اياهن بعيدات عن العلم ويضع أساسا لذلك كله العقيدة الاسلامية التي يدينون بها • ويرى بالتالى ضرورة تمدين نصف المتوحشين هؤلاء على أساس آخر • هنالك أخذت قاسم النخوة وهزته وطنيته أن يدافع عن قومه • وليست حرب الأقلام بأقل مرارة وقسوة من حرب السيوف • فبأقلام كتابها تنصر الأمم مدنياتها • وبأقلامهم ترفع احترام كل فرد منهم لذاته • وبأقلامهم تكسب أنصارا يقفون الى جانبها عند الحاجة • وآثار الأقلام هي الخالدة وآثار السيوف الدمار والبوار • فوضع قاسم في سنة ١٨٩٤ كتابه « المصريون » فند به مزاعم الدوق داركور وأظهر فيه فضائل مواطنيه من غير أن ينسى الاعتراف ببعض عيوبهم التي أرجعها لا الى عقيدتهم كما يزعم داركور وجماعة من الكتاب معه ولكن الى توالى الحكومات الفاسدة عليهم • ونشر هذا الكتاب بالفرنسية ليطالع عليه من يقرأ كتاب داركور فيجد فيه الفضائل المصرية من ذكاء وكرم وقوة وبأس في الحروب مؤيدة بالوقائع والأسماء وعندئذ ينقلب الآثر السىء الذى تركه كتاب الكاتب الفرنسى الى أثر حسن برد الكاتب المصرى المجيد •

كان قاسم رجلا عصيبا حساسا سريع التأثير شديده قوى العاطفة ثابتها لا يسهل أن تتركه اذا ملكته • لذلك لم يطو أوراقه بعد أن تشر لكذا الكتاب ولم يعتبر نفسه قد انتهى من القيام بالواجب عليه • بل شعر من يومئذ أن واجبه تضاعف • صحيح أن دوق داركور غالى فى مطاعنه على المصريين • وصحيح أنه أخطأ تمام الخطأ فى رد سبب التأخر الى عقيدتهم الدينية • وصحيح أنه اختلق عليهم معاييب هم براء منها • لكن هناك فى بعض جهات الحياة الاجتماعية نقصا • فالحياة المصرية يومئذ لم تكن الحياة الانسانية الكاملة فى نظر قاسم • فما هو موضع الضعف الذى يتغذى منه ذلك النقص؟ موضع الضعف هو لا شك فقد الحرية • فقد الحرية عند الرجل والمرأة • والحرية كما قال قاسم هى قاعدة ترقى النوع الانسانى ومعراجه الى السعادة • لكن فقد الحرية عند المرأة كان أشد خطرا وأفعل أثرا • فلنجاهد أولا اذن لتحرير المرأة •

هذه هى الفكرة التى دعت قاسم لتأليف كتابه تحرير المرأة • ويظهر أنه تردد كثيرا قبل أن ينشره • تردد مخافة الرأى العام الذى كان محافظا متأخرا يومئذ • وكم ثبط هذا التردد من عزائم وكم قتل من أفكار عند شبابنا فى الماضى • ولا يزال أثره قويا اليوم • بل كم كان قاسم يكون لولاه أكثر انتاجا وأغزر مادة • وظل فى ترده وقتا ليس بالقصير • لكن الفكرة انقلبت عنده من

مجرد رأى يقال الى عقيدة ثابتة وايمان قوى • والرجل المؤمن لا يقف دون الدفاع عن معتقده وان عظمت الحوائل • وهذه الكلمة التى نشرها فى أول كتابه تدل على مبلغ ايمانه بفكرته ، قال : « هذه الحقيقة التى أشهرها اليوم شغلت فكرى مدة طويلة كنت فى خلالها أقلبها وأمتحنها وأحللها حتى اذا تجردت عن كل ما كان يختلط بها من الخطأ استولت على مكان عظيم من موضع الفكر منى وصارت تشغلنى بورودها وتنبهنى الى مزاياها وتذكرنى بالحاجة اليها ، فرأيت أن لا مناص من ابرازها من مكان الفكر الى فضاء الدعوة والذكر » • وعلى أثر ذلك نشر كتابه داعيا فيه الى تحرير المرأة من رق الجهل ومن رق الحجاب •

وقد تطورت فكرة قاسم أمين نوعا من الفترة التى مرت بين نشره كتابه الأول ردا على الدوق داركور وكتابته الثانى عن تحرير المرأة • وهذا التطور طبعى لأن موقفه الأول كان غير موقفه الثانى • موقفه الأول كان موقف دفاع عن قومه ، وموقفه الثانى كان موقف ارشاد لقومه • لذلك تراه وقد كان فى الحالين فى صف الأحرار لا فى صف المحافظين أكثر مناصرة فى كتابه الثانى لمذهب الأحرار وأكثر اعلاء لشأن الحرية •

تردد قاسم طويلا ثم دفعه ايمانه فأظهر كتابه • وهنا ظهر هذا الرأى العام المحافظ الجامد فى محافظته وانبرى للرد عليه كثيرون

لم يقرأوا الكتاب • انبروا وهم لا يقلون في الحقيقة اعتقاداً بالنقص من قاسم أمين • لكنهم كانوا « يخشون الخروج من وكرهم لتصيد الخيرات الغامضة المبعثرة في ظلام المستقبل » • ليكن هذا الوكر فاسد الهواء ، ليكن مملوئاً بالمكروبات القتالة • ليكن بحيث تنهمر عليهم من جوانبه الأفاعى والعقارب • لكنهم يخشون الخروج لأنهم يخافون أن يجدوا في الخارج سباعاً وفيلة وهم أجبن وأضعف من أن يتصوروا مقابلة الخطر • ولو لم يكن هناك خطر •

تعرض هؤلاء للرد على قاسم في تحرير المرأة فأظهر كتابه المرأة الجديدة في سنة ١٩٠٠ رداً عليهم وتأييداً لرأيه • وبعد هذا الكتاب لم تظهر له مؤلفات حتى ظهرت في عالم الطبع كلماته التي نشرت بعد وفاته •

هذه الكتب الأربعة وبعض الخطب هي كل ما تركه قاسم للجمهور • ومما يوجب أكبر الأسف أن تتوء نفس قوية عبقرية كنفس قاسم بحمل الرأي المحافظ وأن يختزل الموت حياته فلا تظهر من آثارها الكتابية والفكرية إلا هذه الصحائف المعدودة •

في هذه الكتب الأربعة - إلى جانب ما فيها من الأفكار - صور كثيرة للمشاهد وللحوادث العامة والخاصة • وهذه الصور مرسومة

بدقة مدهشة حتى يكاد الإنسان يلمسها بيده في كثير من الأحيان • وأنت تراها مرصودة بعضها تلو بعض كلما أريد التدليل على رأى من الآراء أو نظرية من النظريات • ذلك بأن قاسم كان أميل إلى الاستقراء منه إلى الاستنتاج • كانت تأخذ بنظره الجزئيات فيبحث عن نظائرها ويجاهد ليكون لنفسه رأياً كلياً من مجموع هذه الجزئيات • وكان لذلك يحب دائماً أن يحلل هذه الجزئيات وأن يقف على دقائقها حتى لا تدعوه الملاحظة السطحية إلى الخطأ • على أنه لم يكن ميالاً إلى الأخذ بهذه النتائج التي يرتبها على الجزئيات وإلى ترتيبها والاستنتاج منها هي الأخرى والاستمرار في ذلك لاقامة بناء مذهب فلسفى عام شأن الأشخاص الذى تتغلت عندهم موهبة الفكر المجرد على المواهب الأخرى ، مواهب الاحساس والعاطفة والتشكك • بل كان يعتقد « أن عقل الانسان المحدود لا يسع غير المحدود وأن علمه القليل لا يصل إلى ادراك المجهول الذى لانهاية له • ولذلك ترى هذا الانسان متى ترك دائرة معلوماته الحسية دخل فى الظلام وسار كالأعمى يتخبط يمينا وشمالا لا فرق فى ذلك بين الغبى الجاهل والذكى العالم » • هذه هي كلمة قاسم وهي تدل على أنه لم يكن من عشاق النظريات البحتة كما كان يرى « أن المطلق ليس له وجود ذاتى • وأن الذوات الجميلة التي نجحها وتقدسها كالخير والحق والعدل لا يمكن أن توجد فى الخارج إلا مختلطة بنقيضاتها » •

على أن ذلك الاقتصار على الاستقراء فى التفكير لم يكن ليعده عن النظر فى الوجود العام أو ليصده عن الامعان فى بدائع الكون • بل انك لتجد له فى هذا الباب كلمات أدق ما يكون • كلمات صادرة من أعماق قلبه يستجمع لاصدارها الى جانب فكره الاستقرايى عاطفته القوية واحساسه الشديد • وهل أبدع من هذه الكلمة فى التعبير عن دخيلة نفس صاحبها :

« لا بد أن تكون الغاية النهائية للتربية الأدبية هى العفو عن الخطيئة ، العفو عن أكبر خطيئة ، العفو عن كل خطيئة •

« هل المخطئ مسئول أو غير مسئول؟ وما هى درجة مسئوليته؟ مسألة عظيمة يجب على من يريد الحكم على غيره أن يحلها • لكن حلها يكاد يكون محالا • اذ لا يستطيع أحد أن يلم بجميع العوامل التى تتركب منها الذات الانسانية بوجهيها الأدبى والمادى • والقليل الذى يعلمه من ذلك يبين أن سلطة الارادة على النفس محدودة وخاضعة لمؤثرات كثيرة شديدة تتنازعها وتقارعها وتضعف قوتها على نسبة مجهولة ومقدار لا يصل الى تقديره عقلنا • وكل تاريخ الانسان فى الماضى يدل على أنه ان لم يكن متولدا عن الحيوان المقترس مباشرة فهو مشابه له فى شرهه وأطماعه وشهواته • خلق عليل النفس كما هو مريض الجسم • خلق على أن تكون صحته الجسمية والعقلية مصادفة سعيدة وعارضا موقتا •

« فالخطيئة هى الشيء المعتاد الذى لا محل للاستغراب منه • هى الحال الطبيعية الملازمة لغريزة الانسان • هى الميراث الذى تركه آدم وحواء لأولادهما التعساء من يوم أن اقتربا من الشجرة المحرمة وذاقا ثمرتها التى يخيّل الى أنها كانت ألد من كل ما أبيح لهما • من ذلك اليوم البعيد لوثت الخطيئة طبيعتها وانتقلت منهما الى ذريتهما جيلا بعد جيل • ذلك هو الحمل الثقيل الذى تن تحته أرواحنا المتهبة شوقا الى الفضيلة العاجزة عن الحصول على السير منها الا بمقاساة أصعب المجهودات • حتى هذا النزر القليل لا سبيل الى بلوغه الا بتمرين طويل يتخلله حتما سقوط متكرر فى الخطيئة يكون منه الدرس المفيد لاتقائه فى المستقبل •

« وأخيرا فان العفو هو الوسيلة الوحيدة التى ربما تنفع لاصلاح المذنب • فقلما توجد طبيعة مهما كانت يابسة لا يمكن أن تلين اذا هى عولجت » • • هذه الكلمة ومثيلاتها مما يوجد فى كتب قاسم يدل على أنه كان يقف بتفكيراته عند الملاحظة والتجربة والاستقراء أكثر مما تدفعه الى التفاؤل • صاحبها أكثر ميلا للوحدة والانزواء ليجد الفرصة التى يفكر فيها فيما رأى من الحوادث وليستسلم الى تيارات عواطفه واحساساته المتأثرة بهذه الحوادث • لأنه ليس من وتصل بالعاطفة الى ملأ الوجود الأعلى •

والنفوس العصبية التى تتأثر بالعاطفة تدفع بصاحبها الى التشاؤم

أولئك الذين صاغوا لأنفسهم قوالب من التفكير وقفوا عندها وألبسوا عواطفهم ومشاعرهم ثوبها فلا تحيلهم الحوادث مهما عصفت ولا تهز أوتار أفئدتهم المشاهد مهما اشتدت ، ليس ما كينة تعمل ما دامت تجد الوقود الذى يملأ جوفها ولكنه روح انسانية راقية متصلة بأجزاء العالم المختلفة تتأثر بما يصيب هذه الأجزاء من مختلف الآثار • وهذه النزعات هى ما كان يشاهد فى قاسم وماتدل عليه كتاباته • وهى ظاهرة فى مقدمة كتابه المرأة الجديدة الى صديقه سعد زغلول حيث يقول : « فيك وجدت قلبا يحب وعقلا يفكر واردة تعمل • أنت الذى مثلت لى المودة فى أكمل أشكالها فأدركت أن الحياة ليست كلها شقاء وأن فيها ساعات حلوة لمن يعرف قيمتها » • فهذا الاعتقاد بأن معظم ما فى الحياة شقاء ، وهذا الميل الذى يدفعه الى أن يجد السامة فى المجتمعات ولا يشعر بها فى الوحدة ، وهذا الألم الذى يشعر به للنقص الذى يجده حوله ، واحساسه العصبى العميق ؛ هذا كله كان نتيجة سببها تحكم العاطفة فى نفس قاسم فى كل ما يتعلق بمسائل الوجود العام •

ولا عجب فقد كان قاسم ممن يعتقدون بأن العواطف هى التى تمسير أعمالنا فى الحياة ، وأن العناية بها أثناء الطفولة وتربيتها تربية مثالية هى التى ترفع الشخص من المستوى الوضع الذى لا يهتم فيه الا بمصالح الجسد ليعرف للروح مصالحها ويهتم بغذائها ويجاهد

لرفعها وليفهم ضرورة اتصالها بالآرواح الأخرى لفائدة الجماعة ولفائدة الوطن ولفائدة الانسانية • وكان يقول بأن السبب فى التأخر والانحطاط الذى كان يشاهد يومئذ فى بعض بلاد الشرق ليس راجعا فقط الى توا الى الكوارث والمصائب على هذه البلاد • قال : « وانما السبب الحقيقى لفقد الشعور هو اهمال تربية العواطف عندنا فى زمن الطفولة ، وتبع ذلك أن أعصابنا أصبحت لا تتأثر الا بالاحساسات المادية التى تقع عليها مباشرة وصارت غير قابلة للتأثر بالمعاني النفسية - رأيت مدة وجودى فى فرنسا طفلا عمره عشر سنين كان يتفرج بجانبى على فرقة من العساكر الفرنسية وهى عائدة من حرب التونكين • فلما مر أمامه حامل العلم وقف هذا الغلام باحترام ورفع قبعته وحيا العلم وصار يتابعه بنظراته حتى غاب عنه • فأحسست أن الوطن تجسم لهذا الطفل فى العلم الذى مر أمامه وأثار عنده جميع الاحساسات التى بعثها فيه ما تربى عليه من حبه حتى خلته رجلا كاملا • أما الرجال والنساء الذين كانوا يشهدون بهذا المنظر فقد وصلت بهم قوة الشعور الى أنهم صاروا يعملون أعمال الأطفال ، فكان الكثير من النساء يقبل العساكر ودموع الفرح تسيل على خدودهن وأغلب الرجال كانوا يرقصون ويغنون ويلقون بقبعاتهم فى الطريق • فبمثل هذه المناظر وما يدور فيها وعنهما من الأحاديث أمام الأطفال ينغرس الشعور الوطنى فى نفوسهم ويزهر ويشمر • هكذا الحال فى تربية الفضائل الأخرى » •

فهذه الحكاية البسيطة مكتوبة بتلك اللغة الرشيقة تبين بوضوح وجلاء طريقة تفكير قاسم وتحكم العاطفة فيه وتأثير احساسه الشديد عليه وعدم ذهابه في البحث عن مصادر الخلق للتفتيش في أعمال عظماء الرجال وكبار القادة • بل كفى أن يرى هذه الحادثة التي تمر أمامنا مثيلاتها كل يوم فلا نلتفت لها ولا نهتم بها لتثير نفسه الحساسة ولتستفز عواطفه وتستوقف عندها تفكيره فيتذكر الى جانبها مثيلاتها مما مر به ويبنى على ذلك حكمه في النهاية • وان من قرأ كتبه ليجد فيها جميعا هذه النزعة الميالة الى البساطة الطبيعية الدالة على عظمة النفس عظمة صحيحة لا تكلف فيها ولا ادعاء •

وفضلا عما تدل عليه هذه الحكاية البسيطة من طريق تفكير قاسم فانها تدل أيضا على أسلوبه في الكتابة • هذا الأسلوب البسيط السيل الخالي من التكلف والتعمل البعيد عن تصيد الألفاظ من أعماق أقدم القواميس وحرصها بعضها الى جانب بعض كأنها رجم الأحجار يقذف بها كاتبها على القارئ حتى لا يلتفت الى خلو العبارة التي أمامه من المعنى ، وكذلك كان شأن قاسم في كتابته دائما • كان يضع الصورة أو المعنى بنفسه على أسسط الأشكال بحيث تكاد تفنى الألفاظ دونه • بل تطالبك هذه الألفاظ بأن لا تلتفت اليها هي بالذات بل بالصورة الجميلة أو بالخيال البديع أو بالمعنى الدقيق الذي تحمله اليك • على أنها دائما ألفاظ رقيقة منتقاة موزونة تشعر

أثناء قراءتها كأنك سابح فوق موجات الموسيقى الشعرية فاذا فرغت منها طاب لك أن تستعيدها مرة ومرتين وثلاثا لأنك تجد فيها غذاء حقيقيا لنفسك المتشوقة للاختلاط بنفس أخرى عظيمة عندها عزيزة عليها ، راقية تميل به الى التأثير مع الانسانية كلها • وكان هذه الفترة من حياته التي قضاها بين أظهر الفرنسيين من أهل الثورة الكبرى قوت عنده هذه النزعة الديمقراطية حتى جعلته يرى في كل ما سواها افتياتا على حقوق الانسان • بل جعلته حين رده على الدوق داركور يذكر ذلك بصراحة ووضوح: قال ما ترجمته :

« يظهر أن المسيو داركور ينعى علينا عدم وجود الفوارق الاجتماعية عندنا ويعيننا لأننا ليس من طوائفنا طائفة الأشراف بالمولد أو بغير المولد • وكل السكان الذين يقيمون في بلد اسلامي هم متساوون أمام القانون بلا تفرقة بين أجناسهم ودياناتهم • ولم يعرف الاسلام امتيازات الميلاد أو الثروة • وفي هذا هو قد تقدم بأكثر ألف سنة أشد الأنظمة السياسية الثورية • وذلك ليس عيا فيما أعتمد • فليس من العدل أو الفائدة في شيء أن تخلق مصادفة الميلاد مركزا ممتازا • وليس كون الشخص باشا كافيا ليكون ابنه كذلك • بل ليعمل هذا الابن وليجد حتى يستحق بنفسه هذا الشرف أو ما يزيد عليه ثم انه لنائله » •

فهذه النزعة الديمقراطية فى نفس قاسم هى التى كانت تدفعه
لشعر مع الناس جميعا • هو لم يكن يعرف المظاهر الكاذبة والألقاب
الفارغة • لم يكن يهتم بالرجل المترف العائش فى النعيم لترفه
ونعيمه ولكنه كان يهتم من كل انسان رجلا كان أو امرأة بقوة
خلقه وبشرف نفسه • كان يكره الضعة والصغار والجبن النفسى
لا فرق أن يكون مصدرها القائد العظيم أو الفلاح الحقير ولا فرق
أن تظهر فى المواقف الكبيرة أو فى الحالات التافهة • وكان يكره
ذلك بميله الفطرى المتأثر بعاطفته الانسانية العالية •

وهذه الحكاية الصغيرة من مشاهدات قاسم تدل دلالة بينة على
ما تقدم • قال :

« قبيل الغروب وقف بنا وابور النيل الذى كان يحملنا بجانب
غيظ مزروع وكان يشتغل فيه رجلان لمح أحدهما ثعبانا غليظا قصيرا
فقر وهو يصيح (ثعبان ثعبان ثعبان) •

أما الآخر فتقدم اليه حاملا فأسه وضربه بها عدة ضربات حتى
قضى عليه ثم تركه فى مكانه وأخذ سلاحه وعاد الى عمله ولم
يتكلم فى أثناء ذلك بكلمة ، حينئذ تحرك زميله ومشى محترسا
على أطراف قدميه شاخصا الى الحيوان واقترب منه بطيئا بطيئا ولما
وصل اليه لمسه بطرف الفأس التى كانت فى يده وقلبه مرة ثم مرة

أخرى حتى اذا تحقق أنه مات صاح (يا ابن الكلب !) وطعنه
بالفأس طعنة قوية •

« ولما رأى الثعبان لا يتحرك أمسكه من ذنبه وصعد به الى
الجسر وكان فى هذه الساعة عامرا بالمارة فاستوقف الأطفال والنساء
والرجال وصار يقص الواقعة عليهم قائلا (هجم علينا فقتلناه) وفى
آخر الرواية يلتقى الثعبان على هذا الجمع فيفرقهم وتصيح النساء
ويهرب الأطفال فيضحك هذا البطل الباسل من هذا الجبن ومازال
كذلك حتى جاء الظلام فانصرفوا جميعا وهو فى مقدمتهم حاملا
فريسته - أليس هذا هو الحال دائما فى جميع مظاهر الحياة
الدنيا • ترفع من رجال العمل عن حب الظهور وجرأة من رجال
القول على اغتصاب أعمال غيرهم والتبجح بها ! »

ورقة قاسم فى الشعور والاحساس وهذا الأسلوب البسيط
الجميل فى ألفاظه وفى تنسيقه وهذا البعد عن الكلام الحوشى
الغريب وهذه الدقة فى نقل الصور النفسية والخارجية تظهر أيضا
وبشكل أوضح فى كلمته الآتية عن جنازة المرحوم مصطفى كامل :

« ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل هى
المرّة الثانية التى رأيت فيها قلب مصر يخفق • المرة الأولى كانت
يوم تنفيذ حكم دنشواى :

« رأيت عند كل شخص تقابلت معه قلبا مجروحا وزورا مخنوقا
ودهشة عصبية بادية في الأيدي وفي الأصوات • كان الحزن على
جميع الوجوه • حزن ساكن مستسلم للقوة مختلط بشيء من الدهشة
والذهول • ترى الناس يتكلمون بصوت خافت وعبارات متقطعة
وهيئة بأسة منظرهم يشبه منظر قوم مجتمعين في دار ميت كأنما
كانت أرواح المشنوقين تطوف في كل مكان من المدينة •

« ولكن هذا الاتحاد في الشعور بقي مكتوما في النفوس لم يجد
سيلا يخرج منه فلم يبرز بروزا واضحا حتى يراه كل انسان •

« أما يوم الاحتفال بجنازة صاحب « اللواء » فقد ظهر ذلك
الشعور ساطعا في قوة جماله وانفجر بفرقة هائلة سمع دويها في
العاصمة ووصل صدى دويها الى جميع أنحاء القطر •

« هذا الاحساس الجديد • هذا المولود الجديد الذي خرج من
أحشاء الأمة ، من دمها وأعصابها ، هو الأمل الذي يتسم في
وجوهنا البائسة • هو الشعاع الذي يرسل حرارته الى قلوبنا الجامدة
الباردة • هو المستقبل • »

★ ★ ★

ليتك عشت يا قاسم حتى كنت ترصد بلغتك الجميلة المتأثرة
وباحساسك الدقيق صور الحركات القوية المنبعثة من أعماق نفس
هذه الأمة والتي كنت تتوق أن تراها فترصد للخلف آيات ما يفعل
أهل هذا الجيل • ولكن المنية فاجأت قاسما وهو لا يزال في ريعان
القوة فتركنا تاركنا لنا من تفكيره وكتابته أبدع الأثر ممليا علينا أن :
اللذة التي تجعل للحياة قيمة ليست حيازة الذهب ولا شرف النسب
ولا علو المنصب ولا شيء من الأشياء التي يجري وراءها الناس عادة
ولكن أن يكون الانسان قوة عاملة ذات أثر خالد في العالم •

توماس وودز وولسن

أسلم توماس وودز وولسن روحه أول من أمس ، فودع هذا العالم المضطرب الذي جاهد ليكون فيه نبراس هداية للناس ، ينقلهم من ظلم الحرب الى ربوع السلام . فاذا الناس كما كانوا قبل الحرب لا يزال يغريهم منظر الدم بالدم ، ولا يزالون يفرحون بكلمة الهدى ساعة ليندفعوا في تيار الضلال دهرا .

مات الدكتور وولسن رئيس الولايات المتحدة السابق ، ومن ذا الذي لا يعرف الدكتور وولسن ! ومن ذا الذي لم يردد اسم الدكتور وولسن ! بل من ذا الذي لم ير هذا الضياء العظيم الذي نشره روح ذلك الرجل الكبير ، ومن ذا الذي لم يحدق بهذا الضياء ذاهلا معجبا به مأخوذا عن نفسه ، فملك عليه الاعجاب كل حسه حتى نسي ضعة الناس وحقارتهم وتعلقهم بتافه شؤونهم وعبادتهم دنيء شهواتهم ، وخيل اليه أنهم يستطيعون أن يعتقوا طفرة مبادئ هذا الرسول الجديد وأن يرتفعوا عن الدنيا وأن يتخطوا هذا العالم الآفن الذي يعيشون فيه الى عالم جديد هو عالم المحبة والصفاء والسلام .

كلنا نعرف الدكتور وولسن . وكلنا نذكر الساعات التي حدثنا فيها بمبادئه الأربعة عشر ذاهلين مأخوذين . وكلنا لم ننس ما بنى على هذه المبادئ من كبار الأمانى التي لا تزال تهز العالم الى اليوم هزا . وهل هذا الصراع العنيف القائم بين الشرق والغرب ، وبين الاستعمار وتقرير المصير ، وبين الاستعباد والحرية ، وبين الظلام والنور ؟ هل هذا الصراع العنيف الذي بدأ من يوم وضعت الحرب الكبرى أوزارها والذي سيستمر قائما الى أن ينتصر النور وأن يعلو الحق — الا أثرا من هذه المبادئ الكبرى التي يحسبها بعضهم اليوم أحلام واهم وما هي بأحلام واهم . وانما هي القوة التي تكونت على القرون شيئا فشيئا واشتركت في تكوينها الآلام والآمال العامة ، والنزعات والأوهام الفردية ، وتفكير المفكرين وشعر الشعراء ، وكل ما في النفس الانسانية من قوة وحس وشهوة . ثم اختار القدر هذا الرئيس وولسن ليكون ترجمانها والمعبر عنها .

لم تكن مبادئ وولسن أحلام واهم . فقد قالها ثم سرعان ما آمن الناس بها . ذلك بأنها كانت جوابا لما يتردد في نفوسهم من نزعات وفكر وآمال وأمان مضطربة . آمنوا بها ثم لم ينفذوها ثم أنكروها ثم قالوا انما تلك أحلام واهم . وكذلك كانت من قبل كل فكرة . تبدأ تأخذ بالنظر . ثم ينكرها الناس ويقفون في وجهها . ثم يغفلون

فى الاندفاع وراءها • ثم هم يقدرونها حق قدرها وينظمون حياتهم على هذا القدر الصحيح •

فإذا كان ولسن قد مات فإن فكرته باقية وهى لا شك ستنتصر • وسيكون انتصارها فوزا كبيرا للحق وللخير وللسعادة •

ولد توماس وودرو ولسن فى ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٥٦ • وكان حده جيمس ولسن من أهل الصتر بارلندة • وقد هاجر الى أمريكا سنة ١٨٠٧ • وفى السنة التى بعدها تزوج من فتاة ارلندية مثله واحترف الصحافة ومات محترما بين أهل بلده الذين كانوا يدعونه القاضى ولسن • وقد أخلف عدة أولاد تزوج أصغرهم واسمه يوسف رابل ولسن من فتاة أيقوسية الأصل تدعى جانت وودرو • ومن هذا الزواج ولد توماس الذى ورث اسم أبويه فصار توماس وودرو ولسن •

وقد ورث توماس من أبويه ما يمتاز به الارلنديون من الظرف والايقوسيون من البلاغة وجمال الخطاب • وكان ميله للتحرير واضحا من أول نشأته • فاشترك وهو فى الحادية والعشرين من سنه مع جماعة من أصحابه الطلبة بجامعة برنستن فى اصدار مجلة انفراد هو بادارتها بعد عام من صدورهما • وفى هذه المجلة ظهر ميله للتحرير السياسى •

وقد تأثرت حياته منذ نعومة أظفاره بما مرت به بلاده من المحن السياسية • فقد ظلت حرب الانفصال بين جنوب أمريكا وشمالها قائمة من سنة ١٨٦١ الى سنة ١٨٦٥ ، وانتهت بانتصار الشمال وببقاء الوحدة الأمريكية بفضل ما أبداه ابراهام لنكن رئيس الولايات المتحدة من حزم ونفاذ بصيرة • وكان توماس متأثرا بهذه الأحداث فى طفولته • فلما آن له أن يقرأ وأن يفكر اتجهت قراءته للناحية السياسية كما رأيت • وظل بعد اذ أصدر مجلته يتابع أبحاثه ثلاث سنوات وضع بعدها كتابا عنوانه (الحكومة - مبادئ السياسة التاريخية والعملية) وقد جاء فى هذا الكتاب فكرة من أفكار ولسن السياسية عن الحكومة كانت هى الفكرة الأساسية التى سار عليها والتى ظهرت من بعد ذلك فى مبادئه العامة التى أراد - كما قال - فى غير خطبة من خطبه - أن يلقي بها من فوق رأس الحكومات مباشرة الى الشعوب •

وهذه الفكرة الأساسية التى ظهرت فى كتاب ولسن عن الحكومة هى :

« ليس حتما أن تقوم الحكومة على القوة القاهرة بل يجب أن تقوم على أساس آخر • ولقد أصبحت الاستبدادات الحزبية بادرة غير مطمئة ، وصارت الشعوب على غير ما كانت عليه من الانحلال أيام الاقطاعات ومن الانحناء أيام الملكيات القديمة • فهى الآن مجاميع

بلغت فيها قوة الاقرار وقوة الاعتراض مبلغا عظيما • وقوة الأغليات
هى من مستحدثات الجمعيات الحديثة • وفن الرجل السياسى
يجب أن يتجه اليوم لابقاظ هذه القوة الجديدة ودفعها وقيادتها •

وفى أثناء أبحاثه احترف المحاماة فلم ينجح فيها لأنه كان فى
شغل بالقضايا العامة عن القضايا الخاصة • فلما صادف كتابه عن
الحكومة النجاح دعتة جامعة « برنستن » التى تخرج منها ليدرس
بها ، فدرس التشريع والسياسة من سنة ١٨٩٠ الى سنة ١٩١٠ ،
وكان رئيسا لهذه الجامعة من سنة ١٩٠٢ الى أن تركها حين انتخب
حاكما لولاية نيوجرسى من سنة ١٩١١ الى سنة ١٩١٣ •

علت مكانته وهو فى جامعة برنستن وعرفت له أفكار خاصة
عن حكومة الولايات المتحدة فطمح الى رئاسة الجمهورية ولما يترك
رئاسة الجامعة • فقد ألقى سنة ١٩٠٧ عدة محاضرات عن (الحكومة
النيابية فى أمريكا) نشرها سنة ١٩٠٨ قبيل انتخابات رئاسة
الجمهورية التى نجح فيها المستر تافت • وقد أوضح فى هذه
المحاضرات أفكاره التى أذاعها من قبل فى كتاب نشره أيام شبابه
عن حكومة بلاده • وكانت أظهر فكرة له فى هذه المحاضرات أن
الدساتير السياسية ليست نظما أبدية حتى يمكن تعريفها وتحديد
على طريقة رياضية بل هى كائنات حية قابلة للتطور • والدساتير
فى رأيه هى ما يريد الساسة أن تكون • وكان نشر محاضراته

دافعا لازدياد اهتمام الناس به • ولكنه لم يظهر ما يجول بخاطره
من ميل للدخول فى ميدان الانتخابات لرئاسة الجمهورية وان كان
قد قدر استطاعته الفوز فيها لما كان عليه المستر تافت من ضعف
السلطان ، والمستر روزفلت من عدم المهارة السياسية على قوة
سلطانه ، والمستر بريان من سوء الحظ لسابق فشله مرتين فى
الانتخابات • فلما كانت سنة ١٩١٠ وكان قد اختلف مع مجلس
ادارة جامعة برنستن وكانت انتخابات الرئاسة لا تقع الا فى سنة
١٩١٢ عرض نفسه سنة ١٩١٠ لانتخابات ولاية نيوجرسى وكانت
خالية فنجح وأبدى خلال حكمه لهذه الولاية ما اشتهر معه بالحزم
والمقدرة على الاصلاح • وفى سنة ١٩١٢ تقدم لانتخابات رئاسة
الجمهورية وكتب له الفوز فيها وتسلمها فى سنة ١٩١٣ • وتجدد
انتخابه للمرة الثانية فى سنة ١٩١٦ وظل فى رياسته الى سنة
١٩٢١ •

وقد افتتح عهد رياسته الأولى بخطاب دل على ما يجول بخاطره
وما ظهرت آثاره فى مبادئه التى أعلنها أثناء الحرب ، اذ جاء فى
هذا الخطاب ما يأتى :

« نشعر ونحن نتقدم الى هذا العصر الجديد ، عصر الحق
والاطلاق من كل معانى الرق ، بشعور يهتز له فؤادنا حتى لكأنما
جاء الينا من عند الله ، شعور يتألف فيه العدل الرحمة ويجعلك
ترى قاضيك وأخاك بعين واحدة •

« انا نعلم أن الواجب الذى ألقى علينا ليس واجبا سياسيا فحسب • بل هو واجب سيئلتينا الى غور وجودنا ، وسيظهر مقدرتنا على فهم عصرنا وحاجات شعبنا واستطاعتنا أن نكون لسانه وترجمانه • وسيبين عما اذا احتوت جوانحنا القلب الذى يفهم والارادة القوية التى تعرف كيف تختار أسمى وسائل العمل • فالיום ليس يوم نصر ولكنه يوم توجه • وليس السلطان اليوم لقوة حزب ولكن السلطان لقوى الانسانية • وأفئدة الناس فى انتظار عملنا وآمالهم تود لو تعرف ما سنقوم به • فمن ذا يستطيع أن يفخر بأنه جدير بمثل هذه الرسالة الكبرى • ثم من ذا يستطيع أن يرفض التقدم للتجربة • وانى أدعو كل الاشراف وكل الوطنيين وكل من يتجه نظرم للمستقبل الى جانبى • ولن أرفض بعون الله ما يتقدمون الى به من نصيحة ومعونة » •

وفى أثناء رئاسة الدكتور ولسن الأولى نشبت الحرب فظلت أمريكا على الحياد الى سنة ١٩١٧ • وظل الدكتور ولسن ينظر الى هذه المجازر بعين الأسف لما تلاقى الانسانية من ويلات بسبب أطماعها الوضيعة • وكان لا شك يبقى فى حياده لولا ما كان من اقدام غواصات ألمانيا على نفس المراكب الأمريكية • حينذاك دخلت الولايات المتحدة الحرب • فكان دخولها بدء انقلاب كفة الميزان • وسبب انتصار الحلفاء •

وقد سافر الدكتور ولسن بعد عقد الهدنة الى أوروبا وأراد أن يكون لسان أمته وترجمانها فى مؤتمر الصلح • لكنه مع الأسف لم يستطع أن ينفذ مبادئه وضعف عن أن يترك أوروبا فى مصائبها لأن أمريكا كانت دائرة كل دول الحلفاء ومصالحها تقتضى بقاء تحالفهن • فلما عاد الى أمريكا أراد أن يصادق مجلس الشيوخ على معاهدة فرساي فلم ينجح • وبذلك انهار أمل من أكبر آماله • بل انهار أمله الأكبر • ولم تفلح دعوته الناس وانتهى به الحال أن أصيب باصابة كانت مقدمة الأمراض والعلل التى جاءت على حياته • على أن فشل ولسن فى حمل بلاده على قبول المعاهدة التى عقدها لايحط شيئا من قدره • وسيبقى فى التاريخ علما من هداة الانسانية العظام • وسيبقى اسمه فى التاريخ حيا ما بقى التاريخ •

أحمد لطفي السيد

علم الأخلاق — لارسطوطاليس

من نحو سبع سنوات، بينما جو العالم يرق بنار الحرب ويرعد،
جلس الأستاذ لطفي السيد الى مكتبه ينقل كتب أرسطوطاليس الى
العربية • وقد أثار عمله هذا دهشة كثيرين جعلوا يتساءلون: كيف
ارتضى مدير « الجريدة » أن يهجر ميدان السياسة الى صحراء
الفلسفة ؟ وأن يغمض عينيه عن الحاضر المستلئ بجلائل الأحداث
ليأوى الى كهوف الماضي يفتش فيها عما يتسلى به ويلذ له ؟ وتخطى
بعضهم حدود التساؤل الى النقد : ما بال هذا الكاتب الكبير المشهود
له بالفضل من أصدقائه وخصومه جميعا يهدر وقته فيما لا يعود على
أتمه وبلاده بفائدة ؟ وهل ترى ترجمته لأرسطو أكثر من أن تكون
لذة لنفسه وزينة عند أصحاب المكاتب الذين لا يقرأون مما يقتنون
سطرا •

بلغ هذا النقد وذلك التساؤل مسامع لطفي السيد ، كما ذهب
اليه قوم يصدونه عن المضي في عمل حسبه عقيما • لكنه استخف
بأحلام الناقدين ، ووجد من انضم اليه في استخفافه ، فمضى في

عمله ولا يزال حتى اليوم ماضيا فيه • وأشهد اني ما رأيته أكثر
اغتباطا بمجهود ولا أوفر طمأنينة لكدمه باغتباطه وطمأنينته لهذا
الجهد الشاق الذي يعالجه أرسطو • وانك لتلمس غبطته بينة بارزة
في الجزأين اللذين نشرهما ترجمة لكتاب الأخلاق ، وفي التصدير
الذي قدم به هذا الكتاب •

ولست هذه الغبطة والطمأنينة مقصورة على الأستاذ وحده ، بل
شاركه أصدقاؤه وتلاميذه فيها • فقد رأوه اليوم كما كانوا يريدون
أن يروه دائما : بعيدا عن مضطرب الحياة اليومية وشهواتها ، بعيدا
عن السواد وحكمه السريع الثقل ، جالسا حيث وجب له أن
يجلس : بين أرسطو وبارتلمي ساتيلير ، وبين عامة المؤلفين الذين
يتحدثون اليه كلما أراد أن يستمع اليهم • وليس أخلق به من
سلوك هذا الدرب من دروب الحياة ؟ فهو في سكينة العبوس أسمى
ألوان الحياة وأثمنها ، وهي يحمل مجده في طياته غير خاضع
لحكم الحاضر ولا هيب حكم المستقبل •

وليس هذا وحده مصدر طمأنينة الأستاذ وغبطة أصدقائه ، بل
ان لهذا الضرب من ضروب الحياة فضل الخصب في الانتاج
النافع • وقد يعجز سواد أدعياء الفهم والحكم عن ادراك هذا
الفضل ، وقد ينكرون لعجزهم مجد هذا الانتاج ، وقد يزيدهم

انكارا بهرهم بما تزينه شهوات الساعة من وهم المجد ، وقد يحسبون هذا الالتجاء الى كهوف الماضي عجزا عن النضال لمجد الحاضر ، وكثيرا ما يؤثر حكم هذا السواد من الأدعياء على اتجاه حياة الرجال الذين يعيشون للحاضر وحده ويلذهم بريق مجده ؛ لكن أكبرهم الرجل ذى الهمة أن يغالب حكم شهوته على عقله فيغلبها ، كما أن أكبرهم الرجل الفاضل أن يغلب فى نفسه الخير على الشر ، وان يك وجه الخير متجهما عبوسا ووجه الشر باسماء جذابا . وقد وسع لطفى السيد أن يتخلى لغيره عن المتاع بمجد الشهوة . وعكف على العمل الصالح المطمئن البعيد عن كل ضجة وجلبة .

على أنه لم يرض أن يمر فى تصديره من غير أن يدفع ما قيل من أن عمله عقيم « ولا يعتبر الا ضياعا للوقت » فبين أن الرجوع الى « المعلم الأول » هو فيما يرجح : « الطريق القريب والأمين والخالى من العقبات الى تمكين الفلسفة من بيئاتها العلمية لتنتج فى الذكاء المصرى وصحة الحكم على الأشياء » لأن « الفلسفة العربية قد انتشرت فى مصر وفى جميع الأقطار الاسلامية . والفلسفة العربية هى فى مجموعها فلسفة أرسطوطاليس » .

وقد تتفق مع الأستاذ فى هذا الحكم تمام الاتفاق . على أننا لا نرى وجه الضرورة فى بيانه . فان أدعياء الفهم ممن صدر عنهم

ذلك النقد السليم لن يعالجوا مراجعة أرسطو وتعاليمه . والذين يعالجونه فى غير حاجة الى هذا البيان ، فهم يقدررون أرسطو ويقدررون لطفى السيد . أم أن الأستاذ يرى ممكنا أن ترجع هذه الحجة ضالا الى حظيرة الهدى ، ان كان بين الضالين من فتنهم النهضة الحديثة فأثروا فلسفة العصر الحاضر على الفلسفة القديمة .

ان يك ذلك رأيه فليسمح لنا بمخالفته ، فان الذين فتنوا بفلسفة العصر الحاضر فتنة صحيحة يدركون التضامن فى التفكير بين مختلف العصور ، ويعلمون أن أدب العصر الحاضر وفلسفته يمتان لليونان بأقرب الصلة . ولا يفوتهم أن الاحاطة التامة بالشئ لا تكون الا بعد استقصاء مصادره وأصوله . وما دامت غاية الفلسفة الوقوف على حقائق الأشياء والكشف عن أسرارها فمن ألزم أدواتها الرجوع الى مصادر العلم والنظر لتحقيق سلسلة النسب وضبط مرامى الفكر ، فهم اذن فى غير حاجة الى التنبيه الى فضل فلسفة أرسطوطاليس لأن حاجتهم اليها ضرورية وليست حاجة كمال ولذة .

أما الذين فتنوا من فلسفة العصر الحاضر بأدب هذه الفلسفة وزخرفها ، وكانوا لذلك عشاق أنصاف الحقائق وخيالاتها ، فلن يقنعهم رد على نقدهم ، لأنهم يريدون الفكرة السهلة فى ثوب فياض من ألفاظ خلافة ، وأن تكون هذه الفكرة مرنة ليتسنى لها أن

تصادف أهواء أفئدتهم جميعا ، وليست فلسفة أرسطوطاليس وتعاليمه هي الجواب لما يسأل هؤلاء المقتونون عنه .

على أنا لا نعتقد أن هذا الذي دفع به الأستاذ لطفى السيد قول ناقديه هو ما دفعه الى معالجة عمله الشاق الجليل من ترجمة أرسطوطاليس . انما دفعه اليه ميله له وحرصه عليه . لذلك اغتبط به وجعل منه أسمى أمله . فلم يرض عليه بوقت ولا بجهد . ولو أن الأستاذ كان حرا طول حياته فى اختيار العمل الذى خلق له لكان قد عالج أرسطوطاليس وترجمته قبل سبع سنوات ، ولكن لنا أن نعيب اليوم عليه أنه وقف عند الترجمة من غير تعليق . وما نقول ذلك رجما بالغيب . فقد عالج لطفى ترجمة العقد الاجتماعى لروسو بدأ شبابه ، ثم منعه ظروف عن اتمامه . وقضى عليه بعد ذلك أن يلبس دروع الجندية حين صار مديرا للجريدة . وفى خنادق الصحافة قضى سبع سنين تباعا لم ينقطع خلالها حينه الدائم لحياة العلم والفكر . ومع ما أحيط به أيام جنديته من تقدير المقدرين واعجاب المعجبين فما أشك فى أن نفسه كان يفصها الألم حتى لتكاد تشرق به لولا عزاؤها بأداء الواجب للوطن . ولم يكن الاعجاب ولا كان المجد الأجوف يمنع عنه ألم الحرمان من أحب الملمات الى نفسه . فلما كانت الحرب وأكره مترجم الأخلاق فيمن أكره

على السكوت أسرع ينهل مما حرم منه ويؤدى ما يسرته الحياة لأدائه كواجب عليه لنفسه وللحياة .

وانما كان لطفى السيد حين ادارته للجريدة كالشجرة القوية فى واحة تحيطها الصحراء ، ولا بد أن تعطى المحيطين بها ثمرا غير ثمرها فتقطع عليها أثمار شجرة أخرى . تنتج هذه الأثمار أجود مما تنتجها أشجارها الأصلية الضعيفة ولكن على حساب ثمرها الطبيعى ؛ فاذا آن للفرع المطعوم أن يزول عادت الشجرة تعطى كل ما فيها من حياة وقوة لثمرها . كذلك عاد لطفى السيد ينتج من ثمر العلم والفكر ما طاب له ، فكان من ذلك ترجمته لأرسطو وتقديمه للقراء كتاب الأخلاق .

وليس أرسطوطاليس جديدا عند قراء العربية . فقد نقلت كتبه اليها أيام العباسيين كما انقطع له ابن رشد فى الأندلس . وليس هذا مقام الكلام عنه ولا عن ترجمته ، فكل المطلعين على فلسفة العرب أو فلسفة أوربا يعرفون أرسطو ، وكل قراء العربية يعرفون لطفى السيد . ولو أن رجلا كان له أن يتكلم فى افاضة ودقة عن المعلم الأول فهذا الرجل هو مترجمه . لكننا مع ذلك لا نستطيع غير القول بأن كتاب الأخلاق ، وهو أول الكتب التى نشرها الأستاذ لطفى السيد من سلسلة تواليف أرسطو ، لا بد مثير فى حركة مصر العقلية والعلمية ثورة كبرى . فان اللغة التى ترجم بها تجعله أقرب

الى القراء ، ونظرياته التى أخذت عنها الفلسفات العربية والغربية جميعا كفيلا بأن تبث فى الفكرة الفلسفية السامية حياة جديدة • وما أشد حاجتنا الى هذا البعث فى عصرنا الحاضر وقد جف معين الفكر المتعمق فى بحث الحقائق الذاهب الى غور الأشياء •

لقد طال بالناس الوقوف من الأشياء على قشورها ، وقد صار الباحث المدقق غريبا بين أهل هذا الجيل المندفع وراء العاجلة المرائع عن الحق والحسن والجميل • فهل يكون مثل الأستاذ لطفى السيد فى المثابرة والجد وراء اظهار الحقيقة التى عرفها الاغريق للناس خليقا بأن يعيد اليهم الرغبة فى الحق والحكمة ؟

هذا ما نرجو • ولو صدق رجاؤنا لكان ما تقدم به الأستاذ من عمل أحبه وحرص عليه بشيرا بخصب عظيم فى مستقبل الشرق الفكرى • والخصب الفكرى هو أساس العظمة والمجد والسعادة •

محمد فريد وجدى

دائرة معارف القرن العشرين

السيد فريد وجدى كاتب قديم معروف • كانت ولا تزال له جريدة الدستور تصدر أحيانا وتمتنع عن الصدور أخرى • وله مؤلفات غير قليلة يدور أكثرها حول الروحانيات • وهو من بين المسلمين الذين يقولون بأن كل علم وكل اختراع وكل فكرة قديمة أو حديثة لها أصلها فى الاسلام • وله على ذلك أدلة تراها فى كتبه وأبحاثه الكثيرة التى تدل بكثرتها واتساعها على أنه لا يضيع وقته فى غير البحث والعمل لتأييد رأيه وفكرته •

وهو كذلك من بين المولعين بجمع معلومات بنى الانسان من يوم كان لبنى الانسان معلومات الى وقتنا هذا • وشغفه بذلك واصراره عليه قديم • وقد تمكن من جمع هذه المعلومات وترتيبها وتبويبها حتى اذا اطمأن لكمالها أصدرها للناس دائرة معارف ليكون للقارئ منها (قاموس عام مطول للغة العربية والعلوم النقلة والعقلى والكونية ، بجميع أصولها وفروعها ، فيه النحو والصرف والبلاغة والمسائل الدينية وتاريخ الطرق والمذاهب والتفسير والحديث

والأصول والتاريخ العام والخاص وتراجم مشهورى الشرق والغرب والجغرافية الطبيعية والسياسية والكيمياء والفلك والفلسفة والعلوم الاجتماعية والاقتصادية والروحية والطب والعلاج وقانون الصحة والفوائد المنزلية وخواص العقاقير والاقرباذين والاحصاءات وسائر ما يهم الانسان فى جميع المطالب) •

هذه العلوم والفنون والمذاهب والأبحاث وسائر ما يهم الانسان فى جميع المطالب كانت من زمن مضى طى كتاب وضعه السيد فريد وجدى وأسماء (كنز العلوم واللغة) • وقد لقي هذا الكتاب ، فيما يقول المؤلف فى مقدمة دائرة معارفه ، (غاية ما يتاح لمثله من الاقبال والتقدير ، سواء من جانب الأمة أو من جانب الهيئات الرسمية •• فكانت هذه الشهادة المزدوجة أحسن مكافأة للمؤلف بعد جهاده الطويل وسهره المتواصل) •

لكن (كنز العلوم واللغة) انما حصر (معلومات البشر كلها فى دائرة واحدة يلم بها المطالع الماما اجماليا فيستفيد منها لعقله وروحه وجسده على قدر ما تسمح له الحال) • وقد ذكر المؤلف حين آنس من وقته فراغا (حاجة الأمة الى دائرة معارف أغزر مادة ، وأجمع فوائد ، فاز الذى كان يكفيه بالأمس أن يقرأ مادة من المواد العلمية خلاصة موجزة أصبح لايقنعه الا بحث مستفيض • ورأى أنه جمع ما فاتته جمعه فى « كنز العلوم واللغة » ، فأجمع

على وضع دائرة معارف تناسب الحاجة العصرية و (عولنا على أن نتوسع فى اللغة توسعا لا يدع حاجة فى النفس • وأن تنبسط فى القسم العلمى تبسطا يبلغ بالطالب غاية ما يرمى اليه ، جاعلين نصب أعيننا أن يكون الكتاب جامعا بين الحاجة العقلية والحاجة المعيشية • فكما يحرص عليه العالم ليسبح منه فى نظريات العلوم ، يحرص عليه الرجل العادى ليجتهد فيه عن مسكنات آلامه ، وصحة أهله وعياله ، ووجوه السير فى أعماله ، وأمور دينه ، وكل ما يحتاج اليه فى معاملاته) • ولقد لقي عمله هذا من تقدير الأمة واعجابها ما دفعه لاعادة طبع كتابه • وهذه الطبعة الثانية التى حدثك المؤلف عن غايته منها وعمّا تحتويه وعن كيفية وضعه اياها وتطورها من كنز العلوم واللغة الى دائرة المعارف التى نفذت والتى أعيد طبعها هى موضع نظرنا اليوم •

تقع هذه الطبعة الثانية فى عشر مجلدات كل مجلد منها ثمانمائة صفحة عدا السابع فصصفه ٩٦٠ والعاشر فصصفه ١٠٥٦ فمجموع صفحاتها جميعا ٨٤١٦ • وهى مطبوعة بمطبعة دار معارف القرن العشرين على ملازم (ثمانيات) بحرف بنط « ٢٠ » • وكلها من تأليف السيد محمد فريد وجدى • فهو لم يكتف فيها بوضع قواعد البحث ونظامه والاشراف على أبحاث سواء ، بل تفرد بها فلم يستغن

بأحد ولم يشرك مع مجهود مجهود غيره • هو الذى بحث ونقب ، وهو الذى نظم ورتب • وبحسبك هذا لتعرف مشقة العمل وعظم المجهود • فأتت اذا رجعت الى التعريف الذى وضعه تحت عنوان الكتاب ورأيت ما بين دفتى هذه المجلدات من : قاموس عام مطول للغة العربية والعلوم العقلية والعقلية والكونية بجميع أصولها وفروعها النخ • ازددت عرفانا لما اقتضاه هذا المجهود من وقت وصبر ومثابرة •

فلو أن هذه الآلاف من الصحف كانت كلها فى فن أو علم واحد لكان ما تقتضيه من مجهود أقل مما تقتضى « هذه العلوم العقلية والعقلية بجميع أصولها وفروعها » • ذلك بأن اتحاد اتجاه الذهن وإمعانه فى الغوص على نوع خاص من المعانى يلذه ويشحذه ويزيده دقة فى التصور وفى التفريق بين الألوان البادية التشابه لذى النظر السطحي ولغير المتعمق • فأما هذا الانتقال من علم الى علم ومن فن الى فن ففسير كل العسر • يحدث فى الذهن وقوفا كلما شاء أن يتحول الى اتجاه جديد ، وليس هذا الشأن مقصورا على التفكير وحده ، بل انك لتشعر به ولو كان عملك مقصورا على مجرد النقل والترجمة ؛ فأتت اذا ألفت لغة مؤلف واتجاه فكره تيسرت لك العبارات التى تؤدى بها مقاصده وأغراضه ، فاذا انتقلت الى غيره فى نفس العلم أو الفن شعرت بقلمك يقف حتى يسيع ذهنك اللغة

وطريقة التفكير الجديدة التى انتقلت اليها • ما بالك لو كان الانتقال الى علم أو فن جديد له أساليبه وله مصطلحاته فى اللغة وله قواعد التى تجمع فى ألفاظ معدودة أبحاثا مستفيضة ! انك فى هذه الحال بحاجة الى هدنة تستعيد الى ذاكرتك فيها ما سبق لك الالمام به من العلم أو الفن الجديد ، وأنت كذلك بحاجة الى عدة لغوية تصلح ثوبا لهذا العلم أو الفن •

بهذا المجهود قصد السيد فريد وجدى الى (أن يكون الكتاب جامعا بين الحاجة العقلية والحاجة المعيشية • فكما يحرص عليه العالم ليسبح منه فى نظريات العلوم ، يحرص عليه الرجل العادى ليبحث فيه عن مسكنات آلامه وصحة أهله وعياله الخ) • وما نشك فى أن عددا كبيرا من القراء يجد فى مراجعة هذا الكتاب فائدة له غير قليلة • فأتت اذا رجعت فى الكتاب الى كلمة من الكلمات رأيت تفسيرها اللغوى ثم انتقلت فى أحيان كثيرة الى بحث طويل عما ينطوى تحت هذه الكلمة من تاريخ أو فلسفة أو كلام • خذ مثلا لفظ « مصر » • لقد كتب المؤلف عنها فى مجلده التاسع ٢٢٦ صفحة (من صفحة ١٥ الى صفحة ٢٤١) جمع فيها تاريخ مصر القديم والحديث وتكلم عن تقسيم البلاد وعن التعليم فيها وعن قوانينها النظامية وعن دينها العام • ثم خذ كلمة (اله) تجد بحثها فى الجزء الأول من صفحة ٤٨١ الى ٥٦٢ وتجد المؤلف يبدأ

الكلام عن (الله) بقوله (العقيدة بوجود الخالق فطرة فطرت عليها النفس الانسانية أو هي في مرتبة العلوم الضرورية التي تحصل للانسان كثمرة من ثمرات مواهب العقلية) ثم يجيء بكلمات لكبار الفلاسفة عن الله ثم عن اثبات وجوده • وفي هذه الكلمات والبراهين والمناقشات شيء غير قليل يتمتع به الذهن • وقد ترى في هذه المادة غير البحث في الآله وأدلة وجوده فلتات عن العلم والمادة وغيرهما • ثم ينقلك المؤلف الى (رأيه الخاص في المسألة) وعقيدته بالله « عقيدة في درجة المحسوس بلا دليل » وعجبه أن يؤدي الدليل الى عقيدة • وبحثه في المذهب المادى والمذهب الروحى • ثم راجع كلمة « موت » في الجزء التاسع تراها قد استغرقت منه ٢٦ صفحة بينها خمس صفحات رسالة لابن مسكويه في علاج الخوف من الموت وفيها ثمانى عشرة صفحة عما يجب للمسلم بعد الوفاة من جنازة وصلاة ودفن •

وأنت كلما رجعت في دائرة المعارف هذه الى شيء من الشؤون الروحية فأنت واجد دائما بحثا كما أنت واجد رأيا خاصا للمؤلف • ومنته الى نتيجة معينة • كذلك كلما رجعت الى شاعر من شعراء العرب أو كاتب من كتابهم المعروفين أو مؤلف من مؤلفيهم في الفقه والكلام فأنت واجد شيئا من تاريخ هذا الشاعر أو الكاتب أو الفقيه وغير قليل من شعره وما كتب • وللمدن والبلاد العربية حظ عظيم

من عناية المؤلف • فالأندلس وبغداد ومكة كانت مواضع بحثه • وإن كان لمكة من هذه العناية القسط الأوفر وكانت بغداد لم تحظ منه بأكثر من صفحة واحدة •

وقد يسرك أن تشعر حين مراجعاتك في دائرة معارف القرن العشرين أن كتاب اللغة العربية حتى هذا العصر الأخير قد عرضوا لأكثر المسائل وأعوصها فلا يكاد يخلو بحث من رأى لهم فيها • فالمغناطيس كتب فيه الرشيدى في مادته الطيبة وعرض فيما عرض للآراء الحادثة عن المغناطيسية من أيام المسمرية « المسمزم » وقبلها • والبناء - بناء البيوت - كتب عنه الدكتور محمد أفندى كمال • وتاريخ مصر القديمة رجع فيه المؤلف الى كتاب سليم أفندى سليمان عن (مختصر تاريخ الأمة القبطية) • هذا سوى الأقدمين من المؤلفين أمثال ابن خلدون وابن خلكان وابن مسكويه وعبد اللطيف البغدادي وغيرهم ممن كانوا عمدة المؤلف في مراجعاته الفلسفية والروحية والأدبية والتاريخية •

الى جانب عناية السيد فريد وجدى بهذه الأبحاث التي « يسبح منها العالم في نظريات العلوم » ترى عناية لا تقل عنها لما يحتاج اليه الرجل العادى « من مسكنات آلامه ، وصحة أهله وعياله ، ووجوه السير في أعماله ، وأمور دينه ، وكل ما يحتاج اليه في معاملاته » • فكما وقفت منه على جنازة الميت والصلاة عليه ودفنه لم يفث المؤلف

أن يضع تحت نظرك مواد القانون المصرى عن البيع والإيجار وسائر المعاملات ، كما لم يفته أن يذكر الفوائد المنزلية والصحية والطبية لكل نبات ولكل مادة حين الكلام عنها • ولم ينس أن يذكر الدواء الذى يعالج به كل مرض • ولم يترك الكلام المفصل فى أمور الدين • ولم يهمل ذكر شئ وقع له واعتقد أن هذا الرجل العادى بحاجة الى معرفته •

والآن فأى حظ من التوفيق أصاب السيد فريد وجدى فى سبيل غايته ؟ وهل أنتجت مجهوداته النتيجة التى ترتجى من دائرة معارف توضع فى القرن العشرين ؟

يذكر السيد فريد وجدى فى عنوان دائرة معارفه أنها « قاموس عام مطول للغة العربية والعلوم الثقيلة والعقلية والكونية بجميع أصولها وفروعها » ويشير فى مقدمته الى أنها من « كنز العلوم واللغة » كقاموس لاروس الكبير من قاموسه الصغير • ويكفى هذا التعريف لتشعر بأن القيام بتحقيق ما اشتمل عليه يستحيل تمام الاستحالة على شخص واحد • فان وضع قاموس عام مطول للغة العربية وحدها وتجرى سد هذا القاموس لحاجات العصر الحاضر اللغوية يستغرق من الوقت والمجهود ما استغرقه عمل الأستاذ فريد وجدى فى دائرة معارفه • وكل علم نقلى أو عقلى أو كونى بجميع

أصوله وفروعه يستغرق من المجهود أكثر مما استغرقه دائرة المعارف هذه • وهذا هو السبب فى أن علماء ذوى اطلاع ونشاط وذكاء قد قضوا حياتهم فى البحث والتنقيب فى تحقيق أصول علم من العلوم ورد كل الفروع الى هذه الأصول ثم تركوا الحياة ولم تنته كل مهمتهم ، لذلك يجب مهما تحمد للسيد فريد وجدى مجهوده أن تتوقع فيه هذا النقص العظيم ، ويجب ألا تطلب اليه ما تطلبه الى دائرة معارف وضعت على الطريقة العلمية الصحيحة وأريد منها أن تحقق الغاية التى وضعت لتحقيقها •

دائرة المعارف التى توضع على الطريقة العلمية الصحيحة لا يقوم بوضعها رجل واحد ؛ بل يشترك جماعة من بادية رأى فى وضع الخطة التى تنهج فيها • فاذا تم وضع هذه الخطة استعانوا بكل عالم وبكل اخصائى فى العلم أو الفن الذى انقطع له وطلبوا اليه أن يرافيه برأيه على الخطة التى وضعوا • كذلك فعل دالمير وأصحابه فى الانسيكلويديا الفرنسية فى القرن الثامن عشر • وكذلك فعل لاروس فى قاموسه الكبير • وكذلك يفعل العلماء حتى فى المطولات المقصورة على علم واحد • فأتت اذا رجعت الى دالوز فى الحقوق والى أشباه دالوز فى العلوم الأخرى وجدته معتمدا فى مادته على عدد كبير من فحول العلماء • وحكمة ذلك أن القصد من دائرة المعارف أن تجمع من كل علم ومن كل فن خلاصته وآخر الآراء

فيه والمعلومات عنه ، حتى اذا رجع اليها من ليس له بهذا العلم أو الفن اتصال وثيق وقف منها على كل ما يريد أن يقف عليه ، ثم كان مطمئنا الى أنه يأخذ منها أوثق المعلومات والآراء وأدقها ؛ حتى لو أنه كانت له بهذه الآراء حاجة علمية لم يخش أن يضلّه فسادها أو قصرها •

ووضع دائرة معارف على هذا الوجه أمر لا يتيسر لشخص واحد • ولذلك لم يتيسر للأستاذ فريد وجدى برغم المجهود الكبير الذى بذله والذى يستحق من أجله الحمد والثناء • فلو أنه أتبع له أن يضع لنفسه خطة ونهجاً فى وضع كتابه ، ولو أن خطته ونهجه كانا على ما يريد العلم الحديث لهما ، ثم لو أنه أنفق أضعاف ما أنفق من وقت وعمل ما تيسر له مع ذلك أن يرضى أطماع العلم فى دائرة معارفه ولاقتصر عمله أكثر الأمر وفى أكثر المواد على جمع معلومات لا يستطيع الحكم على مبلغها من الدقة ، ولا يستطيع أن يرضى بها عالما ولا أن يفيد بها غير عالم •

هذا لو أنه وضع لدائرة معارفه خطة ونهجاً • ودوائر المعارف جميعا تقوم فى هذا العصر الأخير على أساس من النهج العلمى الذى اطمأن اليه الكتاب والعلماء والفلاسفة ، والذى يقتضى ملاحظة الوقائع ومقارنتها وترتيبها واستنباط القوانين من مشابهاها ومتناقضها جميعا • ونحن نرانا فى « دائرة معارف القرن العشرين » بعيدين

عن هذا النهج العلمى كل البعد • ولعلك تذهب الى الظن بأن مرجع هذا البعد أن واضع هذه الدائرة روحانى لا يعترف بالعلم الحديث ولا بآثاره • ولسنا نجيبك بأن العلماء الذين يعنون بالروحانيات فى هذه الفترة الأخيرة يريدون اقامتها على أساس من هذا النهج العلمى ، وانهم لذلك يلاحظون المظاهر الروحية ويسجلونها ويقارنون بينها ويجمعون بين ما تألف منها ويقصدون من ذلك الى وضع قوانين ثابتة لما يريدون تسميته العلم الروحى • وانما نقول ان السيد فريد وجدى لم يضع لدائرته نهجا على أية صورة من الصور • فأنت اذا أردت الرجوع اليها لا تعرف ما ستلقى • فقد تجد بحثا لغويا مستفيضا يبدأ به عبارته فيرد الكلمة الى أصولها ويبين أوجه استعمالها وقد لا تجد من هذا البحث اللغوى كلمة • وقد تجد بحثا تاريخيا وقد لا تجد • وقد ترى نظريات فلسفية عن كلمة تافهة علاقتها بالفلسفة ، وقد لا تجد ذكر الاسم من أسماء الفلاسفة على جلال قدره وعظيم خطره •

أشرنا الى أن مكة وبغداد ورد ذكرهما فى الدائرة ، والى أن مكة قد أفرد لها ما يزيد على ثلاثين صفحة ، والى أن بغداد لم تحظ بصفحة كاملة • هذا وبغداد كانت عاصمة الاسلام زمنا طويلا • فيها ازدهرت مدنية العرب ومنها امتد ملكهم وانتشر فى العالم سلطانهم العقلى والعلمى • والى أمراء المؤمنين الذين اتخذوها عاصمة ملكهم

والى العلماء والفقهاء والشعراء والكتاب والحاذقين من الصنائع والفنانين يرجع حظ عظيم من الحضارة التى كانت ولا تزال ولن تزال مجد المسلمين •

هذه الاطالة فى الكلام عن مكة والتقصير فى التكلم عن بغداد وعدم الاشارة عند ذكر بغداد الى ما يمكنك أن تعثر عليه خاصا بها فى أجزاء الدائرة الأخرى ليس الا مثلا من أمثلة كثيرة تجدها فى كل مناحى بحث المؤلف • هذا الى أن المعلومات التى يذكرها فيما يطيل فيها من مباحثه التاريخية لا تدعو لطمأنينة الذى ألم بشئ من العلم • فلتن كان قد أفرد للفظ مصر ٢٢٦ صفحة فان ما ورد فى هذا القدر من المعارف يقف فى أحيان كثيرة عند المعلومات الأولية التى يتلقاها التلاميذ المبتدئون ، كما يورد أحيانا أخرى معلومات تفصيلية لايحتاج اليها الباحثون عن المعارف العامة فى دائرة معارف؛ فما أوردوه عن تاريخ مصر القديم ملخصا من كتاب سليم أفندى سليمان (تاريخ الأمة القبطية) موجز لا جديد فيه من علم أو فكرة • ولا يزيدك علما عما عرفته فى المدرسة الابتدائية • والى جانب هذا ترى تفاصيل كثيرة مأخوذة عن الاحصاء السنوى العام الذى تصدره الحكومة المصرية والاحصاء الرسمى والدين العمومى ، وقد يكون خير ما فى هذه الصحف الست والعشرين والمائتين مذكرة عرابى باشا عن الثورة العرابية • لكن ايراد هذه المذكرة عند الكلام على « مصر » ايراد لها فى غير موضعها • وقد كان لها

مكاتها عند الكلام عن « عرابى » • ولعل المؤلف يوافقنا على هذا وبخاصة بعد ما أفرد للفظ « بونابرت » فصلا ذكر فيه خطاب أكابر مصر اليه منفردا عما أوردته عن نابليون • لكن المؤلف لم يكن يستطيع — وهو يقوم بهذا العمل وحده — أن يحقق الثورة العرابية تحقيقا تاريخيا صحيحا •

وكما كان ما ذكره المؤلف عن تاريخ مصر القديم موجزا ضعيفا كان ذكره للآثار المصرية ولآلهة مصر القديمة أشد ايجازا وضعفا • فقد ذكر عبارة موجزة عن أبيس • أما ايزيس وأوزوريس وسائر الآلهة فلم نوفق الى الوقوف على أثرهم أو خبرهم • وأما الآثار المصرية فان ما كتب عنها فى أى كتاب أوربى وفى أى دائرة معارف أوربية أدق وأشبع مما كتبه السيد فريد وجدى عن بعضها •

وكان عناية المؤلف بالتاريخ القديم مقصورة على الفلسفة اليونانية • وهى فى هذه أيضا ليست عناية علمية بحال • فأما تاريخ آشور وبابل وقرطاجة فما ذكر عنه قليل الى حد لا يفيد القارىء منه شيئا • وقد حاولت أن أعثر على شئ خاص بسميراميس الملكة الآلهة ذات التاريخ المجيد فى حكم آشور فلم أجد شيئا خاصا بها ، ولم يكن لها ذكر الا ورود اسمها فى كلمة موجزة ايجازا غريبا عن مملكة آشور برغم ما كان لهذه الملكة من تاريخ مجيد وحضارة كبيرة •

لكن هذا الاهمال للتاريخ القديم والآلهة مصر والاعريق وآشور لم يمتد الى أرباب الأديان الباقية الى اليوم • فقد تكلم المؤلف عن بوذا • ولعله تكلم عن كونفشيوس • ومع ما أظهره من العناية في هذا الباب الذي يهتم هو له بنوع خاص فقد كان حديث بوذا قصيرا وكان ينقصه شيء غير قليل من التحقيق ، وهو بعد موجز ايجازا لا يروى غلة السائح العالم ولا يفيد المتعلم الفائدة العلمية التي يجب أن يجدها •

★ ★ ★

مثل هذا الايجاز المخل والاسهاب الممل وعدم الأخذ بنهج معين وعدم الاعتماد على قواعد علمية وعلى معلومات ثابتة شائع في أكثر أجزاء « دائرة معارف القرن العشرين » • فمع ما يبدي المؤلف من عناية خاصة بالفلسفة لم يذكر شيئا عن جماعة كبيرة من أعظم الفلاسفة ذوي المبادئ التي قامت ولا تزال قائمة ، ولا تزال مرجع الفلسفة • فقد أردنا الوقوف على ما كتبه الفيلسوف الألماني الكبير « كانت » فلم نجد لاسمه ذكرا • ورجعنا نبحت عن الفيلسوف الفرنسي « كومت » صاحب الفلسفة الواقعية فلم يكن أحسن من زميله حظا • وفيما نقرأ ما كتبه عن كلمة « فلسفة » عثرنا على اسمي هذين الفيلسوفين وعلى ذكرهما عرضا في تاريخ الفلسفة الحديثة مع الاعتراف بجلالهما وعظيم قدرهما •

والعجب أن أسماء الفلاسفة التي نزلت الى ادراك الجمهور العادي أن كان أصحابها بين الفلسفة والآدب لم تلق من المؤلف ما يجب لها من عناية ولا من تحقيق • فجان جاك روسو معروف في دائرة معارف السيد فريد وجدى بما هو معروف به عند السواد • هو معروف بكتاب العقد الاجتماعي وبما كان لهذا الكتاب من أثر في الثورة الفرنسية • أما آراؤه في الرجعة الى الطبيعة وفي الديانة الطبيعية فقد تجد عنها شيئا فيما ترجمه المؤلف تحت لفظ « تربية » مثلا • لكنك لا تجده واردا عند الكلام على روسو كأن روسو لم تكن له به صلة •

ولعل الأدب الغربي أقل الأشياء ذكرا في دائرة معارف القرن العشرين • فأكابر شعراء الانكليز : شكسبير وملتن ويرون لا يهتدى لأسمائهم في ألوف صحفها • وشعراء الفرنسيين وكتابهم ممن طبقت شهرتهم الآفاق أمثال هوجو وشاتو بريان لم يحفظوا الا بأسطر معدودات •

يجب أن نعترف الى جانب ذلك بأن شعراء العرب وأدباءهم يشغلون مئات الصفح من الدائرة ؛ ويكفيك مثلا أن تذكر أن عبد الغنى النابلسي قد استغرق شعره ثلاثين صفحة ؛ لكنك مع ذلك لا ترى عن عبد الغنى النابلسي هذا ما يدل على شيء من أمره •

فمن هو؟ ومقامه بين شعراء أهل زمانه؟ وما خلاصة رأيه الشعري؟ هذا ما يجب أن تلتسمه بين السطور التماسا • وهذا الابهام تجده في كثير من أبحاث المؤلف •

هذا قليل من كثير مما عثرنا عليه أثناء مراجعتنا القصيرة من ملاحظات •

الاضطراب بين الاهمال والاسهاب والايجاز يرجع الى أسباب ليس انفراد السيد فريد وجدى بالبحث أهمها • انما أهمها أن ليس للمؤلف نهج ولا خطة • ولو كانت ثمة خطة واتبعت لما كانت هذه العيوب واضحة الى الحد الذى أشرنا اليه • ونحسب أن هذا يرجع الى نوع تربية السيد فريد وجدى العلمية • فهو كثير الاطلاع والمراجعة ، لكنه فى اطلاعه ومراجعته لا يصدر عن أساس ذاتي خاص • لذلك ترى تأليفه متميزا بجمع المعلومات من غير اختيار ومن غير ترتيب • فهو حيث عثر على مقال أو فصل فى صحيفة أو فى مجلة أو فى كتاب استعان فيما يظهر لنا بالمقص وأخذ هذا المقال أو الفصل فوضعه فى حرف الهجاء الذى يتبعه وفى اللفظ الذى يخصه ، وهذا ما يتضح لك حين تراه نقل مقال محمد افندى كمال عن بناء البيوت من جريدة العلم • وحين تراه نقل مقالا مطولا من مجلة المقتطف عن افتتاح خزان أسوان، مع أن افتتاح خزان أسوان

وما ألقى فيه من خطب وما كان فيه من مدعويين لا يجوز بحال أن يدخل فى نطاق دائرة معارف • وحين تراه نقل المغناطيس عن مادة الرشيدى الطبية • فاذا هو لم يعثر فى مطالعته العادية على شيء لم يكلف نفسه مؤنة البحث وأهمل الموضوع الاهمال كله ، أو اكتفى بالإشارة اليه فى عبارة موجزة كقوله تعريفا وشرحا وتفسيرا للرياضيات : العلوم الرياضية هى الحساب والهندسة والجبر وما ينفرع منها • ولو أن للسيد فريد وجدى أساسا ذاتيا من التربية العلمية لما رضى لنفسه هذا النحو من التأليف ، بل لو أن له أساسا ذاتيا من التربية العلمية لتردد كثيرا قبل أن يضع دائرة معارف • وربما أدى به التردد الى الاحجام عن عمل لا يستطيعه الا عدد عظيم من العلماء •

ولئن كان قد جمع فى الصحف العشرة الآلاف كثيرا من المعلومات التى قد نفيد من يرجع اليها اذا هو أخذها على أنها مراجع يجب تحقيقها قبل الاعتماد عليها وكان له بذلك فضل يشكر عليه فان كثيرين ممن لا يعينهم وقتهم أو علمهم على هذا التحقيق قد يضلون فى هذه المعلومات وقد يتخذونها عمدة وحجة وينون عليها آراء ونتائج لا يسهل أن تتفق والعلم •

لذلك نود لو أن الأستاذ فريد وجدى كان قد وجه همه الى

ترجمة دائرة معارف كدائرة معارف الاسلام مثلا ، ولو أنه فعل ذلك لكان قد حصر موضوعه وأفاد كثيرا من فضل العلماء الذين وضعوا هذا المؤلف النفيس ويسر لمن يريد الاطلاع سبيل العلم الناضج الصحيح الذى هضمه أصحابه وتمثلوه وجعلوا منه نتائج مبنية على أسباب ومقدمات ، لا مجموعة معلومات لم تهضم فقائها من اطلع عليها فخرجت مضطربة لا يطمئن اليها الا من لا وسيلة له الى غيرها •

على انا اخر الأمر لا نستطيع أن نشكر على السيد فريد وجدى أنه بذل مجهودا كبيرا لاقامة بناء فخيم • واذا لم يكن قد صادفه ما يرجوه له محبو العلم الصحيح من توفيق فليس ذلك ذنبه • واذا كان قد أجهد نفسه فنظم الانتفاض كل لون الى لونه وكل شبيه الى شبيهه من غير أن يتمكن من تنسيقها ، لما ينقصه من روح النظام ، فقد يكون لسواه أن يخرج من مجهوده هذا خيرا للناس وأن يعترف لصاحب دائرة معارف القرن العشرين بفضل السعى للخير وللإحسان •

الدكتور طه حسين

١

صحف مختارة من الشعر التمثيلي عند اليونان

ما أقل ما يظهر فى عالم الأدب من الكتب القيمة المؤلفة أو المترجمة وما أشدنا فى مصر الى هذه الكتب القيمة احتياجا • واذا كان لنا أن نعود باللائمة لهذا الفقر على أحد فأكثر الناس استحقاقا للوم أولئك الذين عهد اليهم فى العصور الأخيرة بواجب القيام بإيفاء علوم الأمة حقها من العلم والأدب فقصروها على علوم الصناعات والحرف وتركوا روحها بذلك فجأة وعقلها راكدا فلم تستر حمية مؤلف ولا همة كاتب •

على أن ما عنيت به الجامعة المصرية فى السنين القريية من العمل لنقل العلم والأدب الى مصر قد بدأ يخرج ثمره وزهره • ولأول مرة تقدم أحد أبناء الجامعة البررة الى الشعب المصرى بكتاب غير رسائل الامتحان ، فأخرج الدكتور طه حسين صحائفه المختارة من الشعر التمثيلي عند اليونان ونشرها على الناس •

ليس بنا من حاجة للكلام عن الدكتور طه ولا لبيان طريقته في التأليف • فقد عرف القراء رسالته في ذكرى أبى العلاء ومسلكه فى تحليل نفسية الشاعر ورده مختلف آرائه وأفكاره وأساليبه الى الوسط الزمانى والوسط المكاني الذى عاش فيه • وهذه هى بعينها الطريقة التى اتبعها فى رسالته عن ابن خلدون التى قدمها لجامعة باريس لجواز دكتوراه الأدب • وهى الطريقة العلمية التى تبعث للنفس صورة صحيحة من شخص الشاعر أو الكاتب أو الفيلسوف الذى يراد تحليله • ذلك بأن الفرد لا وجود له بذاته وإنما وجوده بالوسط الذى يعيش فيه • ففهم ومعرفة البيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية والحالة التاريخية وما كان على أثر ذلك من عقائد وعوائد وأفكار وعواطف واتجاهات ذلك كله وذلك وحده هو الذى يسمح لنا بفهم أى كاتب أو شاعر أو فيلسوف وأى رجل آخر له صلة بالمجموع فتأثر به وأثر فيه •

كذلك يعرف القراء أسلوب الدكتور طه حسين • يعرفونه من تعاليم الرجل حيث نشأ فى الأزهر ثم انتقل الى الجامعة المصرية وإلى أوربا فجمع فى لفظه بين المتانة والدقة • ويعرفونه من طريقة تفكيره التى هى داخلية دائما لا تتأثر فيها مظاهر الطبيعة ولا أحداثها مما يضيف الى متانة الأسلوب ودقته سكينه وعمقا وهندوا تمنع عليه سبيل الاندفاع التخيلي وتقف به دون الارتفاع الى شواهد

الوجدان • ولعل التطورات التى يمكن ملاحظتها على هذا الأسلوب بالغة فى اقناعنا بأن أسلوب صديقنا يسير دائما فى سبيل السلاسة الجزلة والسهولة المثينة من غير احتياج لتدفق ولا انقباض •

هذه الطريقة هى التى سار عليها فى المقدمة الصغيرة الثانية التى وضعها فى صدر كتابه الذى وضعنا اسمه عنوانا لهذا المقال وفى الكلمتين الممتعتين عن ايسكولوس وسوفوكليس • وهذا الأسلوب هو أسلوبه فيما ألف منه وفى أكثر ما عرب •

والكتاب موجز بديع يعطى فكرة عامة عن اليونان وعن شعرها التمثيلى • وناهيك باليونان وبأثينا القديمة • فهما مصدر المدنية الأوروبية الحديثة والوحى المباشر لأبداع ما خطت أقلام شعراء العصور الأخيرة الخالدين • فشاكسبير وراسين وكورنى وكثيرون جدا غيرهم من كبار كتاب (التمثيل) مدينون مباشرة لأثينا ولرومة • ويكفيها هذا لنقطع بأن كل ما يكتب عن اليونان يستحق قراءته والامعان فيه •

لكن مختارات الدكتور ليست أى شئ من كل ما يكتب عن اليونان • بل لها ميزة خاصة تجعل قراءتها أكبر فائدة وأكثر امتعا وتضعها فى الصف الأول بين ما يقرأ لفهم الروح اليونانية والحياة التى غذتها هذه الروح • ذلك بأنها صادرة من رجل تخصص لدراسة الأدب والفلسفة وما اليهما من مظاهر الحياة العقلية

اليونانية • وتخصص لهذه الدراسة لأنه أعجب باليونان فشربت نفسه مشاربهم وألهمت روحه بديع معانيهم وأوصله التحليل العلمي الى تعرف الاسباب التي ألهمت العقل اليوناني ما أفاضه به على عصره وبلاده ثم على كافة العصور والبلاد التي أخذت من المدنية بطرف أو ضربت فيها بسهم ونصيب •

وضع الدكتور طه مقدمة عن الحياة اليونانية وعن الشعر التمثيلي عند اليونان • فشبه الجزيرة التي تكاد تكون قاحلة والتي جمعت اليها أشتات الأجناس المختلفة من اليونان طبعت أهل مدينتها الكبرى - أثينا - بطابع خاص هو حب العمل لاستثمار أرض قليلة الثمر وشدة التضامن لدفع شر المغير • وقد عاشت هذه الدولة في ظل الملوك حيناً • ثم في ظل الارستقراطية لقرب نظامها من النظام الملكي واتصالها به • ثم دنت من النظام الجمهوري قليلاً قليلاً حتى جاء سولون فأخذت الديمقراطية تظهر وتعلن وجودها وقدرتها على الحياة • وفي قليل من الزمن ظهر أن الديمقراطية نافعة مغنية ، وبلغ من ذلك أن أنقذت اليونان من غزوات الفرس ، فزعت عرش هؤلاء وخفضت كلمتهم وأدالت دولتهم • وكان ذلك سبباً في أن ظهرت أثينا بين أمم اليونان وكبرت مكاتنها واعترف لها بالفضل على كل المدائن الأخرى •

وكانت حياة اليونان الأولين حياة دينية تعددت فيها آلهتهم وارتفع فيها الماضون من أبطالهم الى مركز الألوهية أو ما يقرب

منه • وكانوا يقيمون أعياداً سنوية للآلهة وبنوع خاص لديونوزوس آله الخمر ولدمتير آلهة الخصب • وكان الشعب يجد من الحفل بهذه الأعياد والآلهة ما يسمح له بالافراط في الأكل والشراب والسكر والسرور الى حد نسيان هموم الحياة وشقائها • وفي هذه الحفلات كان يلقي الشعراء والقصصيون طائفة من الناس أبياتاً ملؤها الحزن يجيئون بها هذا الشاعر حين يلقي شعره يسط فيه ألم الآلهة أو لذته • وكان هذا أول مظهر من مظاهر التمثيل •

ثم ارتقى التمثيل بعد ذلك وانتقل من مجرد وصف آلام الآلهة وملذاتهم الى وصف حياة الأبطال وأعمالهم الى استعادة مناظر التاريخ • ووضعت الآلهة بعيداً ترقب أكثر مما تعمل •

وكان أول من خطا بالشعر التمثيلي الخطوة الأولى ذات الأثر ايسكولوس • كان من أسرة أرستقراطية وولد في قرية مقدسة تدعى ايلوزيس يحج الناس اليها من كل وجه لتكريم دمتير آلهة الطبيعة الحية الخصبة • وشهد حرب اليونان وفارس في وقعة مارتون وشغف بالشعر الغنائي فضرب فيه بسهم ثم كلف بالتمثيل وتقدم الى المسابقة فيه ولما يتجاوز السادسة والعشرين من عمره وانتصر في مسابقاته حتى غلبه سوفوكليس في آخر أيامه •

وكان اتجاه ايسكولوس تمثيل ارادتنا الانسانية في تصلبها وقوتها وعنادها واندفاعها ، ثم اذا الارادة الكبرى ارادة القضاء

الهادئة المطمئنة تحول دون ما أردنا وتذهب بكل تصلبنا وعنادنا هباء وتنفذ هي قدرها من غير جهد ولا عناء •

وهنا يذكر لنا الدكتور طه حسين فضائل ايسكولوس الفنية وكيف عبر عن فكرته القائدة المتحكمة في رواياته المختلفة وكيف نجح في ذلك أكبر النجاح •

أما سوفوكليس فقد ولد في كولونا ونشأ فيها نشأة قروية خشنة بعض الخشونة ثم انتقل الى المدينة فتأثر بما فيها من لين العيش ونعومته • وكان لهذين الأثرين في حياته كشاعر ماسهل عليه الجمع بين القوة والرقه ، والشدة المتناهية والانصات لصوت العقل • ولقد فاق ايسكولوس وبزه في آخر حياته غير مرة بقوة عبقريته الشاب المتلائمة مع عصر كان ايسكولوس ، وقد صار شيخا ، قد فرغ منه • وزاد هذه العبقرية أن العصر الذي كان فيه سوفوكليس هو العصر الذي ارتقى فيه العقل اليوناني والشعور اليوناني الى حد أصبح فيه كل انسان محسا بوجوده وبشخصيته على طريقة شديدة يود معها لو أكره كل شيء على أن يعترف بهذه الشخصية ويشعر بذلك الوجود •

لسنا ندعى اقامة المقارنة بين الشعاعين الكبيرين في هذه الكلمة • ومن شاء الوقوف عليها فليرجع الى الصحف المختارة ويرى تطور العصر والموازنة بين مختلف ما كتب كل منهما • وانما نريد أن

نشير الى أن شعرهما جميعا بلغ من السمو والعظمة والقوة والمتانة ما يجعلنا نعتقد أن السبب في عظمة شكسبير وراسين وكرني راجع ، فضلا عن عبقريتهم الطبيعية ، الى عظمة ذلك الوحي اليوناني والروماني الذي كان يمدهم • وليس في مقدور عصورنا الحاضرة عصور التحليل الدقيق وفحص الخلايا وتعرف الجزئيات والبحث وراء النتائج بعد استقصاء المسببات • أقول ليس في مقدور عصورنا التي هجرت البساطة الطبيعية العظيمة وارتكست فضلا عن ذلك فيما هي فيه من ترف مفسد مذل أن ترقى مراقى ايسكولوس وسوفوكليس ومن نسجوا نسجهم واستمدوا الوحي منهم • وهل نرى اليوم مثل أنتيجونا قتل أخوها كل واحد منهما صاحبه وكانا في رياسة جيشين متحاربين فأمر ملك طيبة المظفرة في هذه الحرب بأن يدفن المدافع عن طيبة وأن يحرم الثاني من شرف الدفن ومن الطقوس وأن يبقى بالعراء نهبا لكواسر الطير وعوادي الوحوش • فالت أنتيجونا على نفسها الا ما دفنت أختها وأقامت له كل الفرائض رغم ما أمر الملك ورغم عناية الحراس القائمين بالحراسة • فلما استدعاها كريون اليه وقفت في وجهه وقفة جديرة بهلينا القديمة ولم تحفل بالموت وان جزعت على شبابها تفارقه في غضارته ونضرتة وتفارق معه الطبيعة الحلوة في أجمل أوقاتها وأبهاها • واذا كان مثل أنتيجونا غير معروف اليوم فان ما وضعه سوفوكليس في فمها من الألفاظ جدير بعبقرية سوفوكليس وبعظمة أثينا • اسمع مثلا

كلمات أنتيجونا حين ترد على كريون لما تشدد في سؤالها عن مخالفة أمره ودفن أخيها قالت :

— ذلك لأنه لم يصدر عن الآلهة دوس ولا عن مواطن آلهة الجحيم ولا عن غيرهم من الآلهة الذين يشرعون للناس قوانينهم • وما أرى أن أوامرك قد بلغت من القوة حتى تجعل القوانين التي تصدر عن رجل أحق بالطاعة والاذعان من القوانين التي تصدر عن الآلهة الخالدين • تلك القوانين التي لم تكتب والتي ليس إلى محوها من سبيل •

— لم توجد هذه القوانين منذ اليوم ، ولا منذ أمس ! هي خالدة أبدية وليس من يستطيع أن يعلم متى وجدت • ألم يكن من الحق على اذن أن أذعن لأمر الآلهة من غير أن أخشى أحدا من الناس • كنت أعلم اني مائتة • وهل يمكن أن أجهل ذلك حتى لو لم تنطق به ؟ ولئن كان موتى سابقا لأوانه فما أرى في ذلك الا خيرا •

— ومن ذا الذي يعيش من الآلام في مثل الهوة التي أعيش فيها ثم لا يرى الموت سعادة وخيرا • فأنت ترى اني لا أعد هذه الآخرة كأنها عقوبة ؟ فلقد كنت أتعرض لما هو أشد لنفسى ايذاء لو اني تركت بالعراء أخا حملته الأحشاء التي حملتني •

— ذلك وحده هو الذي كان يجعلني أشعر بهذا اليأس والقنوط • أما ما دونه فما كان ليحزنني أو يؤثر في • فاذا قضيت بعد ذلك

على ما فعلت بأنه نتيجة جنون فمثل هذا القضاء لا يصدر الا عن أحق مافون •

فالى هذه العصور القديمة اذن يجب أن نرجع لنفيض على أنفسنا المتمدينة المدنسة بأطماع المادة شيئا من هذا الروح القوى الكبير الذي يعرف أن فوق المتاع والشرف واللذة المادية شيئا أعلى من هذه اللذات الوضيعة • سيلا روحيا ينقذنا لحظات من تفكيراتنا الحيوانية الشرهة • أجل ! اليها يجب أن نطلب السر ومعنى الحياة علنا نتجه ولو قليلا صوب ما تملى به العواطف السامية الخالدة من أداء واجب النفس ولو كان في أدائه تلف الجسد •

لهذا فالخدمة التي قدمها الدكتور طه حسين للأدب العربي وللنفوس المتمدينة بنشره صحائفه المختارة خدمة جليلة • ولقد كان بودنا لو كان تحليله للنفس اليونانية أطول وأغزر مما كان • فتاريخ الإنسانية متضامن كله وصلة ما بين الحاضر والماضي هي الضمين بمعرفة السبيل الحقبة التي نسلكتها في المستقبل •

ولا ننظن صديقنا يحجم بعد نشره هذا الجزء عن الاستمرار في تاريخ اليونان بحثا واستجلاء وعرضا على قراء العربية • فان ما أضاء به في هذا الجزء على عصر ايسكولوس وسوفوكليس ليجعل النفوس كلها أشد ما تكون اشتياقا لترى على نور بحث الأستاذ وترجمته سائر عصور اليونان في مختلف نواحي حياتها •

طه حسين

٢

رد على نقد

حول كتاب جان جاك روسو

أخي طه

تحية واحتراما • أكتب لك عما تبرعت به من نقد الجزء الثاني من كتاب جان جاك روسو ، حياته وكتبه • ولست أقصد بما أكتب الا مناقشة صديق لصديق • وستجدها مناقشة خالية من كل ما تتهم به نفسك من عنف أو شدة •

أخذت على هذا الجزء الثاني من كتابي عن روسو أنه مطبوع طبعاً رديئاً على ورق غير لائق بكتب العلم والأدب • وأن به أغلاطا مطبعية كثيرة ، وأخذت على اني في اهمال الطبع وعدم اختيار الورق وعدم العناية بالتصحيح أزدري الجمهور ، وأنى لا أحفل باللغة كما ينبغي ، وأنى لم أضع لكتابي فهرسا ولم أبوبه ، وجعلت لهذا النقد أكثر من أربعة أنهر في « السياسة » • ثم أثبتت على الكتاب بأن موضوعه جان جاك روسو ، وبأن كاتبه هيكل • وجعلت لهذا الشئ نصف نهر من أنهر السياسة •

ولست أخفيك أنى أشعر بأن نصف النهر هذا فيه من المعنى ما « يخجل تواضع » روسو لو أنه كان حيا ، وما « يخجل تواضعى » أنا اليوم • واعذرني اذا استعرت في هذا المقام عبارة سعد زغلول • لكنى أود أن أسألك عما اذا كان القارئ البعيد عنى وعن روسو يشعر بمثل شعورى بعد أن يفرغ من قراءتك ، وقد عرف أن الكتاب مطبوع طبعاً سيئاً على ورق ردى ، وأن به خطأ مطبعياً واهمالاً لضبط بعض الألفاظ من الجهة اللغوية ، وأنه مع ذلك كتاب دسم مفيد ، لكن سوء طبعه وورقه يصد عن قراءته ؟ فما الذى يمكن لهذا القارئ أن يقف عليه من أمر الكتاب • ما هو هذا الغذاء الأدبى والعقل الذى لا يستطيع أن يصل اليه والذى كان حقاً عليك أن تدله عليه ؟ ألا تظن أنه - ولم يستدل على شئ منه - يشعر بأنك لم تقرأ الكتاب بل اكتفيت بتقليب صفحاته ، واقتصرت بعد ذلك على الكتابة عن الشكل والصورة الظاهرة من غير أن تكلف نفسك عناء الوقوف على موضوع الكتاب لترى ان كان سوء شكله يستحق احتمال القراء عناء مطالعته ولتقدر مباحث الكاتب فتحكم له أو عليه •

ثم هب يا صديقى ان قارئك كان رجلاً صالحاً من أهل الأزهر الذين تعودوا قراءة الكتب مطبوعة على الورق الأصفر أو النباتى ولا تزيد على الكتاب الذى تفضلت بنقده بهاء ولا رواء • وهب ان

قارئك كان من الذين يولعون باستقصاء ما فى الكتب مهما يحملهم هذا الاستقصاء من عناء ، وهب أنه كان من الذين لا يحفلون بالظواهر ولا يعنون كثيرا باللباس ولا يفهمون قيم الناس بأرديتهم ويحسبون التأنيق لهوا ، فماذا يكون حكم هذا القارئ على ما كتبت حين يراك اقتصرت على نقد الطبع والورق • وهلا تخشى أن يقول لك ان وضع صحيفة فى آخر الكتاب لبيان الخطأ والصواب كانت تكفى لرد نقدك الألفاظ • وانه كان أحوج الى العلم بشئ من موضوع الكتاب •

أما نقدك غياب الفهرس والتبويب فكنت أود أن أشاركك رأيك فيه لولا أن هذا الجزء الثانى من كتاب جان جاك فى غير حاجة الى فهرس أو تبويب • فهو يلخص رواية هلويز الجديدة وكتاب التربية وينقدهما • وليس فيه شئ آخر • فهل كان يكفىك أن يكتب بدل ٩ و ١٠ و ١١ - هلويز الجديدة ، واميل ، وصوفيا ، كما فعل فاجيه ولتر وغيرهما من الذين كتبوا عن روسو ؟ وهل تحسب أن الفارق كبير فى نظر العلم والآدب الى حد لا يصبح معه نقدك مشوبا بشئ غير قليل من الاسراف الذى ذكرت أنك لا ترضاه •

وتقول لو أنك كنت غنيا لقيمت بطبع الكتاب فى صورة تليق بروسو وبهيك • وانى أشكر لك حسن ظنك ورقيق شعورك •

وربما رأيت أنت كتابى على غير ما رأيته لو أننى كنت غنيا • على أنى لا أقول لك ذلك عن ثقة • فان بى عيا آخر قد يحول دون اتقان الطبع وأظنك تعرفه • فانى تتحكم فى صفتان ليس أضر منهما على تجارة الحياة وتبادل المنافع • هاتان الصفتان هما الأنفة والحياء • وقد أسرف الحظ فيما خلعه على من كل منهما الى حد انقلب معه ما يجده الناس فى كل منهما من فضل عيا عدى ونقصا • وليس لى من سبيل الى محاربة هذا الاسراف فى الصفتين الا أن يستطيع الانسان محاربة طبعه •

هاتان الصفتان تحولان بينى وبين الناس وتجارتهما • وأشهد أنى ما اغتبطت يوما لهذا العجز • كما أشهد أنى ما حزنت له يوما • فهو يحمينى من شرور كثيرة ، ويدع المجال أمامى فسيحا لأخطئ من نعيم الحياة بما تيسره المقادير من غير أن أخشى مداخله الناس فى أمرى لتكدير صفو نفسى • ثم هو فى نفس الوقت يمنع على الاستفادة من معاملة الناس والاستعانة بذوى الاخضاء منهم فى طبع كنى وتصحيحها وتوزيعها واسترداد نفقاتها لطبع كتب أخرى كما يمنع على الاستفادة من معاملتهم فى غير هذه من شؤون الحياة ويضطررنى الى القناعة من علاقاتى بالناس بما ييسر لى أقل حظ من النعيم أطمع فيه • فانت ترانى أشد ما أكون غبطة مادمت جالسا الى مكتبى متصلا بالناس فى غير حاجة الى معاملتهم والاتجار معهم •

وترانى أشد ما أكون حياء وحيرة ما اتصلت بالناس فى تجارة •
وهذا يا صديقى هو السر فيما رأيت من سوء ورق كتابى وطبعه •
وهذا هو السر فيما تتهمنى به خطأ من ازدراء الناس • ولو أنصفت
لقلت انه عكوف النفس على ذاتها وقناعتها بالرضا الداخلى الذى
لا يعنى كثيرا بحكم الناس ، لأن حكمهم لا يصل اليه وان وصل
فلا يعلق عليه •

وقد لا يسوؤك فى هذا المقام أن أخبرك انى حين قرأت نقدك
ابتسمت ان رأيك تأثرت فيه بصداقتك اياى أكثر مما تأثرت
بموضوعك • فانك قد عالجت اخفاء ما تبعته المودة فى نفسك من
محبة صادقة فتم حرصك على التعرض لشكل الكتاب دون موضوعه •
مع اظهارك الاعجاب بالموضوع عرضا ، على أنك كنت تود أن يكون
ما يظهر للناس من صاحبك بالغا ما يستطاع بلوغه من الكمال •

لكنك يا صديقى تعلم ما انطوت عليه نفسى ، وتعلم انى لا أكتب
الا ما يكون متاعا لى ولذة ؟ فاذا نشرته بعد ذلك فلا أنى لا أستطيع
المحافظة عليه ، وأخشى أن يضيع وقد أحتاج اليه يوما لآلئذ
بمجهوداتى الماضية فى الساعات المجدة من حياة الحاضر • وهذا
هو ما دعانى لتقسيم ما كتبت عن روسو الى ثلاثة أجزاء ، فكنت
كلما فرغت من قسم من بحثى وهجمت على مشاغل الحاضر وخشيت
أن أؤخذ بها الى حد نسيان ما كتبت قدمته للطبع لكى لا يضيع •

وهذه غاية يكفى لبلوغها أن يطبع بأقل نفقة ممكنة ومن غير عناء
كبير •

على انى أعدك يا صديقى ان أراد الحظ لى أن أظهر للناس كتبا
أخرى بأن أجاهد لأحرص على رضاك ، واذا أنا وجدت من عناية
الأقدار ما يسمح لى باتمام الجزء الثالث من كتاب روسو - وهذا
ما لا أعدك به - فلن أكتفى بما اكتفيت به فى الجزأين الأولين ولن
أتركه بغير فهرس أو تبويب ، ولن أطبعه الا على ورق يعجبك ،
ولن أتركه بغير بيان لما فيه من خطأ مطبعى ، ومن زلات القلم حين
الكتابة •

لكنى مع ذلك كنت أرجو أن لا يقف نقدك عند الغضب لى منى ،
واظهار هذا الغضب فى ثورة صريحة ؟ وكنت أود أن تتناول
موضوع الكتاب وأن تبين لقارئك فى شىء من التفصيل ما تراه من
وجوه حسنة وقبحه وكماله ونقصه • فقد يمكن ملافاة ما كان من
نقص فى الطبع والورق عند اعادة طبع الكتاب سواء أعدت أنت
الطبع أو أعدته أنا أو أعاده غيرنا • لكن ملافاة نقص الموضوع
لا تكون الا اذا دل النقاد المؤلف على مواقع الخطأ فى البحث ومواضع
التواء الدليل • وأصدقك القول انى أحوج الى هذا النقد منى الى
نقد الشكل والصورة ؟ فنقد الشكل والصورة أعرفهما وأعرف
أسبابهما من غير حاجة الى أن يدل عليهما أحد ، كما أعرف وسائل

علاجهما • وهذه الوسائل على ما تعلم يسيرة لمن أراد الإصلاح •
فأما النقص في الموضوع وأما التواء الدليل فيحتاج إصلاحهما إلى
تنبيه خاص من أمثالك الأصدقاء المخلصين ذوي الفضل والعلم •
فهل لك أن تكلف نفسك هذا العناء فتتغننى وتتفع الناس ، ويكون
الشكر لك مضاعفا •

وما أحسبك حين تعرض لهذا النقد مضيقا وقتك سدى • فان
في رواية الهاويز تحليلا نفسيا شائقا ومباحث فلسفية غير تافهة •
وكتاب التربية هو خير ما كتب روسو • واحسبني حين لخصتهما
ونقلتهما لم أترك شيئا جوهريا مما جاء فيهما أو ورد عليهما ، وان
كنت قد أوجزت في التلخيص والنقد فذلك لأوفر على القارئ
وقته ولأحول بينه وبين الملل ولأعصم نفسه من زلة ادعاء العلم بما
لا أعلم •

وقبل أن أختم هذه الكلمة أرجو أن أعيد أمامك كلمة مما سطرته
في مقدمة الجزء الأول لتكون متسامحا معي بمقدار ما يسمح به
قدرى لمجهودي • قلت في تلك المقدمة : « لا أدعى استطاعة القيام
بهذا البحث على وجه كامل ، لأنني لم أتخصص له وانما هويته
فأخذ مني وقتا ومجهودا كانا من خير الأوقات والمجهودات التي
أنفقت في حياتي فلم أشعر معهما بألم أو بملال ، بل كنت أتنقل إلى
تذوق أنواع من اللذة وأشعر في أعماق روحي بدسم ما يصل إليها

أثناءهما من الغذاء • ولكنني على كل حال لم أتخصص • والبحث
الكامل لا يأتي الا بالانقطاع والمزاولة والامعان وطول التفكير في
الساعات والأيام والأشهر المختلفة ، وعند مراجعة المؤلف ومن كتب
عنه من الكتاب الكثيرين جدا • واذا كنت قد قرأت كتب كثيرة فهي
على كل حال قليلة إلى جانب ما كتب أو أخذ عن روسو » •

هذا ومع شكرى لك على حسن عنايتك بكتابي أرجو أن تتفضل
بقبول فائق الاحترام •

حديث الشمس

تذاكر الناس شأن أمية بن أبي الصلت عند النبي (صلعم) فقال : أمية آمن شعره وكفر قلبه • وبينما أبو بكر الهذلي بين يدي عكرمة يوما إذ قال له : أفرأيت من يبلغنا عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال لأمية آمن شعره وكفر قلبه • فقال عكرمة هو حق • فما الذي أنكرتم من ذلك • قال أبو بكر أنكرنا قوله :

والشمس تطلع كل آخر ليلة

حمراء مطلع لونها مسود

تأبى فلا تبدو لنا في رسلها

الا معذبة والا تجلد

فما شأن الشمس تجلد • قال عكرمة : والذي نفسي بيده ما طلعت قط حتى ينخسها سبعون ألف ملك يقولون لها اطلعي ، فنقول : أأطلع على قوم يعبدونني من دون الله ، فيأتيها شيطان حتى يستقبل الضياء يريد أن يصددها عن الطلوع فتطلع على قرنيه فيحرقه الله تحتها • وما غربت قط الا خرت لله ساجدة فيأتيها شيطان يريد أن يصددها عن السجود فتغرب على قرنيه فيحرقه الله تحتها • وذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم ، تطلع بين قرني شيطان وتغرب بين قرني شيطان (الأغاني جزء ٣ ص ١٨٤ طبعة ساسي) •

كذلك كان شأن الشمس أيام عكرمة : لا تطلع الا كرها يدفعها جيش عرم من الملائكة • وما كان تقاعدها صلحا معاذ الله أو تيتها • بل زيادة في الخشوع وغضا على الضالين الذين يقرون لها بالالوهية • ومهما يكن عدد هؤلاء قليلا الى جانب المؤمنين من بني آدم والى جانب الطير والوحش تسبح بحمد الله وتقديس له ، والى جانب الخليقة الخاضعة الخاشعة فانهم يغيرون من نفس معبودتهم حتى تنزع الى العصيان لولا سبعون ألف منخاس تناول جسدها حتى يدمى ويصل الى حد ايلامها • هناك تبدو حمراء متوردة اللون آسفة • ولا تلبث أن تبدو حتى يقابلها من أعداء الله مريد يريد أن يحجب ضياءها ويقف بقرنيه دون مسيرها ، فتصب عليه نارها ويحرقه الله تحتها • وتستمر سيرتها مضية ناصعة تعم الأرض بنورها وتأخذ اليها أبواب المعجبين بها • فاذا تمت دورتها وجاء وقت مغيبها عاودها الأسف على ما رأت فتخر لله ساجدة منية • هنالك يجيء شيطان ثان يريد أن يصددها عن السجود فيحترق دون ما يريد ، وكذلك يتم أمر الله •

أما اليوم فقد انقضت تلك المعارك مما بين الملائكة والشمس والشياطين • وصارت الشمس غير ذات ارادة وانما تسير في نظام الكواكب الأخرى • أصبحت لا تطلع ولا تغيب وانما تدور الأرض حولها في حركة آلية لا تملك ارادة أيا تكون تحويلا لها ولا تبديلا • وأصبح توردها غير متعلق بمناخيس الملائكة الذين يجلدونها •

وانما هو نتيجة تكسر الأشعة في أثر الهواء • ولعل السر الخفي في حدوث ذلك الانقلاب الهائل في نظام الكون أن عبادة الشمس انقضت من زمان فلم يبق من سبب لغضب الشمس وتقاعدها عن الطلوع ولم يبق محل لنخس الملائكة اياها • ولما كان من اثر ذلك أن تركت الشمس نفسها تسير كما توجهها الظروف ، وكانت كل ملكة لا تستعمل تدثر بالزمان ، انحطت قوة الارادة من نفس الشمس وتلاشت رويدا رويدا حتى انعدمت وبقي ذلك الكوكب العظيم بلا ارادة يسير في موكب الكواكب الأخرى من غير رأى ولا تدبير •

قد يرد على هذا التفسير المعقول اعتراض يجدر بنا أن نرده • ذلك أنه اذا كان دور الملائكة في نخس الشمس قد انقضى بانقضاء عبادتها ، وكان سجودها قد انتهى كذلك ، فإن الشياطين التي كانت تقف في وجهها صباح مساء لا يزالون بين أظهر الخليقة • فما الذي يصددهم عن مناوشتها ومناواتها كما كانوا يفعلون من قبل؟ واذا كانوا لا يزالون يقومون بدورهم فإن معارضتهم تكفل استمرار تنبه ارادة الشمس لاحراقهم كلما تصدوا لها • ويكون ذلك معناه بقاء هذه الارادة التي لا يبعد أن تستعملها صاحبها اليوم أو غدا اذا أحوجت الظروف كما كانت تستعملها من قبل •

ولو ذكر المعترض أن تعرض الشياطين للشمس من مطلعها

ومغيبها انما كان لصدها عن ذكر الله والسجود له وقد انعدمت هاتان الخلتان منها بانعدام سببهما لرد على نفسه بنفسه • كذلك فإن احراق شياطين من عتاة الشياطين كل يوم - نقول عتاتهم لأنه ان يغمر بنفسه منهم للقيام بمثل تلك المهمة ضعيف أو عاجز - من شأنه أن يوقع في قلوبهم الرعب والفرع •

اذن فهم لا يقدمون على تضحية لا طائل تحتها ولا نتيجة لها وهي فوق هذا وذاك قد انعدم سببها • لذلك تركت الشمس حتى وصلت الى ما هي عليه اليوم • كوكب يدور في موكب الكواكب من غير ارادة لا يطلع بين قرني شيطان ولا يغيب عن قرني شيطان •

ولعل أبا بكر الهذلي كان قد نسي عباد الشمس فلم يصله علم ما كانت تقاسي بسببهم الا عن طريق عكرمة • ولا شك أنه بقي مدة جهله محروما من التمتع بتصور الحركة العظيمة التي كانت تقوم في الجو ساعة سحب الشمس من وجارها في أبحر الظلمات والنور • لكنه على كل حال تمتع بهاته الخيالات بعد ما جاءه من العلم • أما نحن فقد أفقدنا العلم هذه التصورات وأضاع علينا المتاع بها وبما تحويه من جمال •

على أنه خلق لنا عنها عزاء لا ندري ان كان حقا • ذلك هو اقتناعنا بأننا صرنا نعلم •

مصطفى صادق الرافعي

تاريخ أدب العرب

طلبت الجامعة المصرية للكتاب والأدباء في مصر أن يضعوا تاريخاً لأدب اللغة العربية ليكون كتاباً لطلابها فكان من السابقين لاجابته حضرة مصطفى صادق الرافعي . وقد ظهر أخيراً الجزء الأول من كتابه . وهو جزء ضخم كبير القطع يقع في أربعمئة وأربعين صفحة . وقد بقي أمام المؤلف أربعة أجزاء « من غرار هذا الجزء وحجمه » . فنحن لذلك انما نحكم الآن على قسم من خمسة أقسام من التاريخ العام الذي أخذ المؤلف نفسه بوضعه . على أننا سنبدى آراء تشمل هذا الجزء وما بعده فيما يختص ببعض المسائل كأسلوب الكاتب وطريقة تقسيم الكتاب وسيره في عمله . وآراء أخرى تختص بهذا الجزء وحده لأنها تقتصر على النظر في محتوياته .

المؤلفون اليوم في مصر وفي البلاد العربية على العموم قليلون . والمواضيع التي يطرقونها محصورة . لذلك ترى كل واحد منهم متى أخذ يكتب في موضوع أراد أن يستوعب في كتابه كل ما جاء في هذا الموضوع أو يمسه ، ويكسب من ذلك أن يخرج الكتاب كبير الحجم يسر مؤلفه ويعجب الناظر إليه . وقليل جداً من يحصي

كتابته في الموضوع الذي يبحثه الا متى اضطرت الحاجة للمساحات بغيره . وهم في ذلك معذورون . لأن هذه الطريقة الدقيقة التي تضطر الكاتب لأن يحدد عمله في الوقت عينه يتعمق ما استطاع في دائرة كتابه انما تجيء نتيجة لازمة لكثرة البحوث والكتاب مما يضطرهم لتقسيم العمل فيما بينهم ويجعل كل واحد ملزماً أن يخرج للناس جديداً من الأفكار أو الأشكال أو المعلومات حتى يجدوا في قراءته لذة أو فائدة . أما في البلاد الفقيرة فكل بضاعة رائجة لأن المطلوب دائماً أكثر من العروض . لهذا أرى واجبا أن ننظر لكتابنا من غير تشدد وأن لانطالبهم فيما يعملون باتباع طريقة دقيقة . فاذا جاء الكاتب الذي يعرف طريقة التأليف ويفهم أن المطلوب ليس هو وضع أخبار ومعلومات بعضها فوق بعض كنا مدينين له بالشكر الكبير .

وأظهر الكتب دلالة على ما أقول ما كتب عندنا عن أدب العرب . فانك قل أن تجد في هذا الباب على أنه مطروق كتاباً انتهج صاحبه فيه طريقة تأخذ بنفس القارئ جدتها أو جودتها . والغريب أنهم حين يريدون الكتابة في تاريخ الأدب أي حين يريدون أن ينقلوا للقارئ ابن القرن العشرين نفس أهل القرون الأولى تراهم انتقلوا هم أنفسهم بين أهل هذه العصور المتقدمة وانتحلوا لأنفسهم طريقة أولئك في الفهم والفكر والتعبير ثم بقوا هناك من غير أن يترجموا

لنا عن صور نفس أهل هذه العصور • لذلك كانت كتبهم قليلة الفائدة • لأن الواجب المهم على الكاتب ليس أن يسرد الوقائع أو أخبار الرجال أو آراءهم العامة المعروفة بل أن يبين لقارئه النقط النافعة الظاهرة فيما يريد أن يكتب عنه • فإذا فرغ القارئ من الكتاب خرج منه بفكرة معينة مضبوطة تدل على نفس الكاتب ومبلغ تقديره للحوادث • والا فما معنى أن يكتب كاتبون مختلفون فضلا عن عدد كبير من الكتاب في علم واحد أو مسألة واحدة أو تاريخ خبر مخصوص إذا كان القصد نقله عن كتاب قديم أو رواية موجودة • أليس الأحسن ، أن صح ذلك ، أن نرجع للكاتب القديم نفسه أو أن نراجع الرواية •

وعذر بعض هؤلاء الكتاب أن اللغة العربية هي لغة الماضي والحاضر والمستقبل • لذلك فخير من أن يكتب بها هو من يضاهي المتقدمين من الكتاب في ألفاظه وتعابير • وكأنهم ما علموا أن الألفاظ والتعابير تتغير من زمان إلى زمان ومن مكان لآخر • وأنقل هنا كلمات مصطفى صادق الرافعي في هذا الموضوع قال (ص ٤٩) : « الإنسان ملهم بفطرته أصول الحياة وليست اللغة بأكتر من أن تكون بعض أدواتها التي تعين عليها ولذا تراها في كل أمة على مقدار ما تبلغ من الحياة الاجتماعية قوة وضعفا » • وقال (ص ٥٥) : « اللغة بنت الاجتماع وهي ألفاظ ملك السامع في الحقيقة لملك المتكلم » • وهذه الفكرة

عناية في الدقة والامعان • فإذا كان ذلك فلم يتعد الكتاب بمراحل عما يتصوره قارئوهم أو سامعوهم ، ولم هم يذهبون في تحريرهم كأنما يريدون تعليق كتبهم على أطلال العرب •

لنا اليوم لغة كتابية متعارفة بيننا نكتب بها في جرائدنا وفي رسائلنا وفي مذكراتنا فلم ننساها مرة واحدة ساعة نريد أن نكتب كتابا في علم ما وخصوصا في تاريخ أدب العرب ؟ أحسب ذلك راجعا لتقدير الذين يتناولون هذا النوع من الكتابة أنهم هم أنفسهم أدباء فيجب أن تسمو كتاباتهم عن هذه الكتابة المعروفة اليوم خيفة أن لا يكون لهم فضل • هم يظنون أن القارئ يحنى رأسه اعترافا بعلو مركزهم حين يسمعهم يجيئون بالألفاظ غير المعروفة ولا المتداولة بالرغم مما يكون في تركيبهم من التعقيد اللفظي والمعنوي وفي أساليبهم من الركاكة • وهذا الظن من جانبهم يكفي ليفهم الكثيرين قدرهم بمجرد قراءتهم •

ليس الأديب بالشخص العارف لعويص الألفاظ ومتروكها ولكنه الشخص الذي يستطيع أن يلبس المعاني الجميلة أو الأفكار الدقيقة أو الصور أو النغمات أو أي شيء مما يقع تحت الحس أو يجول في النفس لباسا يظهر من خلاله جمالها وابداعها • وكلما سهلت ألفاظه كانت أعذب سماعا وأقرب للقلب وأحب للنفس •

يخيل لى أن الكاتب الذى ينتزع نفسه من الوسط الذى يعيش فيه ويتحل فى أسلوبه وخيالاته وأفكاره صورا ليست له ولا لقومه شخص شارد عن الجماعة التى يقيم بينها خارج عليها منكر نفسه وأصحابه • والا فماذا الذى يدعو كاتباً عاش فى مصر وبين المصريين ليستمطر الغيث أو يعشق البادية ما لم يكن منكراً مصر ومقامه فيها •

(أسلوب كتاب الرافعى)

وانى آسف أن أقول ان كتاب تاريخ أدب العرب فيه شيء من هذا الرجوع الى أطلال سكان شبه الجزيرة الآسيوية • ويكفى دليلاً على ذلك أن أنقل للقارئ السطور الأخيرة من كتابه • قال (ص ٤٣٧) « هذا مجمل من أمر الرواية والرواة ولولا أنى حسبت من نفس المقال ، وعدلت بالقلم عن انتجاع الغيث الى التلال لأضيت البحث لطيته • وتركت الخاطر على سجيته • ولكنها قصة من جناح قد طار • وإثارة من علم صار من الإهمال الى ما صار • وان هو الا بساط كان منشوراً فطوى وحديث قيل ثم روى » •

أريد أن أطابق بين مثل هذه الأسطر - والقارئ يقع على مثلها من حين لآخر فى عرض الكتاب - وبين اعتبار اللغة ملك السامع فأعجز دون ذلك • ويزيد عجزى حين أريد أن أطبق عليها قوله (ص ١٥٩) « الألفاظ فى كل لغة من اللغات انما هى أدوات الحياة

الذهنية الخاصة بالنفس كما أن مدلولاتها أدوات الحياة المادية الخاصة بالحواس » •

وانى لا أحسب المؤلف رجلاً يمكنه أن يسير فى كتابته على القواعد التى يضعها هو • وانما أحسب السبب فى وقوعه أحياناً فى النسيان شديد إعجابه بالعرب ولقنهم وأقوالهم وأعمالهم • ومفهوم أن الانسان يجتهد فى أن يتحدى كل ما يعجب به الا حين يرى هذا التحدى غير صالح • وفى هذه الحالة الأخيرة قد يغلب عليه النسيان • ذلك شأن الرافعى فى بعض ما كتب • أى انه نسيان منه لقواعده •

لذلك نراه فى غير هذه الأسطر يكتب بلغة معتادة وبأسلوب معتاد • أى أنه لا يمتاز فيهما بشيء خاص ولا تظهر له فيهما صفة معينة • بل ترى مادة الحياة قليلة فى هذا الأسلوب المتشابه • والسبب فى ذلك أن الرافعى لا يدعو لشيء معين فيكون أسلوبه خطايا • وليست عنده روح النقد الدقيق لتظهر فى كتابته • ولا هو متمسك بتقليد الأقدمين فتكون لهم صبغتهم •

ثم هو فى الوقت عينه غير دقيق فى انتقاء الألفاظ وترتيبها • بل يجيء أحياناً بجمل تكون من الغموض بحيث تستلزم وقتاً طويلاً لفهمها وهى لا تحتوى ما يستدعى ذلك من خبر غريب أو معنى عميق • مثال ذلك ما جاء فى صفحة ٩ ، قال : « ان تاريخ الآداب

ليس فنا من الفنون العملية التي يحدو فيها الناس بعضهم حدو بعض ويأخذ الآخر منها مأخذ الأول وتتساوق فيها الأمم على وضع واحد لأنها لا تتغير على الجملة في تعرف مادتها وتصرف أدواتها حتى يتعين علينا أن نجعل آداب لغتنا جميلة على آداب اللغات الأعجمية يفصل على أزيائها وان ضاقت به وخرج بارز الهيئة مجموع الأطراف متداخل الأعضاء وكأنه مشدود الوثاق أو مأخوذ بالخناق « ولو أنه اكتفى بقليل وقال « ان تاريخ الآداب يختلف من لغة للغة وليس من الضروري أن تنهج في الكتابة عن آداب لغتنا منهج الافرنج (أو الأعاجم ان شاء) حين يكتبون عن آداب لغتهم » لكان أظهر في المعنى وأقصر في اللفظ ولوفر على القارئ وقته وعلى نفسه البحث عن تشبيهات هي على خلوها من الجمال لا تؤدي معنى في هذا المكان •

أمثال هذه الجملة التي نقلنا كثير في الكتاب • ولا ندرى لعل اعتبارنا للبلاغة يختلف اختلافا كلياً عن اعتبار المؤلف ، فانا نراه يجيء أحيانا بسجعيات أو تشبيهات يخيّل إلينا أنها لا تنفق والبلاغة بحال • فقله مثلاً في (ص ١٨) « ثم ان موارد هذا التاريخ ان لم يتولها الكاتب بالذهن الشفاف • ولم يعتبرها بالفطنة النفاذة حتى يكون نبيها كالعراف » • قول قاصر جد القصور من جهة الفصاحة في انتقاء اللفظ ومن جهة البلاغة في حسن سبك التعبير • كذلك

قوله في (صفحة ١٣) « انا استفدنا تحقيق معنى اللغات بما يقطع الريب ويمتلخ عرق الشبهة فيما أيقنا به » • أفلا كان الأجمل به أن يتنازل عن « يمتلخ عرق الشبهة » ، ولا جمال فيه ولا ضرورة له • ومثل هذا يجده الانسان في مواضع متعددة من الكتاب • وهناك كلمة جميلة المعنى لا تسمح لي نفسي أن أعترف للكاتب بالبأسا ثوبا غير جميل من اللفظ • تلك قوله (ص ١٠) « من ذلك تجد الأمة التي لا حوادث لها ليس لها تاريخ » ولو أنه قال (لا تاريخ لها) لأعطى الجملة رونقا يزينها •

على أن أسلوب الكتاب وان لم يكن أسلوبا مثلاً في مجموعته وتنقصه غالباً طلاوة اللفظ ودقة التعبير فانه يصعد أحيانا حتى يكاد يكون بليغا • انظر الى قوله (ص ١٦٥) « فهي (اللغة) في الكفاية سواء يوم كانت لغة الطبيعة البدوية الخشنة لا تلقيها الا على السنة البدو الذين هم الجزء المتكلم من هذه الطبيعة الصامتة ويوم صارت لغة الحياة المنبسطة تصرفها الألسنة والأقلام في مناحي العلوم والآداب والصناعات التي قام بها التمدن الاسلامي » • وأنت تجد قطعاً جميلة كذلك في الفصل الذي كتبه عن أصل اللغات •

وأظن أن السبب في اختيار المؤلف أحيانا لألفاظ غليظة لا جمال فيها ما عنده من الاعتقاد بأن اللغة العربية والخشونة صنوان ، وأن الرجل متى سكن المدن ذهب فصاحته « وبدأت سليقته تتحضر

فكأنما انصدع مفصل العربية من لسانه » (ص ٢٥١) • وهذه الفكرة الغربية ان صحت عند العرب فلا أستطيع أن أفهم كيف يمكن أن تصح بين المصريين الذين هم متحضرون بطبيعة بلادهم • أم أن الرافعي يجاهد لينسلخ عن طبيعة مصر ليبقى بذلك عربيا فصيحاً • أخشى ان صح هذا أن يقصر دون الاعراب ودون الحضر •

أسلوب البادية تتفق معه الخشونة أحيانا • هذا صحيح • ولكن ليس معنى هذا أن العربى يتكلف الخشونة ليكون فصيحاً وانما معناه أنها تجيئه بطبيعة الوسط الذى يعيش فيه • أما أسلوب أهل الحضر فان الخشونة لا تلائمهم وهو ينبو بطبيعته عنها • لذلك كان الكاتب من أهل الحضر الذى يكلف نفسه الخروج على طبع بلاده يجد نفسه منظورا من قومه وكأنه غريب عنهم وان أخطأ بعضهم أحيانا فى فهم هذه النظرة فظنوها نظرة الاعجاب • ولا شئ أدل على ذلك من أن ما يكتب يبقى قراؤه قليلون محصورون فى دائرة ضيقة • ويكون شأن المعجبين به شأن ريفى يرى البالون لأول مرة •

ثم ان بعض الكتاب يحب أن يوارى عجزه عن بلوغ درجة البلاغة فيتوارى وراء الألفاظ الغليظة السميكة ويتخذ لنفسه منها ستارا • وما أظن رجلا تسمو به ملكة القول أو توحى اليه الموجودات

مروح الشعر أو تجعله الأفكار يسير بخطى متتالية الأسباب المنطقية واحدا بعد الآخر فى حاجة أن يثقل نفسه بكلمات تحتاج الى الشرح والتفسير مما يدل على عدم دقتها وصلاحيها للمعنى المراد منها •

نشرت احدى المجلات المصرية مقدمة كتاب الرافعي لأول ظهوره وعدتها آية من آيات البلاغة • وانى لشديد الأسف أن لا أجد فيها هذه البلاغة وأن أراها ألفاظا متراكمة فوق ألفاظ وصورا عتيقة تتلو تشابه ضعيفة المعنى • وانما أعطاها فى نظرهم هذا الثوب من البلاغة أنها سميكة الألفاظ صعبة الفهم لمن يجب أن يكون دقيق الفهم • والى القارئ بعض عبارات منها : « هذا التاريخ علم قد كثرت عليه الأيدي واضطربت فيه الأقلام • واستبقت اليه العزائم حتى عثرت بها عجلة الرأى ولجاجة الاقدام • وقد أخضب فى الأوهام • حتى نفشت فى واديه كل جرباء وامتزج أمره بالأحلام الخ الخ » فأى بلاغة فى هذه الجملة التى لا تعطى معنى ذا قيمة يحتاج ضخامة التركيب الى حد تصبح الكلمات فيه لا معنى لها •

أسلوب الكاتب مرآته • فالكاتب السهل الأسلوب السيل الألفاظ هو الكاتب السهل موارد الفكر • والشخص الذى يعتمد فى بلاغته على غموض المعانى فلا ينتقى الألفاظ الدقيقة لمعانيها الموضوعية لها انما يدل بذلك على عدم وضوح أفكاره أمام نفسه •

طريقة أبي السامى فى التأليف

ويدل على ذلك ما اتخذ أبو السامى - وتلك هى الكنية التى اختارها الرافعى لنفسه ووضعها على غلاف كتابه - فى طريقة وضع كتابه وتأليفه • فانك تجده جاء ما بين طرفيه بأخبار ومعلومات وضعها بعضها الى جانب بعض بحيث يكون من كبير التجاوز أن نسمى هذا الوضع ترتيبا • وبالرغم من أنك تقرأ على غلاف الكتاب أنه « تاريخ آداب العرب » فانك تمر به من أوله الى آخره ولا تكاد تقف على كلمة واحدة عن آداب العرب وتاريخها • تجد فيه كل شئ عن العرب الا ما يخص أديهم • وكأن أبا السامى خشى أن لا يجد عنده من مواد التأليف ما يكفى ليظهر كتابه فى خمسة أجزاء من « غرار الجزء الأول وحجمه » فنقد منه الجزء الأول قبل أن يكتب كلمة واحدة فى موضوعه • بل لقد كتب عن أشياء لا تتعلق قليلا ولا كثيرا بأدب العرب ولا بتاريخه • ويكفى الانسان أن يراجع فهرست الكتاب ليعلم أن ما فيه لا يفيد مريد الوقوف على الآداب العربية شيئا مطلقا •

ولقد حسبت حين رأيت ذلك أنه وضع للفظ الأدب معنى خاصا به • وقوى هذا الظن عندى أن التعاريف التى جاء بها عن الأدب تشمل تحتها علوما متعددة • فهذه الكلمة تشمل على حساب ابن الأنبارى (راجع ص ٣٢) « ثمانية علوم : النحو واللغة

والتصريف والعروض والقوافى وصنعة الشعر وأخبار العرب وأسابهم • أما الزمخشري فجعل علوم الأدب اثني عشر • والرافعى نفسه يعتقد « أن كتب الأدب هى على الحقيقة كتب العلوم التى مرت » وبما أنه كان يكتب عن تاريخ الأدب فقد حسب نفسه مكلفا بطرق أبواب كل هذه العلوم وإيراد ما جاء عن العرب فيها •

ولو أنه سمى هذا الجزء من كتابه تاريخ اللغة العربية لكان أدق فى انتقاء عنوانه وأبعد عن أن يخدع القارئ الذى يحسب نفسه سيجد فى المجلد الضخم الذى يرى شيئا عن أدب العرب فاذا هو يراه خلوا منه على الإطلاق ، حاويا لمواضيع بعيدة فى الغالب عنه ، تتعلق بالنحو والصرف والفقه ولا صلة بينها وبين الأدب • هذا خلاف قسم عظيم وضعه عن الرواية والرواة يخيل للقارئ أنه يجد فيه شيئا عن الأدب فاذا هو متعلق باللغة وبالفقه ولا يفيد المطلع عليه عن أدب العرب شيئا •

هذه المواضع التى كتب فيها الرافعى مفيدة فى ذاتها وتستحق البحث وأن يتعمق فيها ويفتش عن دقائقها • لكن ذلك شئ وتاريخ أدب العرب شئ آخر • لا بأس لو أن الكاتب جاء بكل ما جاء به عن هذه العلوم فى مقدمته للكتاب • لكنه لم يفعل • فلك أن تأخذ كل الجزء الذى ظهر دليلا على أن المؤلف ليست عنده فكرة من أدب أية أمة من الأمم •

خلط أبو السامى بين اللغة فى ذاتها وبين أدب اللغة ؟ فصار حين وضع كتابه كالذى أراد أن يكتب عن الآلات البخارية فأطال فى البحث عن الحديد وأصله وكيفية تكونه فى طبقات الأرض وكيف أمكن استخراجه وكيف وصل الناس الى الانتفاع به وكيف تناقلوه • فهل هناك انسان يفهم أبسط الفهم فى الآلات البخارية يستطيع حين يقرأ هذا البحث أن يقول انه موضوع عن الآلات البخارية ؟ كذلك لا يستطيع انسان يقرأ كتاب الرافعى أن يقول انه مكتوب عن تاريخ أدب العرب •

هذا ، واذا نحن انتقلنا من هذه النقطة الى غيرها واعتبرنا الكتاب فى ذاته بالنظر الى المواد المجموعة فيه فماذا نرى ؟ عنى الرافعى نفسه وبحث كثيرا فى كتب العرب وأراد ان يخرج من بحثه بنتيجة يفخر بأنها شىء جديد • أما المعلومات التى فى الكتاب فكثيرة ومنها المفيد • لكن النتيجة العامة لا تفيد الا الأقلين وفى مواضع ليست بذات أهمية كبيرة •

من الفصول الطيبة فى ذاتها وان لم يكن لها مساس بأدب اللغة الفصل الذى كتبه عن أصل اللغات • فقد أبان فيه عن فهم للأمور ووقوف على ملاحظات الكتاب والعلماء الى حد يلذ القارىء ويفيده • واذا كان هو نفسه يعترف بأن ما كتبه ظنى أكثر منه علمى فذلك لا ينقص من قيمته ولا من حسن تقديرنا له • فقوله مثلا

(ص ٤٨) « من ثم قيل ان الانسان يستعمل الصوت للدلالة بعد أن استكمل علم الاشارة ولذلك بقى الصوت محتاجا اليها احتياجا وراثيا ثم ارتقى الانسان فى استعمال الأصوات بارتقاء حاجاته وساعده على ذلك مرونة أوتار الصوت فيه وتجدد هذه الحاجات كثرت مخارج الأصوات واتسع الانسان فى تصريف ألفاظه فنهيا له من المخارج ما لم يتهيا لسائر الحيوان » يدل على عدم تقيده بأراء المتقدمين تقيدا يبلغ حد التعصب •

لكن القسم الأكبر من هذه الفصول غير مستوفى بحثه • لذلك يغلب على ظنى أن المؤلف اعتبر جزأه الأول مقدمة لتاريخ الأدب وظن أن وقوف القارىء على كل هذه المعلومات ضرورى ليتمكن من حسن تفهم أدب العرب • ومع بعد هذه الفكرة عن الحقيقة فقد كان ممكنا اغتفارها لصاحبها لو أنه عرف أن يلبس ما كتب حفة المقدمة حتى لا يضل القارىء ويبلغ به اللال أن يعدل عن قراءة الكتاب • لكن والحال هى هذه فانا لا نستطيع دون الحكم على الكاتب بأنه سار على طريقة فاسدة وعلى الكتاب بأنه لم يصل الى شىء مما أراد منه صاحبه •

أهم الصفات لزوما فى مقدمة كتاب من الكتب أن تدل على روح الكاتب وكيفية تقديره للأشياء التى يريد أن يكتب عنها • وليس من ذلك شىء فى كل ما كتبه الرافعى • فانه كما سبق القول ليس

صاحب أسلوب حتى تتابع فيه الفكرة فيتسنى للقارىء أن يخرج منه نظرة عامة ولكنه مجرد جمع لقواعد وأسماء وحوادث لا تظهر الصلة بينها • وإذا نحن بالغنا فى التساهل واعتبرنا الجزء الأول مقدمة فانه لا يفي بهذا الغرض لأنه لا يقوم بذاته ولا يؤدى فكرة مما أراد المؤلف •

والغريب ان روح النقد ضعيفة للغاية فى كل الكتاب • وسبب ذلك فيما أعتقد أن أبا السامى اعتبر نفسه عربيا مكلفا باقامة تمثال للعرب ، لا مؤرخا يأخذ الوقائع ويزنها ويرتبها ليصل من ذلك لوضع تاريخ مفيد • فكلما جاء ذكرهم رأيتهم أرسل قلمه بالمديح من غير حساب حتى ليخيل للانسان أن عرب أبى السامى جماعة من الملائكة هبطوا الى الأرض ولبسوا أجساما انسانية ثم أقاموا بين الناس ليكونوا مثال الكمال البشرى ••• قال الرافعى (ص ٣٥)

العرب « هم جيل تدلت عليه الشمس منذ القدم فى هذه الجزيرة التى كأنها قطعة اختزلت من السماء مع الانسان الأول فلا يزال أهلها أبعد الناس منزعا فى الحرية الطبيعية وأشدهم منافسة فى مغالبة الهمم كأنما ذلك فيهم ميراث الطبيعة الأولى فهم منه ينبتون وعليه يموتون • سكان الفيافي وتربية العراء ينسبطون مع الشمس ويعيشون مع الظل ويطيرون فى مهب الهواء • بل أولاد السماء ما شئت من أنوف حمية • وقلوب أبية • وطباع سيالة (؟) وأذهان

حداد ونفوس منكرة • وقد أصبحت بقاياهم الضاربة فى بوادى العربية (أى بلاد العرب) ومصر وسورية لهذا العهد موضع العجب لأهل البحث من علماء الطبائع (من هم ؟) حتى أجمعوا على أنه لا بد لهذا الجنس فى جميع السلائل البشرية من حيث الصفات التى تتباين فيها أجناس البشر خلقا وحتى صرح بعضهم بأن هذه السلالة تستمر على سائر الأجيال بالنظر الى هيئة القحف وسعة الدماغ وكثرة تلافيفه (؟) وبناء الأعصاب وشكل الألياف العضلية والنسيج وقوام القلب ونظام نبضاته فضلا عما هى عليه من ملاحظة السحنة وتناسب الأعضاء وحسن التقاطيع ووضوح الملامح وفضلا عما فى طباعها من الكرم والأنفة والأريحية وعزة النفس والشجاعة ••• لا جرم كانوا أهل هذه اللغة المعجزة •

يخيل للانسان حين يقرأ هذا أن كاتبه اعرابى جاء من الصحراء يستجدى أحد أمراء العرب لا مؤرخ ينظر للناس والحوادث بعين الناقد الدقيق • ولكن لا غرابة فان الرافعى مولع بقول الشعر ومرجعه فى كل معلوماته كتب العرب وأسفارهم • فلا شك فى أنه يأخذ عنهم من أخلاقهم مدح الآخرين والتغنى بأخبارهم والذهاب فى الفجر الى غايات تظهر سمجة لمن لا يفهم طباعهم •

على أن ذلك ليس من شأنه أن يعث للنفس ثقة بما كتبه الرافعى • فمدار الثقة أن لا يترك المؤرخ نفسه الشهواته وأهوائه يرسل القول

على عوامه ، ولكن أن يتقدم للقارىء دائما بالبرهان ، بين يديه أدلته معتمدا عليها مظهرا أن كل حركة من حركات نفسه يظهرها قلمه إنما دعا إليها أمر معين يستدعيها • هنالك يجد القارىء نفسه مدفوعا ليعتقد صحة ما يقرأ ويؤمن به •

على أن كتاب الرافعى وإن خلا من حسن الطريقة وطلاوة التعبير وخرج عن الموضوع الذى كتب له فإن فيه مجموعا من المعلومات والأخبار والحوادث وبعض آراء طيبة تستحق أن يقرأها من يريد أن يقف على بعض مسائل خاصة عن لغة العرب والاختلاف اللغوى بين القبائل وأصل الحديث وروايته واتخاذ الرواية طريقا لتدوين الشعر إلى غير هذا من المعلومات التى لا تعد من يجب الإطلاع عليها • أما من يريد أن يقف على تاريخ أدب العرب فلا يتعب نفسه ولا يضع وقته بالبحث فى الجزء الذى ظهر من كتاب أبى السامى • ولنا شديد الأمل أن تكون الأجزاء التى ستظهر أشد مساسا بالموضوع الذى يكتبها صاحبها من أجله وأحسن عبارة وأدق وضع •

جورجى زيدان

تاريخ آداب اللغة العربية

تفضل حضرة الكاتب المؤرخ جورجى افندى زيدان فبعث إلى بكتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » على غير سابق معرفة بيننا • وتفضل فأرسل لى كلمة يسرنى جدا أن تكون أول مخاطب بينى وبينه • لذلك لم يسعنى حين وصلنى الكتاب إلا أن أنفرغ لقراءته بامعان • فلما فرغت منه حسبت من الواجب على أن أكتب عن الأثر الذى تركته قراءته فى نفسى اعترافا بفضل صاحبه وتبينا للقراء عن مبلغ تقديرى لقيمة ما يحويه •

جرجى افندى زيدان من أكبر كتاب التاريخ فى مصر • بل لا أبالغ إذا قلت انه هو الرجل الوحيد المتفرغ فى الوقت الحاضر لكتابة التاريخ • وتحت يدي قائمة كتبه تحوى من الكتب والروايات التاريخية أكثر من خمسة وعشرين كتابا تقع فى أكثر من ثلاثين جزءا • هذا غير كتبه فى الموضوعات الأخرى • واذن فقبل أن يفتح الانسان كتابه هو واثق من أنه سيقرا كتابة مؤرخ درس التاريخ وعرف ما هو •

ولتاريخه في آداب اللغة العربية من الفضل أنه جاء بعد تجربة طويلة وحكمة وخبرة بالطرق في أساليب التأليف وكيفية تربيته . لذلك نتظر منه دقة كثيرة في الوضع . وإذا حاسبناه على شيء حاسبناه بالدقة عينها ؛ فلا تتجاوز معه كما تتجاوز مع من لم يطرق كتابة التاريخ الا حديثا ولا تنهون في عدم التحقيق أو السهو أو نحو ذلك .

وانما ندقق كذلك لعلنا أنه يقابل انتقادنا بصدر رحب ويجيبنا اذا دعت الحال عن أسباب ما قد نرى مما يستحق النقد - يسمع كلامنا ويجيبنا بهذه الروية والسكينة التي هي من طبع العالم البحاثة ولا يفعل فعل غيره من الذين يطرقون باب الكتابة أو التأليف جديدا ، يستفزهم الغضب كلما أظهر ناقد خطأهم في شيء كأنهم يحسبون ان ما جاءوا به هو الكمال .

كتب جرجي أفندي زيدان أكثر من خمسة وعشرين كتابا في التاريخ كما قدمنا . ويظهر حين قراءتها أن غرض المؤلف منها نشر التاريخ وتعميمه ليعرف الناس الحوادث التي وقعت في الماضي ولتكون عندهم فكرة عامة من العالم بأسره أو من أمة بعينها . أريد أن أقول أن جرجي أفندي زيدان لا يقصد من مؤلفاته التاريخية الى تأييد فكرة له في طريق سير العالم كما يفعل بعض الفلاسفة من كتاب

التاريخ ولكنه يريد نشر المعرفة ، وذلك ما يسميه الأفرنجي **Vulgarisation**

هذا فيما أعتقد هو الغرض الذي يرمى اليه صاحب (تاريخ آداب اللغة العربية) . ويقوى اعتقادي هذه طريقة المؤلف في التأليف وأسلوبه في الكتابة . فانك تراه واضح الأسلوب تماما . يكتب للناس بلغتهم المتعارفة التي يتفاهمون بها في جرائدهم ورسائلهم لا بتلك اللغة المخصوصة التي يتخذها جماعة من الكتاب درعا لهم يقيهم عند غموض الفكرة أو فساد التعبيرات التي يجيئون بها . ويكتب من غير عناء ولا تكلف ، بل يرسل قلمه حرا الى أقصى درجات الحرية . لذلك يجيء أحيانا بتعابير لو استعدها الكاتب أمام نظره لرآها غير صالحة في الكتابة . كما أنه يجيء أحيانا أخرى بتعابير غريبة خاصة له . كقوله مثلا في مواضع متعددة من كتابه « الى هذه الغاية » يريد بذلك أن يقول (الى الآن) ومثل ذلك تعبيران أو ثلاثة يجدها القارئ ثم يعتادها باعتياده لغة المؤلف .

وبهذا الأسلوب البسيط يعبر عن كل ما يريد ويفهم القارئ بكل دقة الفكرة التي تجول في نفسه . ثم هو لا يلجأ في كتابته الى اللغة الخطابية الا نادرا . بل تراه يذهب في قصصه التاريخ الذي يريد أن يقصه بكل سهولة وبساطة . يعبر عما في ضميره كما هو في ضميره لا يجتهد في تفخيمه ولا تجميله ويحكى القصة التي

وقعت كما وقعت من غير حاجة لاحاق كل عمل منها بالصفات
والترادفات التي يضعها بعض الكتاب في كل المواضع ولو مع عدم
لزومها •

اذن فهو انما يريد من كتابته أن تؤدي فكرته (من حيث ترتيبها
وسبكها في عبارة سهلة سالمة من الركاقة والتعقيد) كما يقول في
مقدمة الجزء الثاني من كتابه • ويرى ذلك شرطا لازما لمن يريدون
بكتابتهم خدمة المصلحة العامة • أما من يكتبون (في شؤون
خصوصية) أو (يكون مرماهم من التأليف بيان قدرتهم على الانشاء
والغوص على المعاني العويصة والألفاظ الغريبة فهؤلاء وأمثالهم
يكتبون لأنفسهم أو لطبقة خاصة لغرض خاص ولهم منزلة وفضل
ولكن في غير الخدمة العامة) •

هذا هو أسلوب جرجي أفندي زيدان وهذا هو رأيه في الكتابة •
وهو لا شك محق في اعتبار جماعة الذين يكتبون اللغة القديمة
(أصحاب فضل ولكن في غير الخدمة العامة) •

إذا اتفقنا مع جرجي أفندي زيدان على هذه النقطة وجب علينا
بعد ذلك أن نتعدها لما بعدها • وهي التساؤل عن الأسلوب الجيد
أى شيء هو ؟ ها عدد من الكتاب يكتبون باللغة العربية المصرية
 ويفهمهم الناس جميعا ويؤدون أفكارهم بعبارة خالية من الركاقة
 والتعقيد • فأيهم أجمل أسلوبا وأمتن عبارة ؟

ليس من الممكن وضع قاعدة لقياس جمال الأساليب ومبائنها
فكل نوع من الأدب ولكل كاتب ذى قيمة أسلوب خاص في
كتابه • وقوة الأسلوب وجماله يحس بهما الانسان ويعرف
أسبابهما في شيء خاص أو رجل خاص • لكنه لا يستطيع أن
يستبطن من تجاربه - على ما أعتقد - قاعدة معينة مطردة • فإذا قلت
انى أعتبر أحسن الأساليب الأسلوب السيل الدقيق الذى يحوى
روح الكاتب ويجذب اليه القارئ ويكون بذلك واسطة لطيفة فى
التعارف بينهما تعارفا يجعل الثانى يفهم الأول بإشارة خفية أو يصعد
معه الى سماوات الشعر أو يرى بعينه الأشياء التى يكتب عنها - إذا
قلت ذلك لم أكن جئت فى تعريفى بكل الأساليب •

على كل حال يرى القارئ انى أعلق الأهمية الكبيرة على الكاتب
أريد أن يظهر هو بشخصه فى كتابته • وانما يكون ذلك بأن يبدع
فيها شيئا جديدا فى اللفظ أو فى المعنى يميزه عن غيره ويجتذب
اليه قارئه • حينذاك يكون صاحب أسلوب متين وكاتباً مقتدرا •

هذا النوع من الكتاب قليل الوجود فى مصر • ذلك بأن أكثر
كتابنا لا يفكرون بل هم ينقلون أفكارا قديمة يضعونها بعضها جنب
بعض ، وينقلونها أغلب الأحيان بالكلمات التى قالها بها أصحابها •
فكل ما لهم من الفضل فى كتابتهم هو اختيار وترتيب هذه الأفكار
والألفاظ • أما الكاتب المنطقى الذى يبدأ من مبدأ معين فى نفسه

ويستمر يرتب بعد ذلك نتائج هذا المبدأ واحدة بعد الأخرى كما هي مرتبة في رأسه ليصل أخيرا إلى النتيجة المطلوبة ، والشاعر الذى يستمد الخيال من المناظر والحوادث والأشياء التى حوله ، والقصى الذى يرى الناس وأحوالهم وينقل منها صحيفة تطابق الأثر الذى تركته هذه الأشياء فى نفسه — على العموم الكاتب الذى يريد أن يخاطب الناس بما يرى هو ، يكاد يكون غير موجود فى مصر .

جورجى أفندى زيدان من الكتاب الذين يتوخون فى كتابتهم أن ينقلوا للقراء فكرتهم (بألفاظ خالية من الركاكزة والتعقيد) ، وتلك إحدى فضائل الكتابة عنده . غير أنه يرى التعمق فى الأفكار أو التعمق فى الألفاظ خروجاً على قاعدة الكتابة للمصلحة العامة . أى أنه يرى أن الكتابة للمصلحة العامة يجب أن تكون من البساطة بحيث تكون فى متناول كل الأفهام . وبما أن مستوى كل الأفهام هو دائماً غير راق فهو — أما مرئداً أو بميله الطبيعى — يجعل كتابته دائماً قريبة من هذا المستوى .

قلنا ان لجورجى أفندى زيدان أكثر من خمسة وعشرين كتاباً فى التاريخ تقع فى أكثر من ثلاثين مجلداً ، وقلنا ان الظاهر أن مراده نشر المعرفة فهو يكتب بما يعتقد أسلوب النشر . وبما أن الذين سبقوه لذلك قليلون جداً ، وبما أنه يريد مخاطبة المجموع ،

فهو معذور ان بقى أسلوبه غير ذلك الأسلوب العذب الجذاب الذى نمتاز به اللغة السهلة ما دامت فيه صفة الوضوح التى تمكن كل الناس من فهم ما يريد .

ويظهر غرضه أيضاً فى طريقة تأليفه . فهو فى الغالب ينجى بالآفكار والحوادث العامة ليخرج قارئه منه بفكرة عامة فى تاريخ الأمة التى قرأ ما كتبه جورجى أفندى زيدان عنها . وهو لا يقف عند الحوادث الصغيرة يريد أن يستفسرها عن معنى الحوادث الكبيرة ، لأنه — على الأقل فيما يظهر من كتاباته — يرى ذلك غير ضرورى لعامة القراء . فإذا أنت جئت على كتاب من كتبه لم تصل إلى العلم بدقائق ما كتب عنه ولكنك تكون قد عرفت الأفكار العامة التى تفسر الحوادث العامة التى شرحها لك .

وربما ساق جرجى أفندى غرضه أحياناً لأن يكون ناصحاً أو أخلاقياً . فتراه فى كلامه يمدح الفضائل بطريقة تحبب فيها وان يك من طرف خفى مما يدل على حسن اقتداره . لكن ذلك من شأنه أن يجعله أحياناً يقع فى أغلاط تاريخية كان من السهل تجنبها .

لما تكلم المؤلف عن تاريخ آداب العرب قسمها باعتبار الأزمان التى وقعت فيها . فزمن الجاهلية ثم زمن الراشدين ثم الأمويين

ثم العباسيين الخ • وهذا التقسيم حسن يؤدي الى الغرض الذى يرمى اليه المؤلف من تعميم معرفة هذا التاريخ أحسن من أى تقسيم آخر • ذلك لأن الذى يطلب الاطلاع على نوع معين من أنواع الأدب وكيفية تقلبه على مختلف عصور التاريخ ، فى الغالب يريد أن يتعمق فى هذا الباب قدر المستطاع ، وذلك كما بينا ليس هو غرض جرجى أفندى زيدان •

متابعة له فى هذا التقسيم نرى أن نسير فى نظرنا الى الكتاب متبعين هذه العصور المختلفة من تاريخ الأمة العربية واللغة العربية :

١ - عصر الجاهلية

والآن نبدي نقدنا على ما يستحق النقد فى كتاب جرجى أفندى زيدان عن عصر الجاهلية • ونبدأ فننقد الصورة التى وضع بها معارفه التمهيدية • فان الذى يقرأها يكاد يتصور أن عرب الجاهلية ، على أنهم قوم بدو رحل ، قد بلغوا من العظمة فى العلم والأخلاق والسياسة ما يناهض أرقى الأمم فى القرن العشرين • وذلك أمر لا يسهل تصديقه ، خصوصا وأن المؤلف لم يتقدم لتأييده بحجة قاطعة ، بل بنى رأيه على استنتاجات ظنية أخذها عن مقدمات يمكن تفسيرها بشكل مختلف عن تفسيره هو أياها كل الاختلاف والى

القارىء مثلاً من ذلك • قال المؤلف عن ارتقاء الجاهليين فى السياسة وال عمران :

« على أنك اذا نظرت فى لغتهم تبين لك أن أصحابها من أرقى الأمم سياسيا واجتماعيا وان عرفناهم بدوا رحالة - واللغة دليل أخلاق الأمة ومراة آدابها وسائر أحوالها - ومن المقرر أن اللغة لا تتولد فيها كلمة الا للتعبير عن معنى حدث فى أذهان أصحابها • فاذا وجدنا فى لغة من اللغات اسما لنوع من اللباس نحكم قطعيا أن أصحابها عرفوه أو البسوه ، أو نوعا من الأطعمة عرفنا أنهم أكلوه •

« واللغة العربية من أغنى لغات الأرض بالألفاظ العمرانية والسياسية • ان فيها عشرات من الألفاظ لضروب الجماعات من الناس على اختلاف أغراض اجتماعهم ، وعشرات منها عن فرق الجند ، وفيها للتعليم والورق عشرات من الأسماء والألقاب ولكل منها معنى خاص » •

ولست أدري كيف يفسر بذلك رقى العرب الجاهليين فى السياسة وال عمران • العرب الجاهليون بطبيعة حياتهم البدوية ينقسمون الى قبائل كبرى وصغرى ، ومن شأن ذلك أن يستدعى اختلافا فى تسمية كل نوع من هذه القبائل خصوصا وأن التعداد المضبوط الذى نعرفه نحن لم يكن معروفا عندهم • كما أن اختلاف القبائل كان يجعل كل قبيلة تنجى باسم مخصوص لشيء له اسم

آخر في قبيلة أخرى ، فاذا ما تقاربت القبيلتان استعارت كل واحدة منهما كلمة جارتها وخصصتها لمعنى . وهذه هي الأسباب أيضا في تعدد أسماء فرق الجند ، أضف الى ذلك ما في طبائع العرب من الغزو . كما انى لا أظن المؤلف يقول أن ما عند العرب من أسماء فرق الجند يزيد على ما عند الأمم الراقية اليوم .

ومثل هذا الخطأ فيما يتعلق برقى العرب الجاهليين السياسى والاجتماعى وقع للمؤلف فيما يتعلق برقيهم الأخلاقى . وأضرب لذلك مثلا ما جاء في صلب الكتاب عن مبلغهم من الأنفة والعفة . فقد ذكر المؤلف أن العفة كانت عندهم كل شئ . وضرب لذلك مثلا ما ثار من الحروب دفاعا عن المرأة وعرضها ، كأنما اعتبر أن العرب الجاهليين يتكونون فقط من رؤساء القبائل . ثم استشهد للتدليل على ذلك بالذكر الفرق العظيم بين عفة هؤلاء المتقدمين وتهتك المتأخرين بقول عنترة :

واغض طرفى ان بدت لى جارتى

حتى يوارى جارتى مأواها

وقارنه بقول أبى نواس :

كان الشباب مطية الجهل

ومحسن الضحكات والهزل

وبالعشى والناس قد رقدوا

حتى أتيت حيلة البعل

ولست أدرى كيف يقيم المؤلف المقارنة بين عنترة وأبى نواس ، أى بين شاعر حماسى غزلى وشاعر متهتك . فقد كان من السهل مقارنة عنترة بغيره من أمثاله الحماسيين أو الغزليين . كما أن فى الجاهلية التى منها عنترة جماعة من كبار الشعراء لهم مثل الفسوق فى أشعارهم . وأقرب ما يحضر لذهن أى انسان قول امرئ القيس وهو أقدم من عنترة وأغرق فى الجاهلية :

فمهلك جلى قد طرقت ومرضع

فألهيته عن ذى تماء محول

واليت الذى بعده أبلغ فى التهتك كما هو مشهور .

أو قوله :

سموت إليها بعد ما نام أهلها

سمو حباب الماء حالا على حال

فأصبحت معشوقا وأصبح بعلمها

عليه القتام كاسف الظن والبال

أو قول المنخل البشكرى :

ولقد دخلت على الفتاة

الخدر فى اليوم المطير

فدفعته فداغت

مشى القطاة الى الغدير

أو بعض أبيات قصيدة النابغة التي فيها :
سقط النصف ولم ترد اسقاطه

فتناولته وأتقنتها باليد

أو غير ذلك مما لا يحصره العد • وانما كان الكلام عن العفة أكثر في أيام الجاهلية لأن انقسام العرب الى قبائل جعلهم يحتفظون بالأنساب لحفظ العvisية • ولذلك ترى مؤرخيهم يردون نسب كل من يترجمونه الى أصل قبيلته • كما أن المفاخرة بالانتساب الى جد معين كعدنان أو سواه جعلت العفة عندهم من أمهات الفضائل • لكن اعتبار جماعة أو أمة لشيء أنه فضيلة ليس معناه قمع الطبيعة البشرية •

كذلك أخطأ المؤلف في تقدير على حكمتهم • فقوله مثلا عن أشعار زهير المعروفة :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب

تمته ومن تخطىء يعمر فيهمرم

والأشعار التي بعده • قوله عنها (لا تقل شيئا عن أحكام - ولعله يريد حكم - أكابر الفلاسفة) فيه من المغالاة الظاهرة ما يعجب الانسان له • واني مع اعجابي بهذه الأشعار لا أرى فيها ما يجعلها من نوع الفلسفة •

مثل هذا الخطأ تجده في اعتباراته التمهيدية كما تجده في غيرها • والسبب أن المؤلف فيما يظهر شديد الاعجاب بعرب الجاهلية فهو لا يرى الا الوجه الحسن من تاريخهم ، أو هو يريد أن يجدهم كما وجدهم غيره من كتابنا « مثال الكمال البشري » • أو أنه ربما يسير في الكلام عنهم على قاعدة « اذكروا محاسن موتاكم » •

كيف يكون ذلك من رأى جورجي أفندي زيدان ؟ كيف يعتبرهم آلهة لا تتطرق الشهوات الانسانية الى نفوسهم حيث يقول في كلامه عن نساء العرب في الجاهلية : « فاجتماع الرجال والنساء للمحادثة والمذاكرة على هذه الصورة بلا رية ولا سوء ظن لم يبلغ انيه الناس الا في الأمم الراقية وفي أرقى جمعياتهم » ؟ تصور ذلك وطبقه على حال العرب البدو الرحل • كم كان هؤلاء الناس ملهمين كل الفضائل والصفات العالية ! كم كانوا عليه من العفة والطهارة ! أو لو كان بينهم امرؤ القيس والكثيرون من أمثاله ؟ أفلا يضر شيئا ألا لا أظن الناس كانوا في زمن من الأزمان من العصمة بالمكان الذي يريد أن يحملنا جماعة الكتاب على تصوره للعرب • بل كانوا جميعا - العرب وغير العرب - يسعون الى جهات الخير والشر • وليس الرقي دائما تابعا لما نعتبره نحن في مصر الفضيلة ؛ بل أظن كثيرا من أهم فضائلنا نحن المصريين من معطلات الرقي • العرب كغيرهم ، أمة عاشت في زمن مخصوص مدفوعة كغيرها من الأمم

لارضاء حاجاتها المادية وغير المادية اما بطرق حسنة أو بطرق خسيئة • وليس أهون على من يريد الوقوف على ذلك من أن يقرأ أخبارهم كما جاء في كتبهم • والأغاني والأمالى وغيرهما بين أيدينا مثل حى على ما كان هناك •

أما أن يحسب كاتب أن تمثيل العرب فى صورة من الكمال يحمل القراء على تحرى مثلهم ؟ أى أن يكون المؤرخ فى الوقت عينه كاتباً أخلاقياً فذلك وهم فى تصورهم وخطأ وتجن على التاريخ • هو وهم لأن المرء إنما يتأثر بالوسط الذى يعيش هو فيه أولاً وقبل كل شىء • فإذا كان ثمت تأثير لمثل هذه الكتابة فهو ثانوى وبسيط ولا يستحق أن يغير من أجله معنى الحوادث •

المؤرخ مطالب قبل كل شىء بأن يثبت حقيقة الوقائع والأشياء التى يتكلم عنها • فإذا لم يتمكن من إثباتها كانت غير تاريخية بالمعنى العلمى • وسواء كان فى إثباتها اظهار لفضيلة أو بيان لرديلة فليس ذلك لجعل المؤرخ يغير من حقيقتها شيئاً ، والا خرج عن أن يكون مؤرخاً •

التاريخ لا يكتب اليوم ليرى الناس صالح أعمال سلفهم فيتبعوه وسيئها فيتركوه كما كان يخبرنا المؤرخون القدماء • فقد أثبت التجارب أن الناس يسرون فى طريق مرسوم لهم بالحوادث والأشياء المحيطة بهم • وليس يكفى أن يريدوا تغيير هذا الطريق

للتغير • كما أن التجربة أيضا دلت على أن السارق لا يكفيه أن يسمع أن السرقة عار أو أنها تؤدى الى السجن ليرجع عنها •

لماذا اذن يكتب التاريخ؟ لماذا نكتب آداب العرب أو ندون علومهم؟ لماذا نضيع أعمارنا ونهب أنفسنا للبحث عن آثارهم ؟ ... للسبب الذى من أجله يكتب الافرنج آداب اليونان أو الرومان ! وما هو ذلك السبب ؟ ... الكثيرون منا وأكثر الذين تصدوا لهذا الموضوع يقولون انهم يكتبون أدب العرب حيا فى العلم والحقيقة وحتى يعرف أبناء العرب تاريخ أجدادهم ومجد هؤلاء الذين ملأوا الدنيا بفتوحاتهم وبأشعارهم ! ثم ما دام الغربيون يكتبون آداب لغتهم وآداب لغات الأمم القديمة المدنية ، بل ما دام منهم من يتصدى لآداب اللغات الشرقية ، فمن العار أن نبقى نحن الشرقيين من غير أن نتحرك بأنفسنا لهذا العمل ، بل من غير أن نقضى أعمارنا فيه ! من العار أن نترك غيرنا يبحث عن نفائس لغتنا من غير أن نبدى نحن أكبر الهممة فى ذلك ! من العار ... ! هذا ما يقوله الواحد منا فى نفسه • وخوف العار هو الذى يدفع الأكثرين منا للعمل • فإذا تحركنا وبحسنا عن الحقيقة التى نريد ووجدناها ودفعنا العار بذلك عن أنفسنا لم نعرف ماذا نعمل بها وكيف نستفيد منها • وكأننا لا نعلم أن السعى وراء الحقيقة التى لا تنتفع منها بأكثر من أن تعرفها أمر لا قيمة له • وإذا كان كتاب التاريخ إنما يكتبونه ليوقفونا

على أخبار الماضين من غير نظر الى ما بعد ذلك فما أضيع تعبهم !
انما يكتب العلماء ويبحثون ويتقنون عن الحقائق الماضية من أجل
نفع الحاضر والمستقبل • أى لتبين لهم سلسلة حياة أمة من الأمم
أو سلسلة حياة الانسانية فيستطيعون أن يصفوا لها طريقها الممكن
اتباعه فى الحاضر للوصول الى أكبر قسم من السعادة لأعظم عدد
من الناس وليكونوا على علم بما سيكون فى المستقبل حتى لا يكون
عملهم الحاضر سببا فى سوء ينال الأجيال المقبلة •

قضى الانسان حياته شاغلا نفسه بالتفكير فى مستقبله • وبما أن
الاشياء الغامضة هى أكثر ما يلفت الذهن كانت نظرية ما بعد الموت
هى الشاغل الأكبر لأهل العصور الأولى • فقدروا لحياتهم فى
القبور وجعلوا نصب أعينهم مثال الجنة والنار وأشكال العذاب
والثواب لكل واحد من الناس • ولا يزال ولن يزال من كبار
المفكرين والفلاسفة من يشتغلون بالبحث عن مصير الانسان • لكن
الكثيرين منهم يرون فى الحياة غاية الحياة • لذلك قام منهم من يوجه
أكثر نظره لحاضر الأمم ومستقبلها • وانما يصلون لذلك بملاحظة
الحاضر واثبات صورته ثم النظر فى التاريخ الى أصوله • بذلك
يمكن تقدير الطريق الذى تسير هذه الأمم فيه — وهذا هو الغرض
من الأبحاث التاريخية •

هل يريد كتابنا ذلك حين يكتبون عن أدب العرب ؟ هذا هو
الذى كنا نريدهم أن يصنعوا • ولكنهم مع أكبر الأسف لم يصنعوه

جرجى أفندى زيدان كان أحرى الناس على سعة معارفه التاريخية
بأن يخطط هذه الطريقة ويرمى لهذا الغرض • وأول المطلوب من
المؤرخ الذى يرمى لهذا الغرض أن يتحرى فى التاريخ الذى يكتب
كل دقيقة وجليلة وأن يفسر الحوادث بالدقة والضبط • وقد رأينا
أن صاحب تاريخ آداب العرب لم يقم بذلك على الوجه الأكمل •
بل ان ما وقع فيه من الخطأ من هذا القليل يتعدى المعارف
التمهيدية الى تاريخ أدب العرب أى الى موضوع الكتاب ذاته •
مثال ذلك أن المؤلف جعل الجاهليين أبعد الناس عن المبالغة فى
تعبيراتهم وانما هم يصفون الطبيعة على ما هى عليه • ومع أنى اقتصر
على ما جاء فى صلب كتابه من الأشعار أجد كثيرا منها يرد على
نظريته هذه بقوة أعتقد لا تدافع • فاذا كان هو يعتبر رثاء جليلة
لكليب زوجها حين قتله جساس أخوها « بعيدا عن أن يوهم القارئ
أن السماء انطبقت على الأرض وأن الشمس كسفت النخ » فان فى
أبيات المهلهل يرثى كليبيا أيضا •

كليب لا خير فى الدنيا ومن فيها
ان أنت خلتها فيمن يخليها
نعى النعاة كليبيا لى فقلت لهم
مادت بنا الأرض أو مادت رواسيها
ليت السماء على من تحتها وقعت
وحالت الأرض فانجابت بمن فيها

في هذه الآيات ما يبين عن معنى أقوى من كسوف الشمس بل أقوى من انطباق السماء على الأرض مع أنها آية في التعبير عما في نفس الشاعر من الحزن والغضب وكم من المبالغة يجد القارئ في قول عامر بن الطفيل :

وما الأرض الا قيس عيلان كلها

لهم ساحتها سهلها وحزونها

وقد نال آفاق السموات مجدنا

لنا الصحو من آفاقها وغيومها

وكم من المبالغة أيضا في أشعار عنترة الحماسية وفي أوصاف امرئ القيس للخيول . بل أي شاعر عربي لم يصل الى أسنى درجات المبالغة .

يكاد الانسان حين يرى ذلك كله يقول ان جرجي أفندي زيدان لم يدخل الى روح العرب لكي يستطيع أن ينشرها أمام نظره ويفتش فيها ويعرف دقائقها ويتمكن بذلك من الوقوف على السبب في ترتيب الوقائع والأشعار والأخبار في هذه الأمة بشكل مخصوص . ولكن الانسان يتردد كيف ينكر عليه ذلك مع ما ألف في تاريخهم ولقتهم وآدابهم وأخبارهم كل ذلك الذي ألف . غير انا نأسف أن نجد كل هذا الذي اعتبرناه خطأ في فهم العرب كما انا نأسف أيضا أن نجد ألفاظا غامضة لا يستطيع الانسان أن يفهم منها رأى المؤلف

عن العرب . فمثلا قوله على الكهانة ان الكاهن كان اذا استفسر عن رؤيا « تتم وتظاهر باستطلاع الغيب » معناه أن هؤلاء الكهان كانوا لا يعتقدون بحقيقة ما يقولون . مع انا نجد مثلا عن نبوءة جماعة من العرب كورقة بن نوفل في كتاب جرجي أفندي نفسه . كما أن أخبار الكهان الواردة في تواريخ العرب تدل على أن هؤلاء الناس كانوا يعتقدون بصحة حرفتهم . فهلا كان المؤلف أعطانا الأسباب التي استتجها من بحثه لتدل على مجرد « تظاهر » هؤلاء الناس .

ولما انتقل المؤلف من الكلام عن الاعتبار العامة والمظاهر الأدبية للعرب الجاهليين الى الكلام عن كل شاعر على حدة جعل يكتفى بإيراد أشياء قليلة عن أخبار هؤلاء الشعراء وحياتهم . لذلك لم يكن في كتابه متسع لنقدهم ! وهو انما يخبرنا عن الصفة العامة للظاهرة في شعر كل منهم . فواحدهم وصاف للخيول والنوق ، والثاني يجمع الحكم في أشعاره المتينة ، والثالث معروف بحسن الديباجة ومثانة التركيب . وعندنا أن من الواجب تحليل الشاعر أكثر من هذا وإظهار صفاته بتطويل بعض الشيء . والا كان الذي اطلع ولو قليلا على أشعار العرب وأخبارهم لا يستفيد من قراءة هذه التراجم شيئا مطلقا .

أطنا الكلام عن الجاهلية ونقد كتاب جرجي أفندي زيدان فيما كتبه عنها . والسبب في ذلك أنه هو أيضا أطال القسم الذي أفرده

لها • اطالة بحق لأن هذا القسم من أدب العرب هو الأساس لما بعده • والمؤلف أراد أن يوفقنا على حقيقة هذا الأساس • وقد قدمنا رأينا للقارئ ونظن الآن مناسبا أن نتقل لعصر الراشدين •

٢ - عصر الراشدين

كان الجاهليون قوم بدو يسرون حيث المرعى أو المغنم • لذلك لم يكن ببلاد العرب الا مدن قلائل • وكانت الديانة الغالبة عند جميع العرب يومئذ هي الوثنية • والوثنية بقية دين قديم • والآديان جميعا كلما قدمت دخلها التمثيل أحيانا بالكواكب وأخرى بالحيوانات وثالثة بالأصنام الى غير ذلك من أنواعه الكثيرة • والأمثلة على ذلك متعددة عند القدماء من المصريين واليونان والعرب وعند أمم كثيرة اليوم • وفي فرنسا بلد اسمه (لورد) يحج اليه الكاثوليكيون من كل جانب ويعتقدون في قبر (سيدة لورد) قدرة آلهية كبيرة تشفى المريض وترد الى المجنون صوابه •

هذا التمثيل ذهب به العرب بعيدا فانتهى الى أن صارت أصنامهم آلهة وأن صاروا يعتقدون فيها القوة والجبروت • لكن مثل هذا التمثيل عندهم اذا جاز على العامة فان كثيرين ممن يفكرون يرون ما فيه من القته • على ذلك كان بعض العرب ممن تقدم الاسلام

كأمية بن أبى الصلت وغيره ينصرفون عن الدين العام ويفكرون لأنفسهم •

لكن هؤلاء الناس كانوا يقتصرون على اختطاط طريق حياتهم هم ولا يقومون بالدعوة الى معتقداتهم • وسبب ذلك في الغالب شيء من عدم الاهتمام بالمجموع أو من عدم الثقة المطلقة بالعقيدة التي وصلوا اليها •

تكونت الفكرة عند العرب بفساد المعتقدات السائدة قليلا قليلا وتأثرت آدابهم بهذا التغير • فصرت ترى في القسم الأخير من عصر الجاهلية جماعة غير قليلين من الشعراء والخطباء يدون ما في نفوسهم من الشك في عبادة الأصنام • كما أن كثيرا من العادات السائدة يومئذ كانت من الوحشية بحيث تستفز النفس • كوأد البنات مثلا ، وكأخلاق شتى فشيت بين العرب مع أنها تنافي الفضيلة أو تنافي طبيعة بلادهم •

وسط هذه الحال من الأخلاق والعادات العامة وبين هاته الشكوك التي أبداها جماعة المتكلمين وجوابا لانتظار الناس لمصلح يهديهم ولنبى قد حان حينه وأدرك (العرب) أوانه • بين ذلك كله ، ووسط هذه الأمة السامية الأصل قام النبى صلى الله عليه وسلم داعيا لعقيدة جديدة ومصلحا كبيرا •

كان من أثر قيام النبي بالدعوة واجابة الناس اياه أن اجتمعت كلمة القبائل ثم جعلوا يسرون فى الأرض ينشرون الدين ويفزون ويفتحون البلاد • وكان من أثر ذلك على الأدب أن راجت سوق الخطابة وسبقت الشعر الذى كان الكل الا قليلا فى آداب العرب الجاهليين • والسبب فى أن سبقت الخطابة الشعر هو كما يقول جرجى أفندى زيدان « حاجة المسلمين اليها فى الفتوح والغزوات والعرب لايزالون على بداوتهم تتأثر نفوسهم من التصورات الشعرية سواء سبكت فى قالب الخطابة أو فى الشعر ••• فكما كان الشاعر فى الجاهلية يقدم على الخطيب؛ لفرط حاجتهم الى الشعر فى تقييد مآثرهم وتفخيم شأنهم والتهويل على عدوهم والتهيب من فرسانهم أصبح الخطيب فى الاسلام مقدما على الشاعر لفرط حاجتهم الى الخطابة فى استنهاض الهمم وجمع الأحزاب وارهاب الأعداء » (ص ١٩٣ ج ١) •

وهناك لذلك سبب آخر مرجعه الفرق بين الحياتين : حياة الارتحال التى كان عليها الجاهليون وحياة الغزو الذى شغل به المسلمون • فان فى حياة البدوى السارى على ناقته تهزه بلطف فوق ظهرها ويبعث النسيم والفضاء بخيالاته الى أقصى غايات التصور متعرض عليه صور الأشياء وذكرى من تركهم وهو يهتز فى سكونة فوق مركبة ما يدفعه للتغنى والحداء والتوقيع ، أو بكلمة أخرى ما يدفعه لقول الشعر يذكر فيه كل ما مر بخياله • فى حين أن حياة

الحرب حين تقف الجموع متأهة للقتال ويتوقع الناس الموت لحظة والنصر أخرى وتتدافع فى نفوسهم الاحساسات أو حين يكونون فى مأزق حرج يريدون الخروج منه • هذه الحياة تخلق من طبيعتها رئيسا يصيح فى رؤسياه بالأمر أحيانا وبلاستفزاز أخرى ، أى انها تخلق الخطابة •

لا شك أيضا فى أن ورود القرآن بالنثر وقوله « والشعراء يتبعهم الغاؤون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون » • لا شك فى أن ذلك ليس من شأنه أن يحرض على قول الشعر والناس فى تلك الفترة الأولى من الاسلام كانوا يحرصون كله الحرص على اتباع الكتاب شأن كل أمة عند ظهور مذهب جديد • كما أن الخلفاء كانوا يصرفونهم عن قول الشعر •

هذه النقطة كلها استظهرها جرجى أفندى زيدان فى كتابه واستظهرها فى بعض الأحيان بالدقة وضرب الأمثال • ثم ذكر السبب الذى من أجله لم يترجم شعراء هذا العصر فى هذا الباب من الكتاب وذلك أنه ترجمهم (مع شعراء الجاهلية لأنهم نشأوا وتطبعوا بطباع أهلها) •

لكنه لم يترجم الخطباء ولم يذكر السبب فى سكوته على ذلك • إذ كل ما ذكره لنا عن على بن أبى طالب وهو بلا شك من الأدباء الخطباء ذوى القيمة كلمة بسيطة - على الهامش ان صح هذا التعبير

حين تكلم عن الخطابة والخطباء ، هي أن خطبه تعد بالملئات وأنها مجموعة في كتاب (نهج البلاغة) . لكنه لم يذكر لنا شيئا عن الصفة المميزة للخطيب في خطبه ولا عن الروح السارية فيها .

وأهم من ذلك سكوته المطلق عن القرآن والحديث كأنهما لا يدخلان في تاريخ أدب اللغة العربية بينما يدخل الطب والكهانة . وأحسب أن لنا من الحق أن نسأل عن سبب هذا السكوت . لم لم يذكر المؤلف شيئا عن التاريخ الأدبي للقرآن وصلته بالأدب الجاهلي والفرق بينهما ؟ القرآن كتاب كريم ذو شأن عظيم . لا في أمر الدين الاسلامي فقط بل كذلك في أمر آداب الأمة العربية وسياستها وكل جهات حياتها . لذلك كنا نود أن يوقفنا كاتب (تاريخ آداب اللغة العربية) على الأصول الأدبية الذي استمد منها هذا الكتاب وجوده .

ولقد وضعت نفسي موضع المؤلف وسألتها عن سبب هذا السكوت فلم أجد جوابا صريحا أقنع به . . . وأخيرا قلت لعله رأى أن في كلامه عن القرآن والحديث وأصولهما وقيمتها الأدبية ما يمس بعض العقائد . فليس مما يتصور أن المؤلف لم يجد في ذلك ما يستحق الكلام عنه . أم لعله اعتبر هذه الفترة القصيرة التي جاء فيها النبي والخلفاء الراشدون فترة عرضية في حياة الأمة العربية ثم كان ما أشار اليه من رجوع العرب في عهد الأمويين الى الروح

الجاهلية . يجعل النظر الى هذه الفترة كالنظر الى حادثة طارئة في حياة أمة من الأمم . وليس من الضروري عند تدوين التاريخ التطويل في ذكر الحوادث الطارئة ؟ أم ماذا ؟

أما اذا كان السبب مراعاة العقائد العامة . فإن ذكر تاريخ القرآن والحديث لا يمس هذه العقائد في شيء . ذلك بأن كل مسلم يعلم أن القرآن جاء بلغة العرب مراعيًا في نزوله عوائد العرب وعقائدهم السابقة . فما جاء في تحريم الخمر أو تحريم الربا أو غير ذلك من الآيات إنما جاء متعاقبا ولم ينزل مرة واحدة لكيلا يتخرج به الناس وهو دين يسر لا دين عسر . لذلك كان ما يريد المسلم المحب لدينه اليوم أن يقف على مبلغ التغيير الذي أحدثته الكتاب في العقائد والعوائد التي كانت موجودة قبله . وبما أن المقام مقام الكلام عن الأدب فكل مسلم لا شك يريد أن يعرف الصلة الأدبية أو الفرق الأدبي بين القرآن وما قبله .

قدمنا ما ذكره جورجى أفندى زيدان عمن حرموا على أنفسهم عبادة الأوثان وشرب الخمر ونحو ذلك قبل أن يجيء به الاسلام . ونعلم أنهم قالوا في ذلك أشعارا وخطبا . فهلا كان من واجب الكتاب في أدب اللغة أن يبينوا لنا الصلة بين هذه الأشعار وبين آيات القرآن التي نزلت في هذه المعاني حتى نقف على حقيقة سلسلة الحياة النفسية التي هي أساس الحياة الأدبية عند العرب . كذلك

كنا نريد أن نعرف الصلة بين طريقة رواية الأخبار والحوادث عند العرب وروايتها في القرآن • وكنا نريد أن نعرف ان كانت سورة يوسف التي هي آية الابداع في القصص أول ما جاء من نوعها أو أنها سبقت غيرها من صورتها • كنا نريد أن نحيط علما بهذه الأشياء التي أهملها جرجي أفندي زيدان على أهميتها وعلى أنها من لب تاريخ الأدب وصلبه • وهي في الوقت عينه لا تمس العقائد العامة بشيء •

أما ان كان المؤلف قد ترك هذا القسم لأنه اعتبر هذه الفترة حادثة استثنائية في تاريخ الأمة العربية وأن العرب رجعوا مع الاسلام والأمويين الى عاداتهم وأخلاقهم وآدابهم الأولى الا بعض ما حرم صريحا فان ذلك يكون من المغالاة والمبالغة الزائدة التي يرفضها جرجي أفندي نفسه حيث يقول ان الاسلام أحدث انقلابا سياسيا واجتماعيا ودينيا وأنه أدخل الى آداب العرب تغييرات بنسخ بعض ما كان واستحداث سواء على ما يوافق العوائد والعقائد والأخلاق التي جاء بها •

لا شك أن تكوين الأمم الذي يتم على الأجيال والقرون لا يمكن في سنين معدودة قلبه رأسا على عقب • ولا شك أن الاسلام لم يغير العرب مرة واحدة عما كانوا عليه بما نسخ من المعتقدات والعوائد ولكنه من غير شك أيضا أحدث هزة عظيمة في أعصاب

هذه الأمة كانت سبب ما تلاه من التغيير • لذلك كان من الواجب على من يريدون درس العرب أيام الأمويين والعباسيين أن يرجع الى التغييرات التي أحدثها الاسلام ليقف على أصل مهم من أصول تاريخ هؤلاء الأمويين والعباسيين •

ولذلك نرانا منقادين بهذا التعليل البسيط لنرى النقص في « تاريخ آداب اللغة العربية » فيما يتعلق بتاريخ الأدب في عصر النبي والخلفاء الراشدين •

بل كنا نود أن يفرد المؤلف كلمة عن النبي وحياته من جهتها الأدبية والمصادر التي استقى منها وكيف وصل ليكون أسلوبه كما كان • ولئن كان هذا الباب قد طرق من قبل من الجهات السياسية والاجتماعية والأخلاقية بشكل ما فان جهته الأدبية لا تزال بكرا • ولهذا كنا ننتظر من جرجي أفندي زيدان أن يضع لنا في تاريخ آداب اللغة العربية كلمة تاريخية صحيحة عن أظهر رجل في الحياة العربية من كل جهاتها •

هذا هو النقص المهم في هذا الباب من أبواب الكتاب وأخشى أن يكون نقصا جوهريا • وحذا لو تداركه المؤلف اذا طبع كتابه طبعة ثانية فيكون قد سد فراغا تاريخيا ذا قيمة •

ومهما يكن غرض جرجى أفندى زیدان من كتبه نشر معرفة التاريخ لا التدقيق فى نقطة ، ومهما يكن هو ينظر للأشياء دائما من جانب الفكرة العامة فانا نعجب كيف فاته أن يكتب هذه الكلمة التى نبه اليها •

سوى ذلك فانه لم يذكر لنا عن حقيقة روح هذا العصر شيئا أكثر من أن العرب اشتغلوا بالفتوحات وأن القرآن كان دليلهم فى الفكر والكتابة مع أن الفتن الداخلية كانت يومئذ لا تحصى وكان لها قادة من الخطباء والشعراء والكتاب • وردة العرب بعد موت النبى وخروجهم على عثمان وقتله وانقسام على ومعاوية على الأمر كل ذلك يمس الأدب العربى عن قرب ويمسه فى مواضع كثيرة •

على انا نرجع فنقول ان الكمال محال • كما أنه ربما كانت فى نفس المؤلف فكرة لم تقف عليها يفسر بها هذا الذى نعهه نقصا فى كتابه • وانما دعانا للتدقيق فى هذا الموضع من مواقع النقد اعتدادنا بهذا القسم من آداب العرب وتقديرنا لأهميته •

« محمد السباعى »

ذكرنا فى كلمتنا الى القارىء أن كتاب النقد سيتناول السباعى وكنا نظن ما كتبناه عنه فى « الجريدة » قد يعنى القراء • لكننا ألفيناه لا يزيد على تقدير السباعى ك مترجم لا كمؤلف • فاكفينا بهذه الاشارة •

الكتاب الثاني

شئون مصرية

آثار وارى الملوك

من القاهرة الى الأقصر

دعيت الصحافة المصرية أخيرا لزيارة قبر الملك توت - عنخ - آمون • دعيت لتوقف المصريين على آثار جد من أجدادهم ، باقية لا تزال ، فى أرض مصر بين مقابر الملوك الفراعنة • لكنها دعت بعد ما أذاعت صحف لندرة ، بل صحف العالم ، التفاصيل التاريخية والفنية عن قبر هذا الملك المصرى • وبعد ما نشرت الجرائد والمجلات الأجنبية صوراً مختلفة صورت بين أطلال طيبة الأزلية الخالدة • ثم تخطت النيل وتخطت البحار قبل أن تقع عليها عين واحد من أبناء أصحاب مقابر طيبة •

وفيما بين افتتاح باب قبر الملك المصرى ، ودعوة رجال الصحافة المصرية - فى هذه الفترة التى تجاوبت فيها صحف العالم بخبر هذا الاكتشاف وكتبت عنه الفصول الطوال ، لم تكن الحكومة المصرية ولم تكن جهات حفظ الآثار المصرية ، باطلاع الأمة المصرية على أية معلومات عن هذا الأثر المصرى تدلهم على قيمته • وتكشف

لهم عن شىء من حقيقته • فلما وصلت الجرائد من انكلترا مترعة بالأخبار عنه تكرمت وزارة الأشغال المصرية فأصدرت بلاغا تأفها مبهما لا تقف منه على شىء ولا تعرف له معنى محدودا •

دعيت الصحافة المصرية أخيرا لزيارة قبر الملك توت - عنخ - آمون • فأذكرتنى هذه الدعوة ، لذلك الأثر المصرى ، تلك الآثار العزيزة العظيمة انتقلت على ظهور البحار الى انكلترا وغير انكلترا من مختلف بلاد العالم وكان أحرى بها أن تبقى على ثرى الوطن • وأذكرتنى الرحلات الطويلة كنت أمضى فيها بياض النهار وقطعا من الليل وجل مقصدي أن أشهد تلك الموميات الناطقة فى صمت الموت بجلال القدم وتلك التماثيل المهيبة بضخامتها وعظمتها وتلك النقوش الممتلئة برموز الحياة قبل الموت والحياة بعده • وأذكرتنى! نعم أذكرتنى بتمثال ايزيس الصغير قائما فى بلوره بين التماثيل الضخمة فى الصالة المصرية من صالات المتحف البريطانى محدثا ما حوله من التماثيل الضخمة بحكمهم على الكون والكون فى أحلام خلقه ، متسخطا على الذين كشفوا عن الموميات ليجعلوها موضع لهوهم وكأنما الأموات متاع العيون • • • أذكرتنى هذا وأذكرتنى سواء فسيت ما نحن منهمكين فيه من أعمال الحياة وما نحن مرتطمين فيه من الشهوات السياسية فأثرت أن أسافر

بنفسى الى مقابر الملوك والملكات من أجدادنا الأقدمين •

شقة السفر من مصر الى الأقصر طويلة • ومهما تعزيت بمشهد
الوادى عن جانبك يشقه القطار فتتابع صورته أمام نظرك كأنها صور
متحركة فان هذه الصور بالغة آخر الأمر من التشابه ما لا ترى
بعده منها محلا لاستزادة • لكنك واجد فى اختلاف ساعات النهار
الشمس قبيل المغيب فابشر بمغرب شمس قد يبلغ بك من الاعجاب
وصنوف الجو ما يبعد عنك السامة • فاذا أنت رأيت السحب تجاور
حد العبادة ، فيذهلك عن الوادى وصوره المتحركة ، والزمن
وساعاته المتتابعة ، ونفسك وما قد بدأت تشعر به من ملال وتعب ،
ويمسك خيالك محققا بالمغرب البديع الذى أمسى يذكرك رويدا
رويدا فتعلقت به نفسك وانجذب اليه قلبك ووقف عنده كل وجودك
حتى تراه قد غاب واختفى وأنت لا تدري متى غاب ولا متى
اختفى •

كان ذلك شأنى بين طهطا وسوهاج • تدركت الشمس الى
المغرب وقد ارتكز عندها مثلث من السحب ملأ الغرب وتشرذمت
حوافيه • وكنت تحسبه أدكن اللون قائما فلا تكاد ترى مخرجا
للودق من خلاله • فلما تدلت الشمس طوقت حوافيه القرية
منها بسوار من ذهب • ثم ولت الى مغيبها فلم تك الا دقائق بعد

ذلك حتى سكبت فى السماء وراءها لها داما ودما ملتها ، وصرت
ترى الذى كان قائما داكنا قد استحال الى لهب اشتعلت به السماء
فغطت النيران مثلث السحاب الذى ملأ الجو • وتشهد فحمة القتام
بعد اشتعالها وكأنك نبيرون يشهد روما فى احتراقها • لكن نبيرون
كان يشهد جريمته فيوقع على القيامة أنغاما يسلى بها نفسه عن وخز
ضميره • أما من شهد ذلك المنظر الفذ من صنع يد القدر فكان
لا يستشعر سعيير اللهب المحرق ، بل كان يحس فيما يرى ببرد
وسلام يهبط على البسيطة • يشعر فى حايا فؤاده بترداد حنين
الاعجاب والشكر على أن شاركت روحه الصغيرة فى كل تلك
المعانى التى لا تؤديها هينة ولا ترنم وانما تؤديها نعمة سماوية
من نغم موسيقى الموصلى أو تهوفن •

وخبا اللهب وتبينت قطعة السحاب التى حجبت المغرب وقد
امتدت خلالها من الشمال الى الجنوب تعاريج متوازية من الأحمر
القانى متتابعة من فوق جبال ليبيا الى منتصف السماء حيث يمتد من
أثر الشمس المولية مسرعة ظل ضاف متورد كأنه بقايا قبة وداعها
لهذا العالم الذى ظلت تشهده أعيننا من ساعة اضاءته فى شروقها
وها تشمله كسف الليل بعد اذ تركته مدبرة • وظلت هذه التعاريج
المتوازية البديعة النظام تغالب الليل ويغالبها وتقضى فيه رويدا رويدا
حتى كل بصرى وصرت لا أرى منها شيئا ولا أرى الا الليل قد
كسا الوجود ولا أدري متى كسا أمواج النار والذهب •

وانطلق القطار فى طريقه الى الأقصر وأنا مأخوذ بهذا المنظر الذى لم يبرح خيالى ولن يبرحه • وكلما عدت الى نفسى جاهدت أريد أن أستعيد ذكرى مغارب الشمس البديعة التى تضارع ما شهدت من سوية مضت لأقارنها به فيغلب هذا المشهد جهادى وأعاود التحديق فى مخيلتى بالقرص النازل وبأطواق الذهب تحف بأطراف السحب، وبالنار الملتهبة تشعل الفضاء، وبنىرون يشهد روما جللها اللهب وبهذه التعاريج البديعة من خالص العسجد •

وبلغت الأقصر وكان الليل قد انتصف أو كاد • فأويت الى الفندق وقد هجد الناس جميعا فيه فلا تسمع لهم هسيسا • آويت اليه وقد زال أكثر ما بى من النصب لأنى كنت مشغولا عن التفكير فيه •

واستيقظت حوالى الساعة الثامنة من صباح يوم الجمعة فأخذت أهتئ لمشاهدة بيان الملوك وما حولها من آثار طيبة الخالدة •

آثار وادى الملوك

٢

فى بيان الملوك

تقوم الأقصر - أو القصور - اليوم على شاطئ النيل الأيمن فى المكان الذى كانت قائمة فيه من قبل طيبة الأحياء • وبين مبانيها المتفاوتة فى الفخامة الفخيمة والحقارة الفقيرة ترتفع تلك البرابى الدارسة التى بقيت برغم بلاها عظيمة ضخمة مهية تتضاءل الى جانبها أكبر القصور وأفخمها وأضخمها - برابى الأقصر وخونسو وآمون وما اليها • هذه البرابى أو المعابد أو القصور الضخمة الفخيمة هى التى أتاحت للمدينة الحاضرة أن تسمى باسم الأقصر أو القصور •

بلغ بى القطار الأقصر حوالى منتصف الليل فأويت الى فندق وتربالاس • فلما كان الصباح أخذت أهتئ قاصدا وادى الملوك لزيارة القبر الجديد، قبر توت - عنخ - آمون • واذ كان القارب يعبر بنا النيل الى شاطئه الأيسر، حيث تقوم المقابر بين الجبال عند آخر الوادى، مر بنا زورق بخارى يقل عظمة « السلطانة ملك » وحاشيتها وكن قاصدات مثلنا زيارة كنوز القبر الجديد، وكن مستقلات مثلنا من طيبة الأحياء حيث ضجة الحياة وجلبتها الى طيبة

الأموات حيث سكينه الخلد ومستقر السلام ، وكن قد رضى مثل ما رضى أن ينسب هذه الفترة القصيرة التي نسميها الحاضر ونجعل منها موضع كل عناية وكل اهتمام لتصل النفوس ما بين الماضي البعيد الذهاب فى أعماق القدم الى حدود الأزل ، وبين هذا الحاضر الذى يجرى غير وان يريد أن يشق أمام عيوننا غيابات المستقبل ، ثم ينتهى بنا من هذه الغيابات الى ما انتهى عنده رمسيس وآمنحوتب وتوت عنخ آمون وغيرهم ممن ذل لهم الدهر يوما فملكوا ناصيته ثم ألفوا أيديهم خلاء وأيقنوا أن ليس للدهر ناصية تملك .

وتخطينا النهر وركبنا عربة عريضة العجلات يسمونها (السنكار) فاجتازت بنا المزارع تظللها أشجار لا يزال ورقها الأخضر يانع لم تعد عليه عاديات الخريف ولا عصفت به ريح الشتاء الفتاكة بورق الشجر . وهل تعرف الأقصر ريح الشتاء ؟ ألم يكونوا يعبدون الشمس فى طيبة لأن الشمس فى طيبة اله محسن . واليوم وقد عبد الناس ربهم فانهم لا يجدون من آيات خلقه آية تبلغ فى العظم والكرم والاحسان ما تبلغه الشمس فى طيبة .

وسارت بنا العربة بعد ذلك فى طريق قد بين صخور عابسة محددة الوجه تظللها سماء دائمة الزرقة لا تمر بها سحابة ولا يغشى صفاءها غشاء . وجاوزنا فى مسيرنا برية القرنة وتابعنا مسيرنا حتى قاربنا وادى الملوك .

الجبال قائمة عن يمينك وعن شمالك . جبال جرداء لم يسقها غيث فلم يعرف النبت اليها سيلا . والسماء من فوقها زرقاء صافية والسكون مخيم شامل فلا تسمع هسيسا . وأنت بين ذلك ذرة من ذرات الوجود متقلبة فى الحيز تنقلها على الزمن نائرة بين الكائنات العظيمة المطمئة منتظرة يوما تخدم فيه ثورتها فترجع لتطمئن فى أحضان الوجود .

مثل هذه الأفكار كانت تدور بنفسى وأنا فوق السنكار تتسرب بى فى طريق الجبل وقد خلفت ورائى الزرع الناضر الخاضع لقوانين الموت والحياة ، المتجدد على الزمن كلما تجدد الزمن ، وحشرت بين الجبال العابسة وقد علت فوق قوانين الموت والحياة فتالت عليها عصر الزمن وهى على الزمن باقية خالدة . ثم وصلنا ببيان الملوك فاذا حمر وعربات وسناكير قد سبقت اليها . واذا زوار متفرجون قد جاءوا يرون الكنوز التى اكتشفها كورنارفون ، وهى فى خيال بعضهم كنوز الذهب والجوهر يستبدلها من شاء بما شاء من صنوف المتاع ، وفى خيال الأقلين كنوز تاريخية أثرية يرتكب من يستبدلها بالذهب والجوهر جريمة لا يغفرها العقل ولا يغفرها التاريخ .

يقع مدخل بيان الملوك فى منتهى ذلك الطريق الذى قد بين صخور الجبل . فاذا جزته انفرج أمام نظرك وادى الملوك . أو

بالأحرى ظهرت أمامك مقابر الملوك • فليس ذلك الوادى الا منبسطا صخرى وسط سلسلة ليليا تقوم الجبال حوله من كل جانب ولا تعمره أية صورة من صور الحياة والتجدد التى تراها فى الوديان • وانما تعمره موميات ذوى الملك والسلطان الذين حكموا على التاريخ والتاريخ حدث قاصر لم يبلغ بعد رشاده ، فكان حكمهم أبهى وأضر وأبقى أثرا وأخلد ذكرا من حكم المدنية الآثيمة التى يشن العالم تحت سلطانها من سنين • تعمر تلك الموميات هذا الوادى فى قصور شقت تحت الجبل ونقشت جدران غرفها بطلاسم الهيروغليفية وبمختلف صور آلهة ذلك العصر وبتقوس عبادة آبائنا الأقدمين • شقت تلك القصور ونقشت جدرانها من أربعة الاف سنة فاذا رأيتها اليوم أدهشتك منها ألوان زاهية حية لا تجد فيما تعرف من الألوان اليوم لها نظيرا • فاذا سألت عن هاته الطلاسم وأولئك الآلهة وتلك التقوس ما شأنها على الجدران وما هذه الصحائف الكثيرة من كتاب الأموات لا يخلو منها جدار؟ لفت العليم نظرك الى ما تراه على جدران معابدنا من آى الكتب المقدسة ، وزادك أن أولئك القدماء كانوا يؤمنون بأن الروح لا تفارق الجسد فراقا أخيرا ما لم يتم بلى الجسد وما لم تتحل ذراته فتبعثر بين غيرها من الذر وينعدم كيانه • أما ما بقى الجسد حافظا كيانه فان الروح تعود اليه اذا هو عولج عند الدفن بصورة خاصة من التقوس ، فمر فوق القارب المقدس بالبحيرة المقدسة عند آخر معابد اله

الشمس امون ثم انتقل بين هياكل الآلهة ومن حوله تراثيل كتاب الأموات حتى يبلغ مقره الأخير • وفى هذا المقر الأخير تسجل على الحجر الصلد تلك التقوس التى وجب أداؤها حتى اذا عادت الروح للجسد عادت مطمئنة ثم زادت طمأنينة اذا هى ألفت حوله كل مظاهر الملك ومجالى الآبهة التى كانت له فى حياته ، ووجدت عرشه وعربته ولباسه وطعامه وما الى ذلك مما كان له قبل الموت من صور المتاع •

وهذا هو السر فى أنهم كانوا يحنطون الجسد حتى لا يتحل ويتم بلاؤه ، وفى أنهم كانوا يملأون الجدران بنقوش كتاب الأموات وبتقوس العبادة وبمختلف صور الآلهة تقدم لهم فروض الطاعة وأنواع القرايين ، وبصورة القارب المقدس على البحيرة المقدسة عند معبد آمون اله الشمس حتى تطمئن الروح الى أن الجسد مر الى مقره برضا الآلهة وفى طمأنينة منهم اليه • وهو السر فى أنهم كانوا يضعون فى الغرف المجاورة للملك عنجريه وكراسيه وعرباته ومأكولاته وكل أنواع المتاع التى كانت فى الحياة له • انهم كانوا يريدون له الخلد ملكا عزيزا كريما حتى اذا بعث يوم النشور بعث ملكا عزيزا كريما •

أرأيت الآن معنى عناية ملوك مصر الأقدمين بأن يكون لهم بعد الحياة قصور تضارع القصور التى كانت لهم فى الحياة أو تزيد

عليها عظمة وقداسة • انهم كانوا يطعمون أن يبقوا خالدين ملوكا وأن يبعثوا ملوكا • وها نحن أولاء نرى نصف مطعمهم تحقق أو كاد • لقد خلدوا الى اليوم ملوكا تخشع أمامهم قلوبنا وتنحنى أمامهم رؤوسنا ولم يزد الموت ملك رمسيس الحيس بين زجاج صناديق المتحف الا جلالا • ولو انا معشر الأحياء قد بلغنا من العلم أن نفهم المعاني المرتسمة على صفحات وجوه مومياء الملوك الأموات لعلمنا أن رمسيس يعيد اليوم ما كان يقوله من قبل يدفع به المصريين الأحياء ليستعيدوا لمصر من المجد والعظمة ما كان لها أيام ملكه • ولكنهم لا يسمعون •

هذه العناية هي التي أوحى الى توت - عنخ - آمون أن ينقر في الجبل قبره ، وأن يحضر في غرفه صور متاعه ؛ حتى اذا أتى عليه الموت كان قد أعد لنفسه وسائل الخلد وحياة لا تبلى •

والكنوز التي شهدنا في أول غرفة من غرف قبر توت - عنخ - آمون هي بعض صور ذلك المتاع الملكي وضعت الى جانب تماثيله الحارسين لموميائه من أن تبعث بطمأنينتها يد الزمن • وقرىبا ستبعث تلك الطمأنينة يد أبناء هذا الزمن •

آثار وادى الملوك

٣

قبر توت - عنخ - آمون

جاوزنا مدخل بيان الملوك • فتجلى أمامنا الوادى الصامت القفر من كل مظاهر الحياة ، العامر بكل معاني المجد والعظمة ، وبكل آثار الموت والخلود • وقامت أمام النظر أبواب قصور موميات الفراغة نقروها في جوف الجبل ملجأ من الفناء ، وحصنا من البلى ، ومستقرا يعبرون فيه فوق ظهر الزمن الى الدار الآخرة ملوكا أعزة وفراغة حاكمين • وهم قد ظلوا في هذا الوادى القفر ملوكا على سائر ساكنى وديان طيبة الأموات من أربعين قرنا خلت • وكانوا قبل ذلك ملوكا لسكان طيبة الأحياء اذ قضى كل منهم فى ملكه سنين لا تتجاوز العشر أو العشرات •

جاوزنا مدخل بيان الملوك وكان باب رمسيس التاسع عن شمالنا • وباب رمسيس السادس عن يميننا • وبين البابين فجوة تؤدي الى باب القصر الجديد أو القبر الجديد • القبر الذى نقر من ثلاثة الاف سنة • قبر توت - عنخ - آمون • فهبطنا الى بابه حتى كنا عند الغرفة التى كشفت عنها يد المنقبين • فاذا نور الكهرباء يضىء

ظلمة ذلك الرمس العريق في القدم • وهناك وقعت العين على ما يبهرها: غرفة ملآى بآثار فرعون • بعروش الملك ومتكآته وسرره وعصيه وعرباته ، فجعلت تنقل من واحد الى الآخر ولا تكاد تستقر عنده • ولا تكاد تجتمع فيها صورة منه • ووقفت النفس حيرى ذاهلة أمام هذه المشاهد العجيبة • لبثت هذه الآثار في هذا الرمس ثلاثين قرنا أو يزيد ••• واهتز القلب بذكرى أولئك الجدود الذين كانوا زينة الدهر وموضع فخر بنى مصر • والذين لا يزالون على الدهر موضع اعجاب بنى الدهر • وجاهد الذهن يريد أن يقف مما رأت العين وتأثرت به النفس واهتز له القلب عند فكرة فكان أكثر منها جميعا بهرا وحيرة واهترازا •

رأينا الأشياء التى حشرت مع الملك ليعث بينها • رأينا تمثالى الملك وعروشه وكرسیه وعرباته وباقات الورد استبقاها الحنوط حية على القرون • رأينا هذه الآثار ووقفنا أمامها زمنا سمح للنظر أن يرى وللنفس أن تستجم وللقلب أن يطمئن وللذهن أن يستقر • لكنها جميعا اتجهت بكل ما فيها من قوة الأبصار والحس والشعور والاستجمام الى هذا التراث المجيد من آثار مصر القديمة • ثم غادرناها وقد ارتكزت صورها فى غور وجودنا فأصبحت قسما منا نحس ونشعر ونفكر وله على حسنا وشعورنا وتفكيرنا أثر لن يزول •

غادرنا هذه الآثار الى الدير البحرى • ثم عدنا أدراجنا الى الأقصر • وبلغنا الفندق وقد نال منا التعب وهدا ما أنفقنا من جهد • لكن هذه الآثار الباقية ما بقينا والباقية بعدنا الى أجيال وأجيال مقبلة لم تغادر تصورنا ولم ينلها فى تخيلنا أى جهد أو كلال • بل ازدادت وضوحا وازدادت قوة وازدادت استثناء بنا فصرت لا تسمع بين أهل الفندق ممن زاروها الا تحدثا عنها وممن لم يزروها الا تسأولا ودهشة ورغبة فى مشاهدتها •

استأثرت آثار باب توت - عنخ - آمون بخيالنا وبتصورنا ، فلما خلا كل الى نفسه وسعد بالوحدة الحلوة الطيبة وتأهب للراحة وللنوم عاودته بكل قوتها وبكل حياتها وارسمت أمامه ناطقة متكلمة •

تلك آثار أجدادنا نحن المصريين • تلك آثار الفراعنة • وهى كانت مخبوءة فى جوف الصحراء ، فى ذلك الصخر القاسى اتخذها صاحبها درعا من الفناء • فكشف عنها رجل ليس له بالفراغة صلة • رجل جاء فى أرض الفراعنة مستشفيا ثم أوحى له القدر أن يعمل لكشفها • فكشف عنها بعد لآى ونصب ولغوب ، وعاونه رجل مثله ليس بينه وبين الفراعنة الا صلة الاعجاب بهم والتتقيب عنهم ، وقام بالعمل أبناء الأقصر وما حولها من شبان ورجال تداولوا العمل

بارشاده وباشرافه وعلى نفقته • لكنها آثار أجدادنا نحن ، فنحن وحدنا أصحابها وله الفضل عن كشفها وله منا الشكر والمنة • وله على التاريخ الاسم الباقي ما بقى اسم الفراعنة • وما بقى اسم توت - عنخ - آمون •

تلك آثار أجدادنا الفراعنة الذين عاشوا من أربعين قرنا مضت • أليس عجيبا أن تضاهى تماثيل الملك المصرى تماثيل الاغريق وتماثيل روما وتتفوق عليها • يعجب الناس من كل الأقطار بتمثال الزهرة آلهة الجمال ويعدونه مثالا نادر المثل • ويعجب الناس بصور ميكلانج وبنقوشه • ويذهب بهم الإعجاب الى حد البهر والى حد الهيام ، ذلك أنهم لم يروا تماثيل توت - عنخ - آمون ، وبأنهم لم يروا تماثيل السباع والبقر والخرتيت فى عروشهم • ويعجبون بنقوش الرومان والقوط ، ذلك أنهم لم يروا نقوش صناديق الملك المصرى أو عرباته • ولو رأوها لتضائل إعجابهم بتلك التماثيل والنقوش ولأخذ بأبصارهم وبقلوبهم وبعقولهم ملك الأسرة الثامنة عشرة المصرية •

أجل • لو رأوها لقالوا عن أجدادنا أنهم أجداد الفن وعن مصر انها مهد المدنية • ولو رأوا حنوط الورد واللحم وما تبت الأرض من بقلها لتضائلت مدنيته أمام ما يرون • لو رأوا خلود هذا الزهر الرقيق السريع الى الذبول وبقاء تلك الحنطة الدقيقة المتأكلة •

وقرناوا اليها حديدهم الصلب يفنى ويتأكل رغم عنايتهم ، وحجارته القاسية تنهار وان شادوها ، اذن لايقنوا أن هؤلاء المصريين القدماء وصلوا من المدنية الى قمة نفخ بعدها فى الصور فاضطرب الوجود وتداعمت قوائمه ثم بعث من بعدهم خلق جديد وسار يتطور فى سبيل التقدم ، وهو لم يبلغ بعد مدنيته ، وهو لن يبلغها الا أن تكون مصر على رأس العالم ، والا أن تكون أم المدنية ، والا أن تبلغ هى الغاية التى تطمح اليها الانسانية • والانسانية لم تصلها • وهى لن تصلها حتى تمسك مصر زمام القيادة • فتتولى السير بالعالم فى سبيل الرقى والسعادة •

كلا ! لم تكن مصر القديمة مهد المدنية ، بل كانت قمتها وغايتها • وهذا التاريخ الذى يروونه وهذه الأساطير التى يتناقلونها ليست الا أثرا من آثار كبرياء الشباب الفارغة • أما آثار العقل الناضج ، آثار المدنية الصحيحة ، آثار الرقى الانسانى الصاعد بالروح الى ملكوت الملائكة بله الآلهة • فذلك ما لم تبلغه الانسانية ، وما لن تبلغه ، حتى تكون مصر فى الطليعة ، وحتى يدين الناس لها بالسبق والقيادة الى غاية الكمال •

وليس ما يطالعنا به توت - عنخ - آمون من صور الحضارة دليلا على أن هؤلاء الأجداد العظام كانوا يحضرون للمدنية المادية السخيفة التى يرزح العالم اليوم تحت أرزائها ، وانما هو دليل على

أن الإنسانية بلغت في عصره كل القوة والعزة والمنعة والشباب ،
ووصلت الى غاية ما ترجوه الإنسانية • ثم اضمحلت من بعده
وتدركت الى الهرم والى الفناء • ثم بعثت فاضطربت فى حمأة الطفولة
وتلوثت فى أدرانها ، وهى قد خرجت منها من زمن ، وهى اليوم
تعانى آلام شهوات الشباب المبتدىء • وليس من يدري متى تظمئن
الى شئ من الحكمة • ومتى تعاودها نعمة العقل •

هذا ما تنطق به آثار باب توت - عنخ - امون البالغة فى الابداع
حد الاعجاز • وهذا ما تنادى به معها آثار طيبة الأموات مما وقعت
عليه عين الإنسانية • وهذا ما تشهد به الآثار المصرية القديمة ما بقى
منها فى مصر وما عبر منها البحار الى الدول الأخرى • فان كان
لا يزال فى نفسك من ذلك ريب فاقصد معى الى الكرنك والى بركة
الاقصر واقرن ما ترى هناك الى مثله من آثار روما ، تر أمملك
واضحاً هبة القدم وجلال العظم عند المصريين بالغين حدا تتضاؤل
معه الآثار الرومانية والآثار الاغريقية حتى لتكاد تنسى • وهل جلال
أعظم من جلال الكرنك • وهل أثر باق للحضارة الكاملة غير آثار
المصريين القدماء •

فى حضرة الفراعنة

طيبة الأحياء

بين جبال ليبيا ، وعلى نحو فرسخين من شاطئ النيل الأيسر ،
تقع طيبة الأموات ، وفيها معابد الدار الآخرة • وفيها لحدود الرعية
وأجدات الأمراء ، ومقابر الملوك •

وعلى الشاطئ الأيمن تقوم الأقصر حيث كانت تقوم طيبة
الأحياء • وفيها بركة الأقصر • وفيها الأطلال الدوارس التى تتحدث
الى الأجيال المتعاقبة لمستقبل بعيد عن أجيال نائية فى ماضٍ سحيق
- فيها معابد الكرنك الكبرى •

معابد الكرنك : هياكل النيل التى ظلت آلاف السنين تتعاقب
ومياه النيل • معابد خونسو • وأوزوريس • وآمون • وسيتوس •
وطريق اباء الهول • والبحيرة المقدسة • أطلال طيبة الأزلية
الباقية • قدس أقداس مصر القديمة • عظمة الماضى ومجد التاريخ •
المدنية البائدة الخالدة • الإنسانية فى كمالها الأسمى • آثار أجدادنا
العظام • آثار المصريين الذين حكموا وسادوا • حكموا بالعقل
والعلم ، وسادوا بالمحبة والحلم • تلك هى الآثار الدارسة القديمة

المبعثرة فوق ثرى الوادى على مقربة من الأقصر الى الجانب الأيمن من النيل • تلك هى الأحجار الناطقة فى صمتها بمعانى العظمة ، المحدثة ببلادها عن ألوف السنين التى مرت بها من يوم شادها أجدادنا هياكل لعبادتهم ، ومستقرا لعلم آلهتهم وذكر الأشتخاصهم التى سبقت التاريخ من غير أن يدور فى وهمها أن سيبقى ذكرها زينة التاريخ ما بقى التاريخ ! • • •

معذرة ! • • • لقد كنت أريد أن أصف معابد الكرنك • وأن أذكر طرفا من تاريخها • وأن أتحدث عن بنائها ، وعن ضخمتها وعن رفعتها • وكنت أريد أن أقرنها الى ما رأيت من آثار الرومان فى روما • وفى مدن فرنسا : فى نيم • وارل • وافينيون • ورويا • فلم تكد أسماء معابد الكرنك تمر أمام خيالى ، حتى امتلأ بعظمتها وبقداستها خيالى ، وحتى تضائل ما رأيت من آثار اليونان والرومان • وحتى أصبحت الفورم ، والكابنول ، بعض تلك الآثار الصغيرة التى لا تحصى والتى تقابلك حيث ذهبت من ديار الآثار فى مصر • وهل ترى فى الوجود أثرا لا يصغر ويتضائل ويفنى اذا ذكرت عظمة معابد الكرنك ، وبينها معبد آمون •

قرون جاءت على آثار روما ، وعلى آثار أثينا • وللقدم هيئته • ولجراح الماضى فى تلك الآثار قداستها • وللفن عظمتها • وللإبداع

الفنى فى تلك الآثار احترامه • وأنت ابن اليوم لن تستطيع مهما فاخرت بعلم عصرك وفنه ودقته الا أن تقف أمام تلك الآثار التى جاءت عليها القرون معجبا خاضعا • • • فاذا وقفت بين أطلال الكرنك لم يكفك الإعجاب ، ولا الخضوع ، ولا التقديس • لأنك ترى آثارا تفوق آثار مدينتك الحاضرة عظما وقوة وابداعا ودقة •

لست أغلو • ولكنى لا أستطيع أن آنى على الوصف الذى يبعث الى نفسك الاجلال والبهر اللذين ملأ نفسى حينما كنت بين هذه الآثار • واللذين تركا فى نفسى أثرا سيقى الى أن تزول من بين الأحياء نفسى ، ولو لم يتح لى القدر أن أعود الى طيبة المقدسة مرة أخرى •

كلا • لست أستطيع أن أصف لك هذا المشهد • لأنه ليس مكونا من أحجار ولا من صور وتماثيل • ولكنه مكون من ماض عريق فى القدم والعظمة ، عريق فى الجلال والهيبة ، عريق فى الإبداع والدقة ، عريق فى كل ما تريد الانسانية اليوم أن تصل اليه من قوة وعزة وجاه وسعادة • وفيما تنفق فى سبيله الجهود الكبار • ثم هى تراه أمامها سرا با قد لا يتحقق على القرون •

★ ★ ★

معابد الكرنك • هياكل آمون وسيتوس وتمموزس وفتاح • وفى مقدمتها طريق آباء الهول • وعلى أبوابها درجات الطول والعرض

لنعرف أين أنت من كرة الأرض • وبينها معابد آلهة الخير والشر
تطلعها الشمس ظهيرة كل يوم لتطلعها على آثام الناس وحسائهم •
ومن خلالها تماثيل رمسيس وتحتمس وآل فرعون • وفي غايتها
البحيرة المقدسة •

ألست ترى هذا الجمع من كهنة آمون قادمين على شاطئ النيل
إله الخير والخصب وهم ينظرون إلى مياه الهادئة في موجهها نظرة
اعتراف بالجميل وتقديس واجلال ؟ ألا تراهم يريدون أن يسلكوا
سبيلهم إلى معبد آله الشمس آمون ليرتلوا لمبث النور والدفء آيات
الثناء والحمد • هاهم أولاء انعطفوا في طريق آباء الهول بين تماثيل
السباع ركبت عليها رؤوس كباش الغنم وازدان صدرها بتمثال
أمون فجمعت بين القوة والعظمة والحنان والركة والقداسة والهيبة •
وتالت كثيرة متتابعة تزيد الجمع بكثرتها خشوعا وبظام متابعتها
رهبة ومهابة • وقام أمام الجمع مدخل المعبد الضخم الرفيع لا تدرك
شرفته نظرة الخاشع السائر في هذا المشهد الرهيب • هاهم أولاء
تخطوا المدخل فأحاطت بهم نصب الآلهة وتماثيل الملوك ومن حولها
العمد الرفيعة الشاهقة • فلما نادى رئيس الكهنة باسم آمون خروا
جميعا سجدا •

كان هذا الجمع يتخطى هذه المشاهد بملابسه الكهنوتية وقبله
ممتلىء قداسة واجلالا واكبارا • أما أنت فتصر في طريق آباء الهول

وترى مدخل معبد آمون وتتخطى إلى داخله فتري هامات الكباش
طائرة عن أجساد السباع • وترى تماثيل آمون القائمة على صدورها
أبلاها من القرون ، وترى معبد آمون تحطمت نصبه وتداعت
تماثيله وتطايرت رؤوس عمده • ثم لا يكون قلبك الذي امتلأ
بالقداسة والاجلال والاكبار أقل خشوعا من قلوب هذا الجمع
بملابسه الكهنوتية •

وتتخطى بين هذه الآثار مسلات رفيعة وعمدا لا تمل العين
التحديق بها ، ونصبا فوقها تماثيل بالغة في الاحكام ، وجدراننا
ترى الطير والوحش قد زينت سطحها ، وذلك كله وما هو حوله
من مثله ومما هو أعظم منه وأبدع فوق متسع من القلا لا يجيئ
عليه الناظر في مدى نظرتة ولا يتخطى واحده إلى ما بعده من غير
أسف على تخطيه •

كيف كانت تنحت تلك التماثيل العظيمة ؟ وكيف كانت ترفع
فوق تلك النصب ؟ وكيف كانت تقام تلك العمد ؟ وكيف كانت
تصل إلى قممها شرفاتها البديعة النقش ؟ وكيف كانت تحمل فوق
تلك الشرفات الأحجار الضخمة التي تصل العمد بعضها ببعض ؟ !
أي فن وأي علم ؟ وأي مقدرة كانت تقوم بذلك كله ؟ وأين من

هذا الفن والعلم والمقدرة فنا وعلمنا ومقدرتنا ؟ وهل لنا أن نباهى
أهل تلك العصور البائدة ؟ !

معابد خونسو • وفتاح • وآمون • آيات المجد والعظمة • آثار
الكرنك الخالدة • كلا • لن يحيط بك وصف الواصف الا اذا
وقف عليك من حياته سنين طوالا •

أما أنا فيكفينى ما شهدت • هو يكفينى فخرا بالماضى • ولوعة
الحاضر • وأملا للمستقبل •

ابيس

مهداة لسر أناتول فرانس

• ذهبت مع أصحاب الى المتحف المصرى أشهد للمرة العاشرة
نفأس قبر توت عنخ آمون ، واثقا من الكشف فيها عن دقائق
جديدة من آثار الفن القديم • وفيما نحن متأهبون للخروج لقينا
صديق مغرم بتاريخ أسلافه الأولين ، فلا يكاد ينقضى أسبوع دون
ذهابه الى المتحف : يتحدث فيما يقول ، الى أجيال وأجيال حشرت
بعد بعثها فى هذا القبر غير اللائق بها • ويأمل أن يظهرها هذا
العذاب من اثم قد يكون لصق بها حين حياتها ، ويرجو أن لا يطول
أمد تفكيرها ، وأن تنقل الى أقداس تليق بجلالها • • • فاستوقفنا
برهة ثم دعانا لنصحبه فى تحية أوجب على نفسه أدائها ، كلما
خضر ، الى معبود ابائه العجل ابيس • فلما كنا فى حضرة التمثال
المقدس وقف برهة صامتا ودلت حركة شفاهه على أنه كان يتلو
بعض صلوات لا شك فرعونية • فاثارت حركته دهشة شاب كان
معنا فتح عينيه واسعتين وحملت بتمثال العجل وبنجيه ثم أدار نظره
فينا فألفانا فى شغل بما حول العجل من تماثيل • ولاحظ المصلى
دهشة الشاب فالتفت نحونا بعد ما أتم صلواته وقال :

— لعلكم تعجبون لما أصنع • أما أنا فلا أرى محلا لعجب • لقد كان ابيس رمز الخير والبركة • فكانت عبادة آبائنا له دليلا على أنهم يقدسون من الحياة خيرها وبركتها • ومن أجدر بالتقديس والعبادة ممن يدر الخير والبركة على الناس ؟

« وما أخالكم تذكرون قصة ابيس وعبادته عند آبائنا • فقد كانوا يجعلون لهذا الحيوان المخصب خير صفات الآلهة • »

وهنا اتجه الى صاحبنا الشاب ومضى في حديثه :

— ولا تحسب يا صديقي أنهم كانوا يعبدون كل عجل رأوه أو أن كل عجل كان عندهم ابيسا • ولو أنهم فعلوا هذا لظعن في علمهم الجرم ومدينتهم الفاضلة • فالعبادة لا تجوز الا للكمال حيث تجتمع صفات الفضل طرا • وكل عجل معرض لأكثر من واحدة من نقائص الناس • والرجل الكامل جدير باعجاب الناس به • والعجل الكامل جدير بأن يكون رمز هذا المعنى الذي تجب عبادته : معنى خير الحياة وبركتها • لذلك كان للعجل الاله عند آبائنا ما يميزه على العجول جميعا ، فهو لم يكن يولد كما يولد كل عجل من كل بقرة اقرب منها ثور • بل كان أجل من ذلك نسبا وأقدس أصلا • كانت نار سماوية تهبط فتتفخ في بقرة عذراء من روح القدس فتذر الاله في حنايا ضلوعها حتى اذا ولدته وجب أن لا تلد بعده أبدا •

• • • وليطمئن آباؤنا الى أن روح القدس وحدها هي التي لامست البقرة العذراء وجب أن تكون لابنها صفات كل ابيس سبقه • وابيس يجب أن يشتمله السواد ، عدا غرة مثلثة في جبينه وأخرى في صورة الهلال على جنبه الأيمن • ويجب أن تكون تحت لسانه عقدة كالجعران شكلا ، وأن يكون شعر ذنبه ذا لونين ؛ وأن تجتمع له اجمالا وتفصيلا ما فرضه العباد على آلهم من صفات •

• • • فاذا نحى الموت ابيسا عند قدس زريته وأذن مؤذن بميلاد ابيس جديد ذهب رهط من كبار رجال الدين فاستوثقوا من كمال صفات الاله الوليد ، ثم أقاموا حيث ولد زريبة تطالع مشرق الشمس ليمضي فيها مدة رضاعه أربعة أشهر • ومتى انقضى هذا الزمن وكان هلال جديد وضع العجل في مقصورة مذهبة فوق قارب كبير ونقل الى مدينة « نيلوبوليس » حيث يستقر أربعين يوما • ولا يقترب من الاله في فترة هذا المقام غير النساء ، يجئن اليه من كل الأنحاء راجيات خصب أرحامهن ، فيتجردن في حضرته على صور وأوضاع يأبأها عرفنا وعرفهن في الحياء • وبعد هذه الأيام الأربعين يقفل معبد العجل دونهن وينقل ابيس الى مقره الأخير بمنفيس في مقام بالغ غاية الفخامة ، وتبقى أمه معه في زريبة متصلة بقدسه يخلع عليهم بعض شرفه الديني • ولا تقربه من البقر الا واحدة مرة في كل عام لتكون لرؤيته متاعا ولذة ، ويقضى على هذه البقرة

السعيدة فى يوم سعدها ، أن ليس يليق بالاله أن يكون له نسل
كنسل الثيران جميعا •

عند هذا الموضع من حديث صاحبنا جاء قوم وقفوا الى جانبنا أمام
تمثال العجل المقدس • فآثرنا الخروج من المتحف وألقينا نظرة
على ما حولنا من تماثيل وألواح من الحجر والبصخر ، ورفعنا
أبصارنا الى الطابق الأعلى لتتصل نفوسنا بموميات آبائنا الخالدين •
ثم خرجنا وكانت الشمس المنحدرة الى المغرب ترسل أشعتها
الرفيقة على الفضاء المنبسط أمام المتحف فتبعث اليه من حياة الحاضر
ما يوقظ النفس بعد ساعات نسيته فيها الحاضر بين الماضى وغياباه
وتخطينا الباب الحديدى الكبير وسرنا ميممين فندق سميراميس
وأنتم صاحبنا حديثه فقال :

— وكانت غاية حياة ابيس القدسية خمسة وعشرين سنة • فاذا
لم ينفق بالموت قبل انتهائها أغرقه رجال الدين فى بئر لا يعرفها
سواهم أعدت لاغراق كل ابيس يخالف التقاليد ويتشبث بالحياة •
ثم أذاعوا فى الناس أن الاله قضى على نفسه منتحرا • فاما ان هو
لم يتخط التقاليد ومات قبل الخامسة والعشرين فقد حق له أن
يدفن بما يجب لآله مثله من مظاهر العظمة والآلم • فيخلق المصريون
جميعا رءوسهم ويلبسون ثياب الحزن ويشيعون جثمانه المقدس الى
« سيرابيس » ويظلون مرتدين سوادهم حتى يجيء أبيس جديد
يخلفه فى قدسه •

كذلك قال صاحبنا ، وكانت لهجته تشهد بتبجيله للعجل المقدس
وبمشاركته آباءه الأقدمين فى احاطتهم معبودهم بمجالى الربوبية •
وهنا أبدى الشاب من الضجر ما دل على تحفزه للقول • ثم قال :

— ليس من ينكر على مصر الفراعنة براعتها فى العلم والفن •
وكل كشف جديد عن آثار هذه المدينة الخالية يزيد العالم ايمانا
بعظمتها وقوتها ، ويدل على مبلغ ما كان لأسلافنا من نشاط تصغر
أمامه كل مظاهر النشاط فى مدينة اليوم • وهذا الذى رأيت اليوم
لأول مرة من آثار توت عنخ آمون يفرق فى بهائه ودقته كل ماذكر
عنه ، وينهض حجة على أن الحقيقة فى بساطتها قد تبلغ من الجمال
حدا تصبح معه المبالغة فى وصفها هراء وسخفا •

*** ولقد أذكر يوما اجتزت فيه الصحراء من ناحية البدرشين
مع صاحب يشبهونكم فى الظرف والركة قاصدين صقارة ؟ فقطعنا
على ظهر الدواب فراسخ وأميلا تحيط بنا المزارع والرمال وتظلمنا
سما صفو منذ القدم ، لم تخضع لحكم الضرورة التى تخضع له
العوالم كلها ، وتقابلنا أحجار وتماثيل طبع الزمن على صحائفها
آثارا من البلى تزيدها حياة وتجعل من صمتها حديث العصور
الخالية • وقد استوقفنا من هذه التماثيل كثير يحدث عن ذوق القوم
للفن وعبادتهم للجمال • وانى أشهد ما تأثرت لمنظر تأثرى حين
بلغنا من طريقنا موضعا رأينا فيه تمثال رمسيس الكبير ملقى على

جانب الطريق وقد جل عن أن يختلط بتراب الأرض فنام فوق مخادع من الحجر ووضع تاجه الى جانبه • عند هذا التمثال وقفت طويلا وسمعت فى أعماق نفسى صوتا يخاطب صورة الملك العظيم بهذه العبارة :

« ترى فى أى ميدان من ميادين منف الخالدة الأثر كنت تقوم أيها التمثال الفخيم ؟ وعلى أية مدنية فرعونية كانت تطل عينك الحجريتان ؟ وكيف كان الناس من أهل تلك العصور ينظرون اليك والى تاجك الملقى الآن عن هامتك الملوكية ؟ وكان يومئذ فوقها عزيزا • أكانوا ينظرون بعين الطلعة التى تنظر بها نحن ؟ أم كانت عيون اعجاب واجلال وخضوع وعبادة ، وصاحبك الخالد رمسيس ؟ صاحبك الذى لن يعدو الدهر على ذكره كما عدا عليك ، فدك عرشك وحطم سيقانك وطرحك على ظهرك وألقى بتاجك فى الأرض ؟ صاحبك صاحب الروح الكبيرة ؟ صاحبك ابن الشمس ومحبوب آمون وعطارد والآلهة ؟ صاحبك المظفر الراكب عربة الحرب يطارد بها عدوه الهزيم ؟ صاحبك ملك مصر العزيزة بأمر الآلهة وعيونهم ؟ أين روحه الآن لترفرف على مصرنا فتفتخ فيها روح قوة ومجد وعزة ؟ »

... هذا الخطاب النفسى لتمثال رمسيس ، واعجابى الخالص بآثار طيبة ، يظهر انكم على ما أشعر به نحو آبائنا الفراعنة أصحاب

المنجد الخالد • لكننى أعجب حتى لا أكاد أصدق أن شعبا ذلك مبلغه من العظمة والرقى يؤمن بأوهام كالتى تروى عن أبيس وعن غير أبيس من الآلهة ويسلك فى عبادته طقوسا يراها أكثر الناس اليوم سذاجة بالغة فى السخف حد الهوس •

أتم الشاب حديثه فأجابه صاحبنا :

— أنت مخطيء يا صديقى الشاب • وأنت مجدف أيضا • فإن أبيسا لم يكن عجلا كالعجول • بل كان كما ذكرت نفحة من روح القدس • وكانت له معجزات تنفى كل شك فى ربوبيته أيام كانوا يعبدونه • فقد حفظ التاريخ أن آبائنا كانوا يقيمون فى كل عام عيدا لميلاده بمنفيس يجمعون فيه كل لذائذ الحياة سبعة أيام تباعا • وكانوا يبدأون عيدهم بأن يقذفوا فى مكان معين من النيل وعاء من ذهب أو من فضة • فكانت التماسيح تمسك مدى هذه الأيام السبعة عن أن تؤذى أحدا • فاذا كان اليوم الثامن عادت الى اقتراسها • فهل ترى هذه الحيوانات المائية الضخمة كانت تغير طبعها لولا سلطان العجل • ولا تقل ان امساكها ربما كان سببه فرضها الصوم على نفسها أياما خاصة من السنة • فقد كان عيد الميلاد يتغير كلما تغير العجل • أى كل خمس وعشرين سنة أو أقل من ذلك •

... ومعجزات أبيس كثيرة • فقد ذهب العالم الفلكى «ايدوكس» لزيارته يوما فاقترب العجل منه ولحس أسفله رذائه • وفسر رجال

الدين هذا المظهر بأن أيديوكس سيكون ذا مجد قصير الأجل • وكذلك كان • ورفض أبيس أن يتناول الطعام من يد جرمانيكوس فدل بذلك على خاتمة هذا الأمير السيئة • وكذلك كان •

... فهل ترى من حقتك بعد ذلك يا صديقي أن تجدف في حق اله ذلك سلطانه وتلك قدرته ؟

فعلت ثغر الشاب ابتسامة وهز أكتافه وقال :

— عجل يعبد ! ثم يقال ان انكار عبادته على أنها سخف وهوس تجديد غير لائق بالآلهة ! أليس ذلك مضحكا يا سيدي ؟

تولى الجواب عن صاحبنا أخ لنا لا يزيد علينا في السن ، لكن شيئا انتشر في رأسه يذكر هو أن الخوف سببه جعل مظهره أكثر هية ووقارا • قال :

— ألسم يقل لك صاحبنا ان أبيس لم يكن عجلا كالعجول أن حملت أمه من طريق قدسي ! وأى سخف في أن يحاط جلال عجل بالأوهام الطيبة لكي يتصل ما بينه وبين ايمان السواد • أليست الأوهام التي نحترقها في الجماعات القوة الكمينة الخالدة التي توجه نشاطها — متى كانت طيبة — الى الصالح المفيد • وهل كان أبائنا يعبدون في أبيس العجل الأسود الأغر المشي لون شعر ذنبه لتكون عبادتهم له سخفا وهوسا • كلا • بل كانوا يعبدون فيه رمز النيل مدر الخير والبركة • كما أنه كان لباس أوزوريس وصورته الحية •

وأوزوريس كما تعلمون اله الخير والفضل والسلام • وهذه كلها معان جديرة بالتقديس والعبادة •

قال الشاب :

— هب يا صاح هذه المعاني جديرة بكل تقديس لأنها أكثر المعاني اتفاقا مع عبادتنا للحياة وفطرة الاحتفاظ بها ، فما صلتها بأوزوريس وأبيس ؟ ولم لا تخلع عليها القداسة في جمال تجردها من غير أن يلبسها عجل أو غير عجل من سائر الحيوان ؟

فأجاب الآشيب :

— وهل العبادة والتقديس الا الاعجاب يملك النفس ويهرها ويأخذ عليها كل مسالك الشعور والحس ؟ أتراك اذا ذهبت الى حيث يتولد من الكهرباء ما قوته مائة مليون حصان ورأيت الى جانب هذا النبع من القوة ما يديره من العدد والمكينات وما تنتجه هذه العدد من ثمرات ، أتراك بعد ذلك الا مأخوذا عن نفسك ذاهلا لعظم ماترى ؟ فاذا قصصت ذلك على غيرك وكانوا يعيشون من ثمر هذه القوة فهل تراهم الا يقدسونها ويسبحون بحمد من أجراها • كذلك كان شأن السواد من آبائنا فيما قصه عليهم ذوو الرأي منهم من قصص أوزوريس وايزيس وأبيس وسائر الآلهة •

قال صاحب أبيس :

— ما أحسبك قد بعدت عن الحق كثيرا يا أخى • وقد قصصت

عليكم من أمر أبيس شيئا • وهاكم حديث أوزوريس لتروا وليرى
أخونا الشاب أن عبادة ابائنا لم تكن سخفا وهوسا :

« ولد أوزوريس من الاله جب (الأرض) والآلهة ناوت (السماء)
حين أدرك هذين الآلهين الهرم فعجزا عن قمع وحشية الناس
وشرهم • ولما كبر تزوج من أخته ايزيس وجلس على عرش
المصريين وصار ملكا على الآلهة والناس جميعا • وقد استطاع بفضل
الجمال والعلم والصلاح أن يتغلب على شر الناس وأن يردهم الى
السلم وأن يعلمهم صناعاته • فعرفوا الزرع وطعموا من جوع
واتخذوا من المعادن أسلحة يفلحون بها الأرض ويتقون بها عادية
الحيوانات المفترسة • وبمعونة الاله توت علمهم الأسماء كلها
والفنون وفائدتها • ثم ترك لايزيس حكم مصر وسار على رأس
جيش لهداية أهل الأرض جميعا • لكنه لم يكن بكبير حاجة الى
هذا الجيش • فقد سحر الناس بعبارة الاله وكلماته وبهرهم الرقص
واستولت على ألبابهم الموسيقى • وكذلك تم للخير والفضل حكم
العالم •

وكان « ست » اله الشر أخا لأوزوريس • ولما رأى من آيات
حكمته أدركته الغيرة فدعاه الى وليمة أعد فيها صندوقا فاخر الصنع
وواعد أضيافه بأنه مهديه لآى منهم طابق الصندوق حجمه • فدخل
اليه الأضياف واحدا بعد الآخر حتى اذا كان دور أوزوريس

واستوى فيه - وكان قد صنع على حجمه - أسرع شركاء اله الشر
فألقوا الصندوق وألقوا به فى النيل ، فدفعه التيار الى البحر
وقدفته الأمواج الى شاطئ الشام وبقي عنده الى جانب شجرة
أنماها القدر لتحميمه من الأعين الى أن جاءت به ايزيس الى مصر
بعد حزن وبحث • لكن « ست » عثر به ثانية فى احدى جولاته
جوف الليل فمزق جسد أخيه أربعة عشر جزءا ألقى بكل منها فى
مكان • فعادت ايزيس الى بحثها واستعادت أجزاء الجسم واستعانت
بأختها وبابنها الاله هورس وبطقوس الدين فردوا اليه حياة شابة
خالدة لا يحيها على الأرض بل فى السماء • وكذلك بعث الاله
الملك ووعد بالبعث كل من يفعل الخير حين حياته •

••• وهذه قصة المعركة بين الآلهة وأوزوريس اله الخير قد
وجد من العجل أبيس ممثلا له ولباسا • أو قل انهما صورتا روح
واحد ورمز لمعنى الخير • فما السخف فى أن يعبد الناس هذا الرمز
ويقصدوه •

بلغنا من سيرنا ثكنات قصر النيل • فملنا الى يميننا فى طريق
الجسر ، وهبت علينا نسيمات الأصيل المنعشة فى هذه الأيام الصحو
الجميلة التى تفصل الخريف من الشتاء • ولحق بناء أثناء الطريق
شيخ من ظرفاء أصدقائنا قال انه يقصد أن يعبر النيل على جسر
اسماعيل لرياضة نفسه فى حدائق الجزيرة وللملافة أصحاب على

موعد معه بجوار الكوبرى الأعمى • وكان قد أنصت الى طرف من الحديث لم يشغل عنه الا بمنظر شبان من جنود الانجليز يلعبون كرة القدم فى فناء الشكات ، وقد كشف رداء اللعب عن أذرعهم وسيقاتهم وبدت على بعضهم مظاهر جمال القوة والنعمة • ولما ملأ أعينه من هذا المنظر كان أخونا الأشيب قد أتم حديثه • فقال الشيخ :

— ما لكم تدهشون أن عبد قدماء المصريين عجلا وقد عبد العرب الأصنام وآمنوا بالهبل الأكبر وبمن دونه حتى بعث الله نبيه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله • وهل أرسل نبي الا لقوم أولعوا بالحياة جبا فجعلوا من كل مظهر فيها قدسا وزين لهم الشيطان عملهم فصدهم عن عبادة الله فقام النبي بينهم ليهديهم السبيل فمنهم من آمن ومنهم من كفر • ولقد كان فراعنة مصر أشد الناس إلحاحا فى الكفر • جاءهم موسى بالهدى والبيانات وخر سحرتهم أمامه سجدا فأبى فرعون واستكبر وهم بقتل الرسول ، فخرج موسى وقومه من ديارهم وأنجاهم الله بآية منه أن أمر موسى فضرب بعصاه البحر فانفتح أمامه فى البحر سرب ، وتبعه فرعون وجيشه فابتلعه أليم فكان من المغرقين •

••• وهل تظنون أن هؤلاء السكونيين — وألقى من جديد نظرة على اللاعبين — لم يكن يعبد آباؤهم أصناما شر من أبيس ومن الهبل الأكبر • تلك سنة خلت حين كان العالم فى جهله وعمائه •

قال صديقنا الأشيب مبتسما :

— وهل أتاك ياسيدنا الشيخ نبأ السكونيين ؟ لقد كانوا أيام ربوبية أبيس فى الكهوف بين الوحوش • وأيام أبيس كان الكهنة ورجال الدين فى مصر يؤمنون بوحدانية الله • فأما آلهة الخير والشر والحرب والسلم فكانوا رموزا لمعان سامية لا يدركها السواد ما لم يكن لها جسم وكيان • وأظنك ترى مصر الحديثة كمصر القديمة • يوحد رجال الدين ويقدس السواد رموزا لآمانيهم كالعجل القديم • لكن الشيخ كان قد بلغ جسر اسماعيل وآن له أن يعبره الى الكبرى الأعمى فألقى علينا السلام مودعا • ورددنا تحيته بأحسن منها •

وكان الذى دعانا الى الشاى قد لزم الصمت الى هذه اللحظة • فقال له صديقنا الشاب وكان بأرائه مغرما :

— مالك لا تتحفنا برأيك •

قال الذى دعانا الى الشاى :

— علمنا أساتذتنا أن الحكم على الشىء فرع عن تصويره • فالحكم على أبيس وعبادته وطقوس تلك العبادة يجب له أن نحيط بكيفية ادراك المصريين لهذا العجل احاطة تامة • وما أحسب واحدا منا هنا يدعى هذه الاحاطة • بل ما أحسب علماء العاديات المصرية أنفسهم ، مع كثرة ما بحثوا ونقبوا ، على ثقة من أنهم عثروا من

النصوص والآثار على ما يكفى ليرسم أمامهم فى صورة ناطقة حياة هذه الجمعية التى يعترف الكل اليوم لها بأعظم حظ من الرقى فى درجات الحضارة • ولقد قال هؤلاء العلماء أنفسهم بعد الكشف عن قبر توت - عنخ - آمون ، ان واجبا تحوير ما كتب حتى اليوم عن العاديات المصرية تحويرا جوهريا وتصحيحه ليقرب من مطابقة الواقع • هذا ولما يعرف كل ما فى قبر الملك الشاب من أسرار • ولا يمكن لأحد بعد أن يقطع بأن هذا القبر اخر ما يمكن الكشف عنه من آثار المدينة القديمة العظيمة •

••• ولو أنا أنانا اليقين بكشف العلم عن جميع العاديات والآثار المصرية القديمة وبوقوف العلماء على جميع مخطوطات تلك العصور لما قطع ذلك بأنهم بلغوا غور النفس المصرية من ستة آلاف سنة ففتحت لهم أبوابها وساغ لهم تتبع ديب احساساتها ومشاعرها وتقدير أثر الظواهر العالمية على تلك الاحساسات والمشاعر • فإنما يترجم العلماء نصوصا مصرية من اللغة الهيروغليفية القديمة الى اللغات الحديثة ويقربون بينها ويستنبطون منها • والمترجم من لغة الى لغة لا يعكس صورة الأصل ، وانما يعكس صورته هو من خلال هذا الأصل ، كما تحيل المرأة اللون الى الصفرة أو الحمرة على قدر صفاء مائها ، وكما تطيل الشخص وتقصره وتعظم بطنه وتخرج سيقانه على قدر استواء سطحها أو تعرجه • هذا ولو كان المكتوب الذى ينقله المترجم معاصرا له • ثم هو بعد تمام الترجمة غير مطمئن

الى أنه أبرز كل ما فهمه فى الأصل من معان وصور ومشاعر • ذلك بأن لكل لغة سرا وروحا • فالكلمة الواحدة تصقلها البيئة والعصر فتبعث فيها حياة ذات صور وحدود قد تختلف جد الاختلاف عن مقابليتها فى اللغة الأخرى • وقد تختلف جد الاختلاف عن حياتها نفسها فى بيئة أخرى أو فى عصر آخر • ما بالك والنقل من لغة بائدة من آلاف السنين ، والعلماء الناقلون غير واثقين بكم حياة كل لفظ ينقلونه ولا بكيف هذه الحياة • وأهل هذه العصور البائدة يتصورون العوالم والأفلاك غير تصورنا نحن اياها ••• واذا كان المسيحيون قد اختلفوا فى تفسير كتب المسيحية فنتج من خلافهم الكتلكة والأرثوذكسية والبروتستانتية وسائر المذاهب ؛ واذا كان المسلمون قد انقسموا فرقا من سنية وشيعة ودروز ومتاولة وغيرهم ؛ واذا كان الفلاسفة الذين يزعمون الأخذ بالواقع تحت الحس والملاحظة قد تشعبت فرقهم ، واذا كان هذا الخلاف كله حاصلًا وليس ثمة نقل من لغة الى لغة ، فكيف تستطيع أن تطمئن الى ما يقال لك انه طقوس عبادة أبيس وغيره من الهة المصريين • وكيف تسلم بأن ربوبية آلهة تلك العصور كانت تزيد على ايمان سواد المسيحيين بالقديسين والقديسات وسواد المسلمين بالآولياء والصالحين •

وفيم كان صاحب الدعوة الى الشاى يتم حديثه كانت الشمس قد

بدأت تهبط الى مغيها • فافتعد القرص هام أشجار الجزيرة ، وألقى على لجة النهر نظرة خطت فيه سطرًا من لجين معسجد • وألهب نوافذ المنازل المقابلة بنور انقلب مع انحدار الشمس نارا تشب في مثل هذا الموعد من كل مغرب لتخبو ساعة المغيب • وسرت في الجو طلائع المساء ونذر الليل المخوف الظريف • وسار من سار الى جانبنا أكثر سكونا ومهابة •

ثم مر أحد باعة اللبن يقود أمامه بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ، ويتبعها عجل أسود تبدو عليه امارات الحضارة التي يعاينها في أنحاء العاصمة الكبيرة كل يوم لأخذه بالنظام في سيره تجنبًا للعجلات المتباينة الأنواع • فلما رآه صديقنا الأشيب استوقف بائع اللبن وسأله عن عمر العجل ، فاذا هو خمسة أشهر ؛ واستدنى البائع العجل من أمه ليدر ضرعها ، وأخذنا العجب لفعلة صديقنا • فنادانا لنحيط بالعجل وأمه ثم قال :

— لم يولد هذا العجل من ستة آلاف سنة ، وهو لذلك يجب طرقات القاهرة التي لم تشهد الفراعنة ولم تنل شرف حكمهم • وأشهد لو أنه ولد من ستة آلاف سنة لكان أيبسا مقدسا • فهذه غرته وهذا الهلال في جنبه الأيمن وهذا ذنبه ذو لونين ، وله كل مظاهر الجلال ؛ فما كان لأحد من رجال الدين أن ينكر قداسته • ولو أنه أوتي من الحظ أن يولد في ذلك العصر القديم أو أن مصر

بقيت الى اليوم في سلطان حضارة الفراعنة وايمانهم لكان له شأن غير شأنه الذي نرى ، ولكان اليوم في مدينة نيوبوليس لا تقع نظراته الساذجة المملوءة حكمة وحذرا على غير العذارى والنسوة المتجردات ، ثم لكان له من احترامهن وعبادتهن غير تلك النظرات الشمر التي تناله من مفتونات اليوم فتيات وعجائز • وليدون له في صور وأوضاع تكفل لهن الخصب الذي يرتججن ، ولتنافسن في ذلك خاضعات لطبعهن البشرى • فأبدت كل من محاسنها ما يأخذ بنظر الاله الشاب وينال رعايته ، واتجهت اليه نظرات معسولة من صور وأوضاع تكفل لهن الخصب الذي يرتججن ، ولتنافسن في شفاه شهية عن لؤلؤ رطب يتألق نوره بين حمرتها الملتهية • ومالت أعناق عالية تبدو من خلال الشعر الأسود المرسل على الأكتاف كما تبدو تباشير الفجر من خلال ظلمة الليل ، وامتدت أذرع ناعمة تشبك أطرافها داعية مستجيبة • وبدت نهود وماست قدود وتشت خصور وارتجت أرداف وتحرقت للحركة سيقان وماج هذا الجمال الثائر في طلب الحياة يحماها على أضلعه • ثم لوقف العجل بذلك في معرض حي لأكمل ما أبدع مصور المرأة مجلوا في أجمل مظهر وأسناه • وما بالك بمعرض متجردات خلعن عذار الحياء وتبارين في أوضاع الخصب الذي تنباهي به الأمم يوم القيامة •

... لكن هذا العجل العزيز لم يؤت حظ القداسة ، فلم يولد

من ستة آلاف سنة ولم تبق ربوبية أجداده اية ايمان لهذا الجيل الذى نعيش فيه • وهو بذلك ليس أسوأ من أى مخلوق حظا ، فقد يكون من بيننا من آباءه ملوك ومن لو رأى الحياة من بضع مئات من السنين لكان ملكا • على أن عجلنا أسعد من غيره من العجول • فهو قد حرم القداسة ومعرض المتجردات الحى ، لكنه لم يحرم حضارة المدنية وما فيها من لهو أليم وشقاء مستطاب • ثم لعله فى شأنه الحاضر أنعم بالا • فهو ينعم بمعاشرة الناس والدواب نهاره ، ويتمتع بالوحدة وبمناجاة الطبيعة ليله ، وله من حرية الجرى والرتع ما لم يكن لجده الأعلى ؟ وربما كان له من ذلك ما يعوضه عن مقام أبيس فى قصر زريته ، وعن طعامه الفاخر من نظيف البرسيم ونقى التبن والفول ، وعن الاحترامات القدسية التى تقيد ولا تفيده • بل لو ان عجلنا هذا كان عجلا فلاحا لما أعوزنا المنطق عن أن نجد له من المزايا على أبيس ما ينقى حقارته الى جانبه ، وما يصدق معه أن كل فرد من المخلوقات أسعد ما يكون ما وجد فى نفسه سعادته ، وهو أشقى ما يكون ما فاضل بين الخير والشر وبين الحق والباطل وبين النعماء والبأساء ••

فيم كان صديقنا الأشيب يتحدث كان صاحبنا نجى أبيس يمسح العجل ويملقه والسرور يلمع فى عينيه • فلما فاض عنه سروره قطع حديث الأشيب وقال لبائع اللبن :

— بكم تبيعنى عجلك هذا ؟

وتمت الصفقة ودفع العربون ، وكفل بواب سميراميس بائع اللبن الذى رأى الاحتفاظ بالعجل أياما حتى يحل محله « بو » يدرب لبن أمه •

قال المشتري وقد التفت نحونا :

— لأجعلن لهذا العجل عندى قدسا كقدس أجداده • ولأمتعنه من نعيم الحياة ومن احترام الناس بما تمتعوا به •

قال الأشيب :

— حذار أن تنسى حقه فى المتاع بقرة فى كل عام ؛ وإياك أن تتخذ من هذه الأبقار ونسلها تجارة فيكون ذلك منك تجديفا قد ينالك أوزوريس بعده بضر •

قال صاحب أبيس :

— أوزوريس اله الخير ! فهل تنال آلهة الخير الناس بضر ؟ ! على انى لن أجدف ولن أجعل من صاحبات أبيس تجارة • بل سأحررها يوم متاعه وسأجعل لحمها وقفا على أحباب أبيس •

سميراميس

تخطينا باب سميراميس الى البهو الكبير فقابلتنا أضواؤه وبسطه ومناضده منشورة في نظام جمع الى البهاء والجلال • وتقدمنا الذي دعانا الى الشاي يتخير لنا مكانا • ووقفت وبجانبى صديقنا الشاب • أما نجى أبيس فتبع الأشيب بضع خطوات كان فى خلالها يقبل فى الحاضرين نظره • ثم انتظمتنا جميعا مائدة ماكدنا نجلس اليها حتى أقبل علينا صديق حيانا وجلس الى مائدة تجاورنا مع جماعة من أصدقائه الأوربيين سيدات وسادة • وجاء الغلام يتلقى أوامرنا • فقيم كان الذى دعانا الى الشاي يحدثه مال الى نجى أبيس وسألنى :

— لم دعوا هذا الفندق سميراميس وكان لهم فى أسماء آلهة مصر القديمة وملوكها ما يغنيهم عن هذا الاسم الأجنبى ؟
فقلت :

— لعلهم يوم أطلقوا عليه هذا الاسم كانوا يحسبون سميراميس اسما مصرياً • فله من الرنين ما لأبيس وايزيس وأوزوريس وسيرابيس وما الى أولاء جميعا من الايس الذى لا نهاية له فى الهيروغليفية • وليس يطلب الى أصحاب الفنادق أن يكونوا نحاريير فى العلم بأسماء الآلهة الأقدمين • وبحسبهم أن يجمعوا المتشابه

فى رتته وأن يضيفوه بعضه الى بعض على أنه مصرى ما داموا فى مصر • وكأنى بك لو وجهت سؤالك الى مدير هذا الفندق لرأيت مجيبا اياك فى لهجة اليقين بأن سميراميس آلهة مصرية أو اله مصرى • وربما أطلعك على بعض ما عنده من آثار تؤيد ذلك وتنطق به • وله عذر عن يقينه • فنحن جميعا نميز اللغات بعضها عن بعض بما لكل من رنين كما نميز الأمم بعضها عن بعض بالألوان والملامح •

فرغ الذى دعانا الى الشاي من اصدار أوامره • وكان أصحابنا قد أنصتوا لهذا الحديث • فلما أتممت عبارتى قال الأشيب :

— لو أن أصحاب النزل تحروا يوما أن تكون أسماء نزلهم مصرية لوجب عليهم أن يبحثوا تاريخ بلادنا ولما كان لهم من وراء بحثهم مغنم • هم انما يطلقون على فنادقهم أسماء اختصت بها الفنادق فى مدن العالم جميعا كى يثير الاسم فى نفس قاصدها صورة معينة تحببه اليه وتطمئنه اليها • وهم فى ذلك يسرون سيرة الناس جميعا فى التسمية • فكما أن للذكران من الناس أسماء وللانات أخرى ، وكما أن للقطط أسماء وللكلاب أخرى ، كذلك للنزل والفنادق أسماء • على أن أسماء النزل لها من المزية أنها عالمية غير قومية ما اختصت بالسائحين الذين يجوبون أقطار الأرض • فبحسب أصحاب هذا الفندق من الشجاعة أنهم خرجوا على الناس فى أسماء الفنادق وأطلقوا عليه اسم سميراميس •

قلت : ولم لا يكون لاسم سيرايميس أثر باق على أرض مصر وقد كانت مصر فى ملكها ؟

وكان صاحبنا الجالس الى أصدقائه الأوربيين سيدات وسادة قد ألقى بسمعه الينا . وكانت قد بدت عليه علائم الدهشة لهذا الحديث ، ولم يخف دهشته عن جلسائه فاستأذنهم كى يسألنا قال :

— أو ليست سيرايميس ملكة مصرية أو آلهة مصرية كايونيس ؟

فتبسم الأشيب ضاحكا من قوله وأجابه :

— لعل أصدقاءنا لا يأبون أن أحدثك بشئ عنها • فهى لم تكن مصرية • لكنها كانت ملكة والاهة معا • وكان لها من الأثر فى الحضارة القديمة ما كان لأكبر الملوك الآلهة المصريين • بل ربما كانت أقوى منهم سلطانا • فقد كانت آلهة الجمال عند الآشوريين • ولعلك لا تنكر يا صديقى ما للجمال على الناس من سلطان • وكانت ثمرة غرام لم يعقده الشرع • فقد عبثت أمها « درسيو » الالهة البحر بالزهرة الالهة الجمال • فنقمت الزهرة منها عبثها وسلطت عليها شابا أغواها وأولدها طفلة بارعة • فركب « درسيو » من الهم ما ركبها ودفعها غضبها الى أن قتلت الشاب وتركت الطفلة فى الصحارى وألقت بنفسها فى اليم بين الأسماك • ثم حنا على الطفلة جماعة من اليمام أطعمنها الى أن عثر بها قوم من الرعاة التقطوها

ودعوها سيرايميس أى اليمامة • فشبت فقيرة جميلة حتى تزوجت من « نينوس » كبير ضباط الجيش • وكانت ذات همه دفعت زوجها الى فتح المدائن والدول • لكن جمال سيرايميس سما بها الى مضجع صاحب عرش آشوريا فخلعت نينوس عن العرش وصارت للملك زوجا •

هنا بدت على أجمل صديقات جارنا الأوربيات آيات الانصات والالتفات • فقد كانت الى هذا الموضع من الحديث تداعب صاحبها بنظرات معسولة تتجه بها اليه حيناً لتلقى بها بعد ذلك على ذراعيها العاريين وقد جعلت رسغيها على المائدة واعتمدت بخدها على ظاهر يمينها المشتبكة بالأصابع مع اليد اليسرى • ثم تعيد النظرة الى صاحبها وكأنما تريد أن ترى فى عينيه كيف كان سحره بهذه الأذرع البديعة • واستمر الأشيب فى حديثه :

— على أن سيرايميس لم تلبث مع الملك الا قليلا حتى استكبر الجمال على الملك فدست على زوجها من قتله وانفردت بالعرش بعده • فلما استتب لها الأمر شيدت على شاطئ الفرات « بابل » أبهى مدائن العالم فى عصرها وأحاطتها بأسوار وحصون ذات قوة ومنعة • وأنشأت فى المدينة أجمل القصور وغرست فيها الحدائق المعلقة • ثم اتجهت همتها من بعد ذلك للغزو والفتح فأعادت الى ملكها بلاد ميديا والعرب وارمينيا والعجم ، وكانت كلها قد خلعت

النير الذى أخضعها له نينوس ، ثم ضمت مصر وليبيا من افريقيا وواصلت الغزو فى آسيا الى نهر السند حيث أفل نجمها ولحققتها الهزيمة • وقد خضعت هذه الشعوب جميعا لحكمها مدى اثنتين وأربعين سنة كانت كلها سنى نعمة وحضارة • وعلى رأس هذه السنين نازعها ابنها الملك فنزلت له عنه مختارة ثم ارتفعت الى السماء حيث تقيم حتى اليوم بين آلهة الجمال •

... ذلك عهدا • أو ليس من حقها وقد سعدت مصر بحكمها أن يكون لاسمها فى مصر أثر •

فرغ الأشيب من حديثه وانقضت فترة شغل صاحب السادة والسيدات الأوريات خلالها عبادة ذراعى صاحبه ، وتناول كل منا قطعة من فطير أو حلوى وشرب فنجانه من الشاي • ثم قال نجى أيس :

— ألا ترون عجا أن تكون فترات حكم النساء الأمم زاهرة أبدا تينع فيها الحضارة وتتجلى فيها أبهى ثمرات الفكر والفن • هذه أيام هاتاسو وكليوباترة وشجرة الدر كانت فى مصر أيام مجد ونعمة • ثم هذا صديقا قد قص علينا من تاريخ سميراميس ما يجب أن يحفظه التاريخ لسلطان النساء فخر الأبد • ولو أن انكثروا فاخرت يوما بعهد من عهودها لكان عهد الملكة فكتوريا أبهى عصر مر بها ، ثم لوجدت فيمن سبقنها من الملكات أمثال اليصابات من كن

للسكسون فخرا وعزا • فكيف ترى يستتب الأمر لها تيك الملكات وكيف يخضع الرجال لحكمهن ؟

قال الذى دعانا الى الشاي :

— ولكن لا تنس أن حكم النساء كان ينتهى أبدا بالاضطراب والانحلال الى أن كان نظام الحكم النيابى الذى جعل الملك الصالح كالملكة الصالحة بعيدا عن التداخل فى شئون الدولة •

قال الأشيب :

— وأى عجب فى هذا كله • ان النساء لا يستوين على عرش أمة الا بعد أن تبلغ من الحضارة والسؤدد أكبر مبلغ ، وبعد أن يهيىء الرجال فيها من أسباب النظام والقوة ما تبعث اليه الملكة التى تخلفهم من عذب روحها وسحر جمالها ما يثير قوى النفس والفكر التى كانت كمينية فى النفوس السامية تحت سلطان القسوة • ولعل أشد ما يدعو الرجال للرضا بحكم النساء أنه حكم الجمال • فقل أن كان بين الملكات من لم تكن ذات دل وسحر • وللجمال على الرجال أكبر الأثر • وهذه سميراميس الفتنة الساحرة كانت يوما فى غرفة زيتنها اذ بلغ سمعها هياج أهل عاصمتها وقصدهم قصرها يحاصرونه ويهاجمونه • فلم تفعل أكثر من أن خرجت الى شرفة القصر نصف عارية وقد انتشر شعرها الفاحم حول جسمها الناعم • فلما رآها الثائرون أكبروها وشدت اليها أعينهم وخفتت أصواتهم وأخذهم البهر من كل مكان ونسوا ما ثاروا له وانصرفوا وهم أشد

أهل الأرض لملكهم حبا وبها تعلقا • • وظلت صورة الآهة الجمال في شرفة القصر مرتسمة في نفوسهم • ثم فاض عنهم هيامهم فأقاموا لسميراميس العارية يسترها شعرها تمثالا في بابل يحجون اليه ويجدون فيه ذكر ساعة من أحب ساعات حياتهم اليهم • وهذا الذي صنعوا ينبىء عن عظمة هذا الشعب ورفعة حضارته • فالرجال للجمال أعلى قدرا وأكثر خضوعا كلما كانوا أسمى نفسا وأدق حسا • أولئك يطلبون في الجمال كمال الانسان مصورا في أحد أفراد • أما الذين تتحرك نفوسهم الى الآتى يدفعها بقاء النوع وحده فأولئك الى البهائم أقرب • ودق الحس وسمو النفس يجعل من أولئك الممتازين أعوانا صادقين للملكة التى تحكمهم • لكن قوحش السواد لا يسمو به لدرك هذه المعانى السامية • لذلك يعمل الدساسون لاثارة شهوات هذا السواد • وكلما انتطح في الانسانية كمال الانسان وحيوانيته كانت الغلبة الأولى للحيوان • ثم يستكن الانسان الكامل مؤمنا بأن له الغلبة آخر الأمر • وهذا هو سر عدم تعاقب النساء على الحكم برغم ما تمتاز به عصورهن من حضارة بالغة أدوانها من العلم والفن غاية ما يرجو الانسان من كمال •

كذلك قال الأشيب • وملا قوله أجمل صديقات جارتنا عجبنا وتيها ، فاعتدل رأسها وانصقلت صفحة جبينها وأضاء وجهها نور زاد جمالها سحرا واشتملت نظراتها البهو ومن فيه كأنما هم لسلطان

جمالها تبع • على أن عيونها أخذت صديقنا الأشيب بعطف مدل شعر به جلسها فأطرق الى الأرض وكأنما بدأت الغيرة يدب الى نفسه دبيبها • ولم تفت الأشيب هذه البوادر حين التفت بنظراته الى الجميلة فمنت عيناه عن جيش من المعانى قام بنفسه • لكن صديقنا الشاب لم يمهله فى متاعه بهذه العواطف العذبة السائغة بل اعترضه بقوله :

— أعجب للرجال كيف يستذلهن النساء • والغريب فى أمرهم أنهم يزعمون أن جمال النساء سبب سلطانهن • ولست أذكر فى أى كتاب قرأت أن الجمال للرجال ولا نصيب للنساء منه • فذكر الحيوان والطيور أجمل من انائها • أليس الحصان أجمل من الفرس والثور أجمل من البقرة والأسد أجمل من اللبؤة والطاووس الذكر أجمل من الآتى • وأين لآتى البلب صوت البلب الرخيم • فكيف تبدلت فى الناس سنة الطبيعة فكان الجمال من حظ المرأة • ولم لا يكون جمال المرأة فى نظر الرجل ضربا من السخف وضعف العقل أملت به على الرجال شهواتهم ثم تعهد النساء بقاء هذا السخف فى الرجال باستفزازهن شهواتهم فى كل آن •

حولت الجميلة الى صديقنا الشاب نظرة اشفاق وازدراء • وكان الأشيب مسحورا لا يزال • وقد أراد الذى دعانا الى الشاى أن يتولى الحديث مع الشاب • لكن الأشيب شعر بما يجب عليه من

حماية الجميلة التي عطف عليه وكل جميلة مثلها ، فيجمع قواه ووجه الى الشاب في هدوء وسكينة هذا الحديث :

— حذار يا صاح لا تندفع • فمن أنباك أن كل ذكر أجمل من كل أنثى ؟ أليس هو نظرك وأنت وثقت به ! وهو نظرك كذلك الذي أنباك بأن الجمال للمرأة لا للرجل فيجب أن تثق به : ولعل الكتاب الذي استخلصت منه حجتك هو بعض كتب شوبنهاور ، ذلك الفيلسوف الألماني المتطير بالمرأة وبالحياة جميعا • وانما أملى عليه رأي في المرأة فرط حبه لصاحبة له وامعانها في الصد عنه وفي تعذيبه • ولو أنها مدت له جمل الأمل ولم تحرمه • نائلا منها لكان بالمرأة أكثر رفقا وللحياة أشد حبا ، ثم لعرف النعيم والسعادة ولجعل للزهرة ولسميراميس في قلبه تمثالا يجعله ويعبده على غير ما كان يعبد تمثال بوذا البطين الأبله • ولو أن رأى الفيلسوف في جمال الذكر أن من الحيوان كان صحيحا لما جنى ذلك على جمال المرأة ولا حط منه • فقد أهمل الرجل ما جملة به الطبيعة الحيوان من تناسق مظاهر القوة فيه وعنى بتجميل خير ما حبه به الطبيعة اياه من هبة الكلام • فهو بالكلام يشعر ويتغنى ويرجو ويزجر • وهو بالكلام بلبل وطاووس وفهد وأسد • والكلام عنده صورة الحقيقة والخيال جميعا • وجمال المرأة حقيقة وخيال معا • هو شعر وهو موسيقى وهو حس ملموس فيه نعمة الحياة بل الحياة كلها مجتمعة • والرجل بالكلام يتغزل هذا الجمال المشتملة أحشاؤه

كمال الانسان • أما الحيوان فلا يعرف ما الكمال وليس له به عهد • ولذلك كان الرجال للجمال أعلى قدرا وأكثر خضوعا كلما كانوا أسمى نفسا وأدق حسا •

فرغ الأشيب من حديثه بعد ما زاد الجميلة عليه عطفًا • ثم تناول الذي دعا الى الشاى الحديث من بعده فقال :

« عد بنا يا صديقى الى حديث سميراميس آلهة الجمال عند الآشوريين • فقد ذكرت أنها هجرت نينوس لتكون زوجا للملك • وأنها دست على الملك من قتله لتنفرد بالملك بعده • وأنها برزت للشعب عارية لتبهره • وأن ابنها الذي لا يعرف أحد أباه نازعها الملك آخر أيامها • وليس في كل هذا ما يشهد بعفة الملكة الآلهة • والمستخفات بالعفة من الآهات الجمال لسن أول من عرفت الانسانية حين أقرت عبادة المرأة • بل سبقهن أبدا من كن ذوات عفة وأمانة ولم تنحدر الزهرة عند الاغريق الى تعشق آلهة ورجال عدة اتخذوا من جمالها وجسمها للمذاتهم وشهواتهم متاعا الا بعد عصر كانت فيه مثال الوفاء • فهل كان للآشوريين قبل سميراميس الآهة قرنت الى الجمال الوفاء •

قال الأشيب :

— لا تصدق ، مضيفنا الكريم ، ان الوفاء على ما يفهمه الناس كان يوما بعض فضائل الآهات الجمال • ولئن كانت الأساطير لم

تشر الى صلات زهرة الاغريق بالآلهة والناس قبل خياتها زوجها هفستوس فهي قد أشارت الى ولع سيد الآلهة جوبيتر بالزهرة ودلها عليه وانتقامه منها بتزويجها من الاله القبيح الذى لم يكن لها من خياته بد • وكيف تريد بآلهة الجمال أن تضن بجمالها وفى سجية كل اله أن يهب الناس من مزاياه ما يعينهم على الحياة • وكأنى بالآشوريين كانوا أكثر حكمة فلم يقتضوا الاهتهم ما تأباه سجيتها بل جعلوها ثمرة الهوى ليكون الهوى أول ما تتجمل به من الفضائل •

ازدادت الجميلة انصاتا للحديث ونمت نظراتها عن الرضا عنه والعطف على قائله • وكأنى دفع ذلك الى نفس صاحبها ملالا وقلقا زادهما ما كان من انصرافها عنه • فلم يجد لارضاء غيرته سيلا الا أن دعا جلساءه لنزهة على ظهر الماء • وكان الجو رفيقا والنيل أمام الفندق يسيل هادئا مطمئا • وكان من عدا الجميلة لا يظهر عليهم أنهم يفهمون حديثنا • فأسرعوا الى تلبية الدعوة ولم تر الجميلة وجهها لرفضها • فتركوا مجلسهم بجوارنا بعد ما صافحنا مودعا وبعد ما زودت الجميلة صديقنا الأشيب بنظرة فيها معنى الأسف الذى لم يلبث أن تطاير قبل باب الفندق • فقد سمعناها تضحك طربة لنكتة قالها أحد السادة الذين كانوا معها • ولعل هذه النكتة كانت انتقاما منا واستخفافا بأمرنا •

وكان صديقنا الشاب لا يظهر اقتناعا بشئ من حديث الأشيب • وكأنى ذاق من تحكم الجمال فيه • مما لم يزل سرا مطويا علينا • ما نقض ايمانه بالمرأة وسلطانها • وكان بالرغم من هذا أطولنا نحديقا بالجميلة الى حين قيامها • ثم اتبعها بنظراته حتى خرجت • فلما غابت عنه زفر زفرة معنلاها : ويل لكن ، هل الى خلاص من حكم جمالكن سبيل ! ومضت فترة ، كنا فيها جميعا صموتا ، استعاد الشاب خلالها حكم نفسه ثم قال :

— ذكرتم ان آباءنا من قدماء المصريين اتخذوا من أبس للخير والبركة رمزا فجعلوا العجل آلهة • فلم لم يتخذ الناس للجمال رمزا من حيوان أو طير يؤلهونه • ولم كانت افروديت والزهرة وسميراميس وسائر الالهات الجمال نسوة • تالله ما كن ليرقين الى موضع القداسة لو نظر الرجال اليهن بعين العقل وأخضعوهن لسلطانه •

قال الأشيب :

— كانت الآلهة جميعا رموزا لمعان هى قوام الحياة • لكن الاقلين منهم كانوا من الطير أو الوحش • أما أكثرهم فكانت لهم أجسام الانسان ورؤوس الحيوان • وكثيرون كانوا أناسى رؤوسا وأجساما • وقد كان سكان الأولمب فى اليونان القديمة رجالا ارتقوا الى مراتب الالهية ثم ارتفعوا آخر حياتهم الى الجبل المقدس وأحاطت

الأساطير من بعد ذلك مولدهم ومنتهاهم بأبهى الخرافات • على أنك ان استطعت أن تجد للقوة فى جسم الأسد رمزا تضع عليه رأس الانسان لتجمع الحكمة الى القوة فانك لن تجد فى غير جسم المرأة ورأسها رمزا لأسمى معانى الجمال عند الانسان •

وهذه الجميلة التى غادرتنا من لحظة والتى نالت من كرم الطبيعة ما لم تحلم سميراميس بأكثر منه لا رمز لها الاهى • أم ترى ان الذى يقرنه الشعراء الى جمال المرأة فى الطبى أو بقر الوحش أو غير هذين من الحيوان يمكن أن يكون لجمال المرأة رمزا • تعالت المرأة وجمالها عما يصفون • وهاتيك الآلهات اللاتى عبدن فى الماضى واللاتى نزلن من سمائهن فى عصرنا هذا الذى أنزل العلم والفن فيه أقدس الأشياء لتكون معنا كن ، ولن يزلن ، الرمز الأسمى والتمثال الخالد الذى يحتفظ به الرجل فى قلبه ويجد فيه ما يجب اليه الحياة وخلد الحياة •

ابتسم أصدقاؤنا جميعا لحماسة الأشيب الذى عرفناه أكثرنا هدوءا وسكينة • لكن نظرات الجميلة كانت قد فعلت به فعلها فسحرته عن نفسه وجعلت منه عابدا متعصبا فى عبادته ، وقال له نجى أيس :

— لكنك يا صديقى لن ترى بين الالهات قدماء المصريين من استخفت بالوفاء وجعلت من جمالها متاعا للآلهة كافة • ولقد حدثكم

بحديث ايزيس فرأيتهم مبلغ وفائها لأخيها وزوجها أوزوريس • قتله أخوه آله الشر تيفون فاستقلت البحر باحثة عن جثته • فلما عثرت بها وعاد تيفون الى تفريق أجزائها عادت تبحث حتى جمعت الأجزاء الأربعة عشر ثم حبست نفسها لتعيد الى آله الخير حياة الخلد • وعملها هذا آية فى الوفاء من امرأة ، وهو خير مثل لما يجب أن تكون عليه الآلهة •

وبدأ الحديث يدور بعد ذلك حول ايزيس • فقال صديقنا الشاب :

— ألا ترون أن نصنع ما صنعه جيراننا فنمتطى الماء زمنا نروح فيه عن أنفسنا ونناجى أثناء الالهة الوفاء والجمال • ونادى الذى دعانا الى الشاي غلام الفندق فنقده حسابه • وقمنا الى نزهتنا فأقلنا قارب وسعنا جميعا • ودار حديثنا حول عبادة ايزيس فى مصر وروما واليونان •

خالد

أو سبيل اليقين

... ولم يكن فى الواحة الا خالد وأهله ، لجأ اليها بعد أن
سلخ من عمره سبعين عاما قضى شطرا منها فى أعمال الحكومة
وشطرا فى المتاجر . أما سنو شبابه فقضاها فى القصف والغزل .
وكان عيشه فى هذه الواحة مثال التقشف والزهد ، وكان المحيطون
به دائمى الاحساس بشئ من الملل ، ولولا كتبه ومكتبته لوقع هو
الآخر فيما وقعوا فيه ، لكنه اعتزلهم الا عند الحاجة وعكف على
مكتب له من الخشب الأبيض قديم يغطيه مشمع أخضر عليه بقع
شتى من الحبر فلا يتركه الا ليسير تحت أشجار النخيل المنتشرة
فى الواحة يقرأ آونة ويحرق بالسما الصافية أخرى .

وكان همه الأكبر من قراءته أن يصل الى عزاء عن الحياة
بعد اذ قضى الحياة ضاحكا من الحياة وما فيها ، هارئا بالسرور
والآلم ، ساخرا من الأمل واليأس ، معظما للرجل محققا للجماعة .
وطامسا ناوآته الهموم كأنما تريده على التكفير عن ذنب فرط منه
لا يعرف ماهو . ثم تراجع نفسه القديمة القوية الشابة ، فيضحك
من نفسه العجوز الخائفة من الموت ، المحبة للحياة ، الطامعة فى
العيش المهمة له وقد كانت تعتبره سخرية وهزوا .

فإذا انقضى النهار ولم يدرك غرضه ولم يتعز عن الحياة تسخط
واستشاط ودخل الى قومه وكله الغيظ . فإذا دنا منه أحد علا
غضبه وتطاير فى كل صوب شرره ، وأسمع الفضاء المحيط به أنات
ألم تقض مضجع من حوله .

وكثيرا ما كان يقول لهم : « غدا أموت ولم أكسب من حياتى
شيئا ، وتدفوننى وكلكم جذل أن سيرجع الى حريره فيترك وحده
الصحراء الى بهجة المدن ، وأبقى أنا هنا وحيدا تحيط بروحى المنفردة
أرواح المساء الصامتة ، فأكون بينها أشد صمتا ووجلا . وتذهبون
أنتم الى القاهرة والى الاسكندرية ترقصون وتطربون ، وإذا جن
الليل تهيمون . ألا ما أضيع حياتى وما أشد كفرانكم » . فتسكن
نائرتة عائشة ابنته ببعض كلمات رفاق ترسل بها كأنها نغمات الكمنجا
تسلى العجوز عن بعض همه ، فيلمس بيده الناشفة على يد ابنته
الشابة اللينة ويستريدها ولا هم له الا أن يسمع رنين صوتها على
موجات الهواء . فإذا تخذرت أعصابه بهذه النغمات نادى : « يا باترا »
فجاءت الخادم وهى أرشق ما تكون قواما وأحلى ما تكون نظرة
فوقفت أمامه وبقي هو يحرق بها ويستدنيها منه . ثم يأخذ بعد
ذلك دوار وذهول يستيقظ منه جزعا مناديا ربه ، مستغفرا عما
سلف ، مستعيذا بالآلهة ، مستمدا عونهم . ثم يقوم الى ظل نخلة
كبيرة حيث يبقى فى شبه الدهول ساعة أو ساعتين .

وكانت عائشة نعم السلون له في منفاه • وان الانسان ليدرك
عظيم تضحيتها لآبيها حين يرى اشراق وجهها الطفل الجميل بنور
نظراتها المملوءة شبابا وعطفا ، وحين ينم قميصها الأبيض الرقيق
عن جسمها الخصب وقوامها المشقوق • ويزداد شعورا بعظيم
التضحية اذا جلس اليها فسحره حلو حديثها عن نفسه ولعب بفؤاده
وعقله • وكم تركت وراءها من ذائب حسرة يوم أعلنت عزمها على
اتباع أبيها وهجر المدن ومن فيها • بل لقد تبعها بعض عبادها حتى
صدهم عنها بأن صارحتهم أنها ذاهبة الى غير عودة ، مما بعث الى
نفوسهم اليقين أنهم لن يصلوا الى يدها • فلما نزلت الواحة وربت
دارهم فيها اتخذت لباسا للواحة الناسكة أقمصتها البيضاء ، فبدت
فيها ملكا أرسلته السماء ليعث الحياة الناضرة الى جدد الصحراء •

أما « باترا » فكانت فتاة رومية الأصل نشأت في بيت خالد وماتت
أمها في خدمته فدخل الى قلبها من حب خالد ومن حب عائشة
ما هون على نفسها الانقطاع عن الناس لهما • وكانت في الحادية
والعشرين من عمرها لدنة القد ، بارزة النهدي ، عالية العنق ، يونانية
الأنف • تتم عيناها الزرقاوان عن رقعة وخزان يسيان • وكان يعينها
وبساعد عائشة خدام قديم يبلغ الخمسين • ولقد تبعهم لأنه كان
موقنا أن لن يجد أسيادا أقل منهم كلفة ، كما أنه كان من العجز
والكسل على أعظم جانب •

وهؤلاء هم سكان الواحة • ولقد كانوا يحسون فيها بمضاضة
العزلة لولا تشبث خالد بالبقاء بها حتى يموت • ولو أنهم كانوا أكثر
عددا لتوزع الهم عليهم فخفف حمله • لكنهم خضعوا أخيرا للقضاء
وخلقوا لأنفسهم عزاء من لا عزاء ، وألهمهم حب الحياة جمال
الصحراء ، أما خالد فظل دائما على التفكير يريد قبل الموت أن يطمئن
الى ما هو مصيب بعده •

ولم يكن يفتاح في أمره هذا أحدا الا ما كانت تبينه عائشة خلال
حديثه من شديد لهفه بالايامن وشوقه اليه • اذ ذلك كانت تتجاهد
للتخفيف من لوعته ولتقوية ضعفه • لكن مركز الشك عسير يحفه
أغلب الأمر الخوف والهلع • والفتاة لاتفهم هذا ولاستطيع أن تخاف
موتا تعجز صورته عن أن تتسرب الى خيالها الشاب • وما دام خيال
الموت بعيدا فالناس لا يرتاعون لما بعد الموت ولا ينصرفون لشيء
انصرفهم لكسب الحاضر وما فيه • وربما أثارت خطوب الحوادث
في نفوسهم بعض الضعف أحيانا ثم سرعان ما ينسون ضعفهم
وسرعان ما تزول آثاره •

وكان من أكبرهم عائشة يومئذ أن تصل لمعرفة دخيلة قلب
أبيها • وكم جاهدت تريد أن تقف على الكتب التي كانت تراه دائما
على قراءتها فيحول دون ذلك احتفاظه بها ووضعها اياها في أحرز
موضع • وكانت تظن أنها ان وقفت عليها عرفت مسرح أفكاره
 وأسباب ألمه فاستطاعت أن تخفف منها وأن تهون على نفسه أمرها •

وأخذها العجب أى سر تحوى هذه الكتب يستطيع أن يفعل هذا الفعل فى نفس العجوز الذى كان دائما صديق السرور نصير الفرح • أى سم انطبع على صفحتها يطير الى قلبه ويهزه هذا الهز الشنيع • لا بد أن يكون فيها من دواعى القلق شئ • جسيم يكدر صفو راحته الى الحد الذى ترى ! ••

ودفعها عجبها للبحث عنها والحرص على معرفة ما فيها • فرأت أن تستعين فى ذلك بباترا التى كانت تلزم خالدا أكثر أوقات يقظته وتجده من عطفه ما يسمح لها بالتدلل عليه وطلب كل ما تريد من غير أن تخشى رفضا • وعجيب أن هذا المعذب النفس ، التائه اللب ، الباحث بكل قواه عما وراء الموت ، بقى متعلقا بأشياء من اللهو الذى كان فيه من قبل ، وبقى لذلك تعلوه القشعريرة حين تلامس يد باترا الناعمة يده الناشفة ويحتل وجهه الطرب حين يملس على شعرها الذهبى الأملس • وكأنما كان فى الوقت ذاته عظيم الخوف من الموت وما بعده ، دائم الحيرة فيما بعد الموت • فهو يريد أن يؤمن حتى يكسب ما بعد الحياة ، ويريد أن لا يفوته شئ مما فى الحياة مخافة أن تكون الحياة آخر متاعه •

ولم تكن باترا ترضى على العجوز بعطفها حين تراه فى حاجة اليه ، كما كانت تزيد فى الدل والتمنع كلما رأت الشباب راجعه وملكه • وبين دل باترا وجمالها الفتان وتحت أثر حديث عائشة العذب الساحر

من ناحية ، وبين ما فى كتبه الداعية الى الزهد المنادية بدناوة الدنيا وباطل زخرفها من الناحية الأخرى ، كان الرجل فى أعظم الحيرة والوجل •

استعانت عائشة بباترا فأجابت هذه طلبتها وذهبت الى خالد فألقته جالسا الى ظل نخلة يحيط بها الرمل ، قد أرسل اليه ريح المساء رطوبة تزيد لذة الجلوس فوقه ، مقفلا كتابه محدقا بالفضاء الهائل أمامه • ويطبق جفونه أحيانا كأنما هو فى حلم بعيد عميق • فوقفت الى جانبه من غير أن تبدى حركة تنبهه بها • وظلت محدقة به وظل محدقا بالفضاء زمنا ، ثم حانت منه التفاتة فرآها فطوقت ثغره ابتسامة خفيفة وقال :

— هانتدى من جديد يا باترا • هانتدى يا ملكة الأرض • أين كنت كل هذا الزمن يا عزيزتى • لم تركتنى هكذا منفردا أتطلب ملكا فى الفضاء ، فيخيل الى أنه مملوء بالأرواح والشياطين ؟ أنت موحذك الملك وأنت اله هذا المكان •

وفيما كان يتكلم جاهد حتى قام بأسرع ماتمكنه قواه الزاهية ووقف يملس بيده على شعرها المرسل يتلاعب به الهواء • أما هى فوقفت فى قميصها الأبيض لا تبدى حركة ولا تشير بطرف كأنها تمثال مصمت بعثت به السماء ليزين قطوب الواحة الحزينة • فلما رآها كذلك غير من حديثه وجعل يلاطفها ويسألها عما أصابها :

— ما لك يا باترا ؟ ماذا يحزنك ؟ ... لم لا تحيين ؟ ...
ما لك يا عزيزتى ؟ ... خبرينى •

لم تجب باترا ولم تتحرك ولم يبد عليها من التغير الا احمرار
وجنتيها ودمعتان جالتا بعينيها ورعشة سريعة نمت عن تأثرها لحال
خالد • فلما أعيته الحيلة صاح :

— حديثنى والا فاهجرينى •

قال هذا وخر الى الأرض صعقا كأنه بنيان تداعى فقطعت هى
صمتها بالبكاء • ثم انهدت الى الأرض ووضعت رأسها على ركبتيها
وجعلت تعول كأنها الطفل • فرجع هو يناجيها ويتودد اليها • وبعد
لأى أجابت :

— انما أتيت اليك طمعا فى أن أنال منك الاذن بمغادرتك • لم
يبق فى قوس صبرى منزع • ان ما أراك عليه من كثرة الفكر
وسوء الحال يجعلنى أشعر فى أعماق قلبى بألم لا أطيق احتماله •
واذا لم يكن فى عملى هذا ما يجب على من الاعتراف بجميلك فقد
أبدت لك عذرى عنه فسامحنى •

كاد الرجل يجن لما سمع • وفى مآقيه الفانية ترقرت دمة
انحدرت على خده ونم كل وجهه عن ألم عميق •

— وكذلك تهجرينى يا باترا بعد اذ ربيتك وأحببتك حب الآب
لابنته ؟ • ما أتعسنى ! هل هذا أجرى عما سلف ؟ ! كنت أمام
عيني ملكة الوجود وملكة حياتى ، وكنت أبدا أحبك وأعزك •
أفكون هذا جزائى منك ؟ • ان كنت قد صممت على الرحيل فأرجوك
الانتظار يوما أو يومين على أقصى نحى أسى وأرفع عنك وزر
الكفر بالنعمة •

قالت الفتاة :

— ما انكارا لجميلك يا سيدى أريد أن أهجرك • لكن نفسى
تتألم لأقل ما يصيبك • وقد رأيتك دائم الحزن ، مكبا عليه ، مسلما
نفسك له ، أضعاف ما أسلمتها من قبل للمسرة • فكأنك تريد أن
تجمع فى أقصر وقت أكبر حزن لتكون خالى الدين من هموم العالم
وملذاته • وحزن كهذا لا طاقة لفتاة مثلى باحتمال مرآه •

قل خالد :

— وهل أتيت هذه الساعة لغير شىء الا أن تخبرينى أنك مفارقتنا ؟
أحسب أن ثمت سببا آخر •

— نعم • وذلك أنى أريد أن تكون سعيدا لأقيم معك سعيدة •
وأى نفس لا تحب السعادة ؟ وأحسب أن فى هذه الكتب التى
عندك وتخفيها عنا سرا مكنونا هو السم الذى اندس الى حياتك

فأفسدها عليك وعلينا • لهذا أريد أن أصل اليها لأطلع سيدتى عائشة عليها •

— ما أبلغ خطأكم • هذه كتب لا تنفعكم ولا تضرنى • هى ككل الكتب نقرأ ما فيها قطعاً للوقت واستعانة على الملal • ولو علمت أنكم تجدون فيها لذة لأعطيكم إياها • لكنها تزيدكم ملالاً وضجراً • وتجعلكم لحياتنا الحاضرة أشد بغضاً •

هنا دخلت عائشة وقد سمعت طرف الحديث وعرفت ان باترا قد وصلت للب ما اتفقنا عليه ، فرأت أن تشاركها وتتعاون وإياها على انتزاع هذا السلاح الخطر من يد أبيها المسكين • وما كادت تدخل حتى ارتمت الى أقدامه قائلة :

— رحمة بنا يا أبت وأسلمنا هذه الكتب ! وما دمت تراها لا تنفعنا ولا تضرنا فذرنا نشترك معك فيها علنا نجد منها نحن أيضاً بعض العزاء عن الوقت وطوله • ورب فتاتين مثل باترا ومثلى تستطيعان بعد ذلك إيصال المسرة الى نفسك • فاسمح ولك منا أجزل الشكر •

— اذا كنتما تلحان الى هذا الحد فانى مطلعكما عليها جميعاً • غير أنى لا أرى ما دخل هذه الكتب فى سعادتى وفى شقاى • ستجدانها جميعاً كتباً قديمة جادت بها خيالات المتكلمين وأبحاث المفكرين فى الحياة المستقبلية •

كان الوقت قد أسمى وهبطت كسف الليل تغطى الصحراء وتشتمل الواحة الصغيرة فى رداء الظلمة • ففضل خالد أن يقوموا الى داخل الدار اتقاء طقس الليل وسوء أثره على صحته •

وساروا يتوسط العجوز الفتاتين وهما فى اللباس الأبيض ملكان يسريان يحملان على أجنحة من الخيال والوهم هذا الخالد الفانى يريدان نقله من سكير الشك الى جنة اليقين والشباب • ووجد هو فى جوارهما ذكرا حلوا وسرى اليه من أجسامهما الشابة تيار أنسائه شعوره البيضاء وتجاعيد جبينه ، وأنسائه الكتب والمتكلمين واللاهوت والناسوت •• وبعد لحظة صامته قضاها ذاهبا فى أحلامه فال فى بطن وسكون :

— ما أحلى هواء هذه الساعة • انه ليبحث للنفس السرور ويشرح الصدر الحزين • انه شفاء لكل دواعى الشجن • اقتربى منى يا باترا وضعى يدك فى يدي • وأنت كذلك يا عائشة • ادنوا منى وحدثانى • ابعا بنغمات أصواتكما العذبة على أوتار هذا الهواء الرقيق ما يرسل الى قلبى العجوز بعض ذكرى الشباب الذاهب • ألا تريان فى هذا السكون الصامت المحيط بنا وفى هذه الرمال الفسيحة الممتدة حولنا ، وفى عزلتنا الهادئة المنقطعة ما يؤسى قلبى اليكليم أدماء الناس بلؤمهم ونفاقهم • ألا ما أحوجنى للوحدة والسكون وللطمأنينة والراحة • تكلموا يا فتاتى •

وساد بعد كلام خالد صمت ظل زمنا ، ثم قالت عائشة :

— أتذكر يا أبت موت أمي • ما كان أرقها وأحناها •

— نعم عائشة أذكره • ولعله بعض السبب في هجرتي المدن والناس • ألا ان نعمة النسيان لأعظم نعمة • لو بقى قلبي فيما كان فيه من هم يوم فارقتني ومدلى مع ذلك في الحياة الى اليوم لما رأيتما لعيني دمة ترقأ ، ولظل قلبي دائم الخفقان حتى يصيبه الوقوف الأخير • لكن سير الوقت يأسو الألم وتقادم العهد يبرد اللوعة • هما مرهم الجرح وطبه • هما دواء وشفاء • يقذفان بنا الى المستقبل ويحجبان عن عيوننا الماضي • وفي هذه اللحظة الذاهبة الباقية التي نسميها الحاضر يترك لنا الذكرى عزاء وتعلقة • نعم أذكر موتها يا عائشة • وموتها هو الذي أخرجني من نعمتي وسعادتي وجعلني أهيم بما بعد الموت • ولو أنها صبرت لموت معا لبقيت فيما كنت فيه من قبل من سعادة وعماية • • ولكنها ماتت وتركتني فريسة للشك واليأس • وهأنذا اليوم أتقلب على أشواكهما وكلى الأمل في أن يأتيني اليقين • ولعلى أجد فيه ما يردها الى بعد موتى لنستعيد من جديد ذاهب سعادتنا •

بلغوا الدار ودخل العجوز الى مخدعه وجلس على سريره • وكأن هواء المساء وجهد الحديث قد أشعراه بالحاجة الى الراحة والسكون ، أو هي ذكرى زوجته في العالم الآخر قد أشعرته الحاجة

الى الوحدة • فأهدى الفتاتين التحية وطلب اليهما أن يتركا ، ونادى — كعادته — بالخادم حمزة ليكون على مقربة منه الليل كله • فلما كان الصباح ذهب حمزة فأيقظ سيده عائشة وقال لها :

— لقد قضى سيدي ليلة مملوءة بالأحلام • وكثيرا ما سمعته في أحلامه يذكر اسم سيدي المرحومة أمك • ولما تبدت نجمة الصبح من خلال النافذة انقطعت أحلامه وبقي ساعة مستغرقا في نوم عميق • ثم هزت جسمه رعشة ففتح معها عينيه ونادى باسمك • وبعد فترة كرر النداء • فرأيت أن أدعوك اليه •

قامت عائشة من مضجعها وبها أثر الكرى وليس عليها سوى قميص النوم فذهبت الى غرفة أبيها فاذا به في مرقده وعيناه مطبقتان • فلما كانت الى جانبه أمسكت بيده ففتح عينيه وحدق بها ثم بالنافذة ثم قال :

— عمى صباحا يا عائشة •

— نعمت يا أبت وسعدت • كيف قضيت ليلتك ؟

— قضيتها على ما أحب • قضيتها مع الخيالات الذاهبة وكأنها تنادينني اليها • وكم مر بي طيف أمك ، وكلما أردت أن أمسك بها انفلتت من يدي ووقفت بعيدا ثم قالت : « تعال الينا فدارنا أحسن من داركم » • ولكأنني أحس في نفسي شوقا للحاق بها في عالم لم يبق عندي بعد هذه الليلة خيال شك في وجوده • • • وأين باترا ؟

— انها لا تزال نائمة مهدودة بعد اذ أضناها بالأمس همك •
 — ألا تفتحين هذه النافذة لعل نسيم الصباح يبعث لنا ما ينعش الروح
 ويجدد القوة الذاهبة •
 — أخشى أن يكون النسيم باردا فلا يكون أثره عليك على
 ما تحب ••
 — ذريني من أثره ومما أحب وما لا أحب • لى بقية ضئيلة فى
 هذه الحياة • أفلا أمتع نفسى منها ولو بنسيم الصباح • افتحى •
 افتحى •

فتحت عائشة النافذة ووقفت لحظة تحديق فى الخارج بالنخيل
 وبالعشب وبرمال الصحراء بعدهما • وتموج النسيم هادئا يدخل
 الغرفة وينعش جسمها ويبعث الى وجناتها وردها • وأرسل قرص
 الشمس وهو لا يزال عند الأفق أشعته على قميصها ألصقه النسيم
 بها فأظهر خطوط جسمها • وأنعش النور والنسيم خالدا فجلس
 وحديق بابنته معجبا بتمثال الشباب أمامه • ولفظ اسمها بصوت
 خافت فتلفتت متمهلة ونظرت اليه بعيونها الواسعة الدعجاء • فلما
 ملأ العجوز منها عينه التى لا تشبع من النظر لكل جميل قال :
 — ألا لا حياة بعد ذهاب الشباب •
 — وكيف تجد النسيم يا والدى ؟

لم يجب العجوز ، فذهبت ابنته اليه وجلست الى جانبه وجعلت
 تجاذبه الحديث • وفيما هما كذلك دخلت بانرا وعليها قميص لونه
 لون السماء وعيونها الزرقاء الطفلة وثرغها الباسم عن لؤلؤ أسنانها

وخدودها المتوردة وجبينها الواضح وكل وجودها ينادى : لنرقص
 جذلا بمطلع النهار والنور •

وجلس الشيخ والفتاتان زمنا كان فيه مطمئن النفس هادئا •
 لكنه كان مع ذلك مثقل الرأس لا يبرح النوم يساوره كأنما قضى
 ليله فى نصب ولغوب • فلما رأت عائشة ذلك منه استأذنته وانسجبت
 وتبعته بانرا وعاد خالد الى مضجعه وما لبث أن أطبق الكرى أجفانه
 من جديد •

وذهبت الفتاتان الى بعض أزهار غرسها حمزة فجمعتا منها باقة
 نسقتها • فلما انقضى ضحى النهار رجعتا الى الدار جذلتين ثم دلفتا
 الى مخدع الشيخ فاذا هو قد استوى على سريريه واتخذ من وسادته
 متكئا وتلقاهما بابتسامة مطمئة • فلما قدما له باقة الزهر قال :

— أعجز عن شكركما على ما صنعتما • لقد أبدعتما طبا لشيخ
 أجهده الزمان • والآن أبسم معكما ومع هذا النرجس الضاحك
 والورد الهيج • ألا ما أحلى الزهر يبعث النسيم شذاه فيعطر ماحوله
 من الأرجاء • وان طيب الزهر ليضاعف فى النفس الحياة ويهز
 بالسرور القلب والفؤاد •

قالت عائشة :

— لعل ما نلت من سنة قد عوض عليك أرق ليلك يا أبى •

قال خالد : ما أرقّت يا ابنتى طول ليلي • وهل يأرق من يصحبه
أحبة أهل شبابه • على أنى كنت بهذه السنة أسعد حظا • والآن
فاليك مفتاح صندوق الكتب • اصنعى بها ما شئت • لم يبق لى بها
من حاجة • مثل الذين يبتغون الايمان طى الكتب كالذين يبتغون
السعادة عند الناس • ايماننا كسعادتنا فى أنفسنا • هما فى هذا
الماضى الذى يزعمون أنه لن يعود وهو عائد لا محالة • ان الذين
يموتون قبلنا ينتظروننا • ولقد جلست طوال هذه السنة الى أمك والى
أم باترا • ما أحلاهما فى ثياب الآخرة • خلع عليهما شباب ذلك
العالم المنير جمالا ليس يعدله جمال • وهل فى الآخرة غير الشباب
وجماله ؟ وهل يفنى الشباب على هذه الأرض الا ليتجدد هناك •
هذا ما رأيته معهما رأى العين • فأما هذه الكتب وما فيها فأوهام من
لا يعرف من الحقيقة شيئا •

قال العجوز هذا القول ثم أضاء وجهه نور لآلاء بهر الفتاتين •
ذلك هو الايمان الذى دخل الى قلبه • ومن يومئذ برى • من
الاضطراب ومن نوباته • وانتشر فى أرجاء نفسه سرور راض
مطمئن • وظل ينتظر اليوم الذى يعود فيه الى شباب الآخرة بعد أن
ودع شباب الدنيا موقنا أن قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر •

وعكف على العبادة وتوجه بكل قلبه لله ذى الجلال • وفيما هو
يوما فى صلاته دخلت عليه عائشة فألفتها خاشعا تجود عيناه بالدمع •

فلما سلم واستغفر التفت اليها فرآها دهشة فقال :

— لا عليك يا ابنتى • انها دموع التوبة والمغفرة • وهى أشهى
لدائد الحياة • هى طهر الضمير ولين النفس القاسية • وهى ترياق
آثامنا جميعا • معها تسيل الذنوب التى كانت عالقة بنا تؤلمنا وتعذبنا •
وتنجاب الظلمات التى كانت تغشى على بصائرنا فتحجب عنا نور الله
وحياته • فافرحى يا فتاة لهذه الدموع ولا تحزننى •

وسكت الرجل هنيهة وهو فى مجلسه على مصلاه • ثم أشرق
جبينه واستنار ما حوله ورأت عائشة كأن ملائكة الرحمة ترفرف
عليه بأجنحة من ضياء • ولم تك الا لحظة حتى مال الى جنبه الأيمن •
فأسرعت ابنته اليه وأعاتته حتى استوى على ظهره • وبصرت به
فاذا هو قد رفع سبابته اليمنى وهمست شفاهه بكلمة التوحيد
وأغمض عينيه •

وبكت عائشة وباترا ثم أعانهم حمزة على غسله وتكفينه ودفنه •
وهو لا يزال الى اليوم فى واحته يزوره الصالحون • فأما الفتاتان
فعادتا بعد ذلك الى القاهرة والى الاسكندرية تضحكان وتطربان
واذا جن الليل تهيمان • وطلقنا الكتب على أمل أن تلهما الايمان
ساعة الموت فيضىء النور وجههما وتموتان قديستين •

انتقام من الجور

انعقدت المحكمة لجلسة الجنايات ونظرت في عدة قضايا صغيرة حكمت في بعضها وأجلت البعض الآخر لاستيفاء التحقيق • ثم جاء دور آخر قضية في الجلسة •

ظهرت اذ ذاك في صندوق المتهمين فتاة في الثامنة عشرة من عمرها تظهر من فوق برقعها عيون نجل قد قوست فوقها حواجب بدية ، وتجلى العين من خلال هذا الحجاب الشفاف أنفا حادا وشفاه رققا • وانسدلت من رأسها على ذراعيها حبرتها اللامعة - جاءت بخطوات ثابتة فدخلت وراء الحديد وجلست فحولت نظرها الى جهة غرفة المداولة حتى تتقى بذلك أنظار الناس التي اتجهت اليها •

سألها القاضي عن اسمها وسنها وعما لو كانت ارتكبت الجريمة المنسوبة اليها من قتل عبد العزيز حسنين • فأجابت عن ذلك ايجابا • وحينئذ أخذت النيابة تسرد الوقائع والأقوال • واستنادا الى ذلك والى اعتراف المتهمه طلبت من المحكمة أن تطبق على الست عائشة أحمد مادة القتل مع سبق الاصرار •

قام المدافع عن عائشة بعد ذلك فجعل يشرح موقفها والظروف التي أحاطت بها وطلب من المحكمة أن تبرأ موكلته وأن تراعى كل هذه الظروف المخففة وأضاف « والرحمة فوق العدل » •

في كل هاته الأثناء كانت الفتاة وراء الحديد ثابتة النظرات لا يظهر عليها جزع ولا تهزها الأقوال ولا يأخذها التأثير • ومن حين الى حين كان يبين عليها أنها غائبة عن كل ما يدور في الجلسة فتحدق بالسقف وتستسلم لشيء يهيجس في نفسها • وأخيرا سألها القاضي السؤال الذي يلقيه على كل متهم ليستكمل رسميات الدعوى: ان كان عندها أقوال تدافع بها عن نفسها •

وقفت عائشة فآلقت فوق أكتافها حبرتها وحسرت عن وجهها برقعها وقالت :

- اننى يا سيدى القاضي أريد أن أدافع عن نفسى لا حبا في الحياة والبقاء ، فاننى ارتكبت جريمتى التي اعترفت وأعترف بها لأجعلها مقدمة لموتى أنا الأخرى بعد اذ سئمت العيش واستولى على القفز من الناس •

*** من سنة مضت عرفت عبد العزيز حسنين لأننا كنا نساكن في بيت واحد وكان يصادفنى كثيرا خارجة من البيت أو داخلة اليه فيفسح لى الطريق ويبسم لى أحيانا • وبعد أن تعود كل واحد منا

رؤية صاحبه كنت أرد له التحيات التى يقدمها لى • ثم جعلنا اذا
سرنا فى طريق نسير جنباً لجنب ونتحدث كما يتحدث صديقان
حقيقة ، فاذا ما افترقنا تهادينا التحية وذهب كل منا الى حيث يريد •
أعجبتنى منه يومئذ صراحته فى القول مع شديد أدبه واحترامه
لمخاطبه • وأدخل الى نفسى الثقة به أنه كان يصرح لى أحيانا بما
يحصل له وما يدور فى نفسه • وصرت أنا الأخرى أسر اليه
ما لا أطلع عليه أهلى الأقربين •

اتفق مرة أن سافر أبواى الى الريف وخرج اخوتى فى صبيحة
الجمعة على أن لا يعودا الا فى المساء وبقي البيت لا يؤسنى فيه الا
الخادمة المشتغلة بتدبير أمرنا • فقلت أخرج أنا الأخرى لعلى أجد
فى الشوارع وفى زجاج الدكاكين ما أصرف فيه قسما من وقتى •
ونزلت فاذا عبد العزيز عند الباب واقفا وعليه أثر الحيرة • فلما
تهادينا تحيات الصباح وسألته عن أمره أخبرنى أنه يريد أن يخرج
ولكن لا يعرف الى أين • وما كاد يعلم أنى فى الموقف عينه حتى
سألنى اذا كنت لا أجد غضاضة فى أن يصحبنى الى حديقة
الجزيرة •

كنا اذ ذاك فى أوائل الربيع والأشجار يملأ عطر أزهارها كل
الأمكن الخلوية • فأجبتة الى ما طلب ونفسى ملأى بالسرور • كما
أن حلاوة حديثه وجمال نفسه جعلانى أصحبه وكلى ابتهاج وبشر •

دخلنا الحديقة وجعلنا نطوف فى طرقاتها • وباحساس لم أفهمه
وأحسبه هو الآخر لم يفهمه جعلنا نقصد الأطراف الخالية من جوانبها
حتى وصلنا فى ركن بعيد الى شجرة كبيرة امتد ظلها على الحشيش
تحتها • ومن خلال سور الحديقة جعلنا نرقب العربات القليلة التى
نمر فى الشارع ونحد بصرنا أحيانا فيقع على زجاج النوافذ القائمة
على الضفة المقابلة من النهر وقد ألهبه شعاع الشمس نورا •

وندير رأسنا فتقابل نظراتنا فأحس كأن فى عينيه معنى لم أكن
أعرفه من قبل أو كأنهما تكانان سحرا نفذ به الى قلبى - وكأنه
أحس هو الآخر بمثل ما أحسست فلم تتبادل كلمة بل قمنا ساعة
رأينا الشمس تتحدر وراء الأشجار فرجعنا الى دارنا وافترقنا عند
بابها اذ ذهب هو لبعض أمره •

من ذلك اليوم تغيرت معرفتنا الأولى ، ومن ذلك اليوم جاهدت
أن لا أراه وجعل هو الآخر يتجنب ما استطاع مقابلتى •

مر بعد ذلك زمن ولم نتقابل فيه الا مرة واحدة على السلم ولم
نتبادل تحية ولا كلمة •

ثم رأيت أمى تحوم فى كلامها معى حول موضوع زواجى
بشخص لا أرى ضرورة لتسميته الآن ، وكل ما أقوله عنه انى لم

أعرفه ولم أره من قبل ولكن تبين لي من الحاح أمي أن لأبي مصلحة في هذا الزواج • فعملت جهدي حتى تعرفت بعض أمره فإذا هو شخص أرى عارا أن يتسبب أبنائي له • وصرت كلما ألححت أمي ازدادت منه اشمئزازا • فلما رأيت أن قد كاد يقرر أبي أمر زواجي به نهائيا بلغ بي اليأس أقصى حدوده •

حينذاك أخذت بنفسى رغبة شديدة متحكمة أن أرى عبد العزيز بعد ثلاثة أشهر من زمن التهاجر بين شخصينا وان لم يغب عن بالى يوما ذكره •

كنت أعلم أنه ساعة الظهر يتناول طعام الغداء فى الدار وحده • فصممت على أن أنزل اليه فى تلك الساعة أندب له حظى على أجد فى كلمة منه عزاء • وزادنى تسكنا بعزمى انى ساعة خرجت من باب مسكننا رأيت خادمه نازلا ليشتري لا شك بعض الشيء مما يخص البيت • لكننى شعرت بقشعريرة لبستى ساعة وقفت على بابهم ولم أستطع حراكا • فلما عاودنى سكونى ترددت فى أن أدخل أو أرجع أدراجى • ففيمما أنا فى ترددى انفتح الباب وظهر أمامى عبد العزيز •

عرتنى رغبة من جديد وتولانى خجل شديد • لكنى لم أستطع أن أمنع نفسى عن أن ألقى بكلى بين يديه بأكية متحبة •

فأقبل الباب وأخذنى الى غرفته وأجلسنى الى جانبه وجعل يلاطفنى حتى هدأ روعى فرفعت رأسى أنظر اليه فإذا عيناه هو الآخر مغرورقتان بالدموع وأردت أن أقوم فإذا هو ممسك بيدي مسكة لا أنسى أثرها ساعة أحسست بها حتى أموت •

قصصت عليه قصتى فجعل يهدىء من نفسى ويقول لى أن ذلك الشخص الذى يريد أبواى متى تزوج صار شخصا عاقلا • لكنى لم أقتنع ورأيت من عينيه أنه يقول غير ما فى قلبه •

تعددت مقابلاتنا بعد ذلك وكل مرة أثبت له ويبث لى من كامن ما فى نفسينا حتى جاءت الساعة التى صار زواجى فيها بهذا الشخص أمرا محتوما • هنالك انهدمت صروح نفسى ورحلت لعبد العزيز أكرر له الشكوى وأبكي بكاء الطفل فضمنى الى صدره وقال : — هل تقبلين يا عائشة أن تكونى زوجا لى ؟

وما كاد ينطق بكلمته حتى ثركت نفسى بين يديه ولا أدري بأى لسان أشكره • وتركت له من تلك الساعة تصريف عنائى •

وكنى أعتقد أن الزواج الرسمى بالمأذنين والشهود كل قيمته أنه يذيع أمر الصلة بين شخصين صلة صنيما اذاعتها فيما بعد • لذلك عدت نفسى من تلك الساعة زوجا لعبد العزيز وأضفت الى حبالى الأولى حبا جديدا وأسلمته حياتى وحررتى وشرقى كما اعتقدته

اننى أخذت منه مقدار ما أعطيته من نفسى • وجاهدت بعد ذلك حتى
أنزلت أبوى عن رأيهما وطلبت اليه أن نعلن صلتنا للناس فقيم
عقد الزواج •

سافر فأخبر أبويه بما يريد • وأراد أن يقنعهما فوقفاً فى وجهه
وأبىا عليه غرضه • فلما رجع الى وبلغنى ذلك قلت له اننى
يا عبد العزيز راضية أن أكون معك فى أى عيش ترضاه • أنا
زوجك وأنت زوجى فاذا لم يقبل أبواك ذلك فانا نعلمه بالرغم من
كل شئ أو نقيه حتى يرضيا • ثم تركته بعد ذلك يفكر فى أمره •

لكن ما هدد به أبوا من اجتنابه والانفصال عنه أخافه وراعه •
ورأيت أنه ابتداءً يتردد فى أن تتم هذا العقد • وكلما تعاقبت الأيام ظهر
عليه أثر التصميم على ذلك وإن بان لى من نحوله وتعبه أنه يجاهد
نفسه • وفى اليوم الذى تيقنت فيه انى حامل جاءتنى منه ورقة
يخبرنى فيها أنه مع شديد الأسف مضطر لقطع كل علاقته به •

هنا ضاع رشدى وفقدت صوابى • تلفت حولى فاذا بالجميعه
يقوانينها تركتنى أنوء تحت أحمال العار والألم فى حين يتمتع
شريكى بحريته وشرفه • وهذا الموجود الحى الذى أجعله فى
أحسنانى سيخرج يوماً على الأرض فلا يعرف الناس له أباً • وحيث
سهرت يرمى منى أماله بعين الاحتقار والامتهان •

لم اجرم فى كل ما عملت ولم آت ذنباً • ومع براءتى سبب لى
عبد العزيز كل هذه المصائب •

حينذاك انقلب كل حب فى نفسى له بغضا وصممت على الانتقام
بعزيمة صممت بها من قبل على أن أعيش معه • وبعد هذا التصميم
بأسبوع قتلته • وانما انتقمته فى شخصه من جمود الآباء •

ها ما عندى قلته وخففت بذلك عن نفسى أثقالاً أحملها • وفى
يديكم يا سيدى القاضى حياتى فاحكموا فيها ••

ثم خلت المحكمة للمداولة وأجلت النطق بالحكم أسبوعاً •

تذكار است الطفولة

في الكتاب

ما أنس لا أنس يوم العلقه المليحة • أذكرها اليوم وقد مضت
عليها سنون فتعروني هزة الخوف • كنا اذ ذاك يوم السوق وكلان
من عادتني أن أحضر لسيدنا نصف بريزة من أبي كل سوق • فلما
أصبحنا ذلك اليوم وأردت مقابلة والدي علمت أنه نائم • فالتحيت
وبكيت وصحت وصرخت حتى استيقظ من شدة ما أحدثت من
الجلبة • فخرج يسأل عن الأمر فلما علمه غضب مني وأمسك بأذني
وضربني كفا وطردني ولم يعطيني حتى ولا قرش السوق • فذهبت
الى الكتاب بعد اذ كفكت أمي دمعى وأعطتني قطعة من السكر
لتسكتني • ولما وصلت نظر سيدنا الى نظرة الأمل • ولكنما خيب
كل ظنونه أنني لم أضع يدي في جيبي • فتعلل وسأل عن سبب
تأخري • ولما أخبرته استشاط غضبا لأنه كان ناويا كما علمت فيما
بعد أن يشتري بردة لحمارة من السوق • وأذرنى ان لم أحفظ
لوحى قبل الافطار أورانى شغلى • وفعلا لم أحفظ لضيق الوقت •
فنادى بعليج من أولاد المكتب فدنا الى وقرص بيديه رجلى فوق كتفه

وأمسك سيدنا بعضا من جريد وقام على أطراف أظافره ونزل
ضربا •

— آه ! • • أنا فى عرضك يا سيدنا • أنا فى طولك يا سيدنا •
وحياة أبوك يا سيدنا • • • لكن ذلك كله لا ينفع • لقد أضعت عليه
أمله ولم يعد قادرا على أن يشتري البردعة • وهذا العليج العنيف
ممسك بكل قوته • والأولاد من حولي كلهم ينظرون الى ولا تدمع
لهم عين رحمة بى • ورأسى مطروح على الأرض أقبه من شدة
الألم فينال التراب وجهى • وبقيت كذلك حتى مر رجل بالبواب
فدخل وشفع فى وقبل سيدنا الشفاعة عن ذنبى •

ذهبت الى الدار باكيا وسألنى أبى عن سبب بكاي فأخبرته • فلما
رجعنا بعد الافطار رأيت عيون سيدنا لا تزال حمراء من الغيظ
ورأيت الأولاد ينظرون الى باسمين ابتسامة الشماتة • ما أقسى قلب
الانسان وما أشده سوادا • وجارى العزيز الذى يخرج معى كل
يوم لصيد السمك يقول لى : « أكلت المليحة ياعم • علشان ماتبقاش
تخطف الزق » • سبب جديد جعلنى أستحق فى نظره هذا العقاب •
ولا بد أن يكون هناك سبب مثله عند كل واحد من الآخرين •

ومضى زمن ونحن جلوس (نحفظ) الماضى • ثم اذا أبى جاء
وعليه مظهر الغضب فخفت أن يكون ذلك لعقاب سيحل بى • لكنه
ما كاد يقف حتى قال لسيدنا كلمات جعلته يرتجف • وزاد أبى فى

القول • فلما رأيت ذلك علمت أنه قد حل بي هوان كبير وعزت على نفسى فبكيت • ثم اذا جارى بكى •

وخرج أبى فسمعت هزة فى المكتب معناها انتصار الجماعة على الفرد • ونظر الكل الى الفقيه نظرة حقد وكراهية وكأنما تذكر كل منهم يوما كان له مثل يومى أو أشد • وأصبحت أنا وقد اعتقدوا انتصارى موضع الاحترام منهم جميعا •

ولما خرجنا ساعة الظهر للغداء التقوا حولى وجعلوا يظهر من عطفهم على وحنقهم على سيدنا ما أنساني لؤمهم ونظراتهم المملوءة ازدراء وتحقيرا •

هذه روح الجماعات • يعبدون من غلب ما دام فوزه باقيا • فإذا ساء طالعه وفاز عليه غيره التقوا حول الفائز الجديد وقدموه • وهكذا يبقون ما دام فائزا •

ورجعنا اليوم التالى ورجع سيدنا • وكان معى رغيفان مخبوزان لا تزال رائحتهما من أذكى ما ينعش الأنف • فنادانى اليه وعاتبنى بلطف ، وبلطف تناول منى رغيفا • ولما تركته التف حولى الأولاد يملقوننى ، وتلهى عنهم الفقيه بتناول الرغيف • ومضى الوقت ولم أحفظ لوحى فجعل هو يقرؤه أمامى على سبيل تذكيرى ، وأخيرا قرر انى حافظ كأحسن ما يريد • وقمت منتصرا •

وأنساني لطفه اليوم ما كان منه بالأمس وتوسلت لأبى يوم السوق الذى جاء بعد ذلك فدفع لى نصف البريزة دفعتها لسيدنا •

تذكارة فى الطفولة

٢

زيارة المفتش

كنت أيامها تلميذا فى السنة الأولى الابتدائية فى مدرسة • • • • • وكان • • • • • مفتشا فى نظارة المعارف • وكان درجى موضوعا على مقربة من الحائط • وفى الحائط منور مرتفع يطل على حارة وراء المدرسة • وكنا فى الحصة الأخيرة وعندنا الشيخ • • • معلم القرآن •

البعيد عن العين بعيد عن الخاطر • لهذا كثيرا ما نفغنى بعد درجى عن كرسي المعلم لأنه أبعدنى بذلك بعض الشيء عن عصاه ، وخصوصا عن عصا الشيخ • • • • • معلم القرآن والخط والمطالعة • فكم كان يدور على الذين عنده وكم كانت تنال رقابهم وأيديهم عصاه الرقيقة الشنيعة • بل كم نالتنى أنا أيضا وكم استشارت منى أنات وآهات صامتة يكظمها فى صدرى الخوف من المزيد •

كنا فى الحصة الأخيرة وعندنا الشيخ معلم القرآن • وبينما نحن نعد اللحظات الباقية على فكأنا من أسر الدرس والمدرسة اذا المفتش دخل يتبعه الناظر وهو يسير وراءه مطأطأ الرأس ، فقمنا جميعا ورفعنا أيدينا الى جباهنا علامة الاحترام والخضوع ، وبقينا

كذلك وقد ثبتت عيوننا الى جهة الخواجه المفتش والى جهة الناظر •

ولما رأينا ما هو عليه من سوء الحال اضطربت مفاصلنا وارتعشت أرجلنا وارتعدت فرائضنا • ونظرت الى المعلم فاذا لونه قد غاض ودمه قد هرب ولا يكاد يمسك نفسه واقفا الا رغما • وأجال المفتش فى الغرفة نظرات مملوءة سطوة وشدة • ثم أمرنا بالجلوس فقعنا وصففنا أيدينا على صدورنا ، ولما كانت يداى ملوثتين بالحبر جاهدت لأسترهما حتى لا يبين شئ منهما •

وبعد برهة سار المفتش بخطى واسعة حتى وصل الى درجى ثم صعد فوقه ووضع يده على أرضية المنور واستردها فاذا عليها تراب • هناك وضع أصابعه الملوثة على مقربة من عين الناظر ورمقه بشئ من الاستهانة والاحتقار • وتأهب للخروج فقمنا من جديد وأخذنا التعظيم اللازم • وتبعه الناظر مطأطئا رأسه صغيرا • ورجع الفراش مبشرا المعلم بأن المفتش خرج مباشرة وركب فى العربة التى جاءت به وسار • فجاء الشيخ عندى وتخيل المفتش الواقف وما جاء به من التراب وخيل له انى أنا المسئول عن ذلك فابتدأ يشتمنى • وأخيرا طلب الى أن أريه يدي • فلما راهما ملوثتين هروا الى درجه واستخرج منه العصا التى كان خبأها حال وجود المفتش ونزل على بها ضربا ينال أكتافى وظهري ورأسى من غير حساب • فلما بلغ بى الألم أشده صحت باكيا منتجبا • وصادف ذلك مرور

الناظر فدخل على الصباح وأخذته الشفقة حين رآنى والتلاميذ من حولى فى هرج حفى يتغامزون •

ولما وقف الشيخ حين دخول الناظر حركة الضرب ، ووقف التلاميذ احتراما ورفعوا أيديهم الى جباهم ، رفعت أنا الآخر يدي الى جيبى وأديت كل الرسوم اللازمة بالرغم من دموى • فجاء الى الناظر وبحركة لطيفة أخرجنى من أمام درجى وملس على أكتافى وكفكف عبرتى وطلب الى أن أكف عن البكاء • ولا أنسى نظرات اللوم والتأنيب التى توجه بها الى الشيخ • وكأنه أحس معى بمرارة الاهانة على النفس سواء كان صاحبها طفلا أو رجلا فعز عليه أن أهان •

وسارت الأيام بعد ذلك والمفتشون يتعاقب مجيئهم للمدرسة ولكن لا يعبأون بالصعود فوق درجى • لهذا لم يبق من سبب جدى يحمل الشيخ معلم القرآن على ضربى • وكأنه حين نظر اليه الناظر معنفا شعر بفضاعة جرمه الاول وربما أراد أن يكفر عنه بالخروج على طبيعته الفظة ومعاملة الأولاد باللطف والحسنى •

فى هذه السنة حيث كثرت زيارات المفتشين أذكر أن النتيجة العامة للمدرسة كانت أقل جمالا منها فى السنين التى قبلها واتخذت النظارة هذا سببا لنقل الناظر الى وظيفة مدرس بمدرسة أخرى مدعية عليه الإهمال ، وان كان هو بعينه الذى شكرته قبل ذلك مرات على حسن النتيجة •

ساعة وحيدة

مع جثة محبوب ذاهب

توفيت حسناء في الثامنة عشرة تحت يد الطبيب حينما كان يقامى معها الأم استخراج الجنين من الرحم • توفيت ولم يعرف المرض اليها سبيلا الا سويغات من زمان • وقد كانت غريبة عن الديار ليس معها في منزلها الا أمها وخدام صغيرة في السن وزوج نصف • وتوفيت مقبل الليل فلم يعرف أحد من أهل المنازل المجاورة شيئا من أمرها ساعة الوفاة • وكل ما استطاعه الزوج أن يجيء بقارئة تقرأ القرآن لتشيع بآيه الظاهرة تلك الروح الشابة في هجرتها الى السماء •

وقد لزمتهما أمها من شهرين تنتظر معها أن يجوها القدر حفيدا أو حفيدة تمد من أملها في الحياة وتحقق لها ما تطمع فيه من خلود • وهى كل تلك المدة تعد الأيام والساعات التى تقرب منها هذا الأمل وترتب في خيالها القبلات التى تلقى بها المولود المحبوب ساعة تنسمه طيب الحياة • وما كانت تحسب الزمان من القدر والقدر من القسوة ليقتضيا على كل أطماعها ويخيبا كل أملها ثم ليقطفها من بين أحضانها زهرتها اليانة وملاك حياتها : ابتتها المحبوبة •

ولكنهما كانا أقسى مما تظن • فقد بقيت حسناء ممتعة بكل صحتها الى يوم حسبت أمها أن أملها قد تحقق • وفى ذلك اليوم فقط • فى تلك الساعة الرهيبة الرغبة • انتفض الزمن فى وجهها كاشرا عن نابه • فتلوت فتاتها أمامها ترسل صيحات الرعب والألم • وبادر الطبيب الفتاة فطمأنها فسكتت واستسلمت له ووقفت أمها الى جانبه تنظر الى فتاتها والى الحفيد المرغوب نظرات خوف ورجاء وتشجع بالفاظ مضطربة تلك الزهرة المشرفة على الذبول • لكن هذا الاحساس الانسانى بما سيكون جعل الابنة كلما أرادت أمها تركها لمساعدة الطبيب تمسك بها منادية نداء الطفل المروع : لا تتركىنى يا أماه !

ونزل الطبيب كاسف الظن يتعثر فى أذياله تاركا الفتاة ووليدها وقد كان يود لهما الحياة فأبى القدر الا ايرادهما موارد الحنف • وأسلمت الفتاة الروح قبل أن تدب روح الحياة فى جسم الوليد • هنالك شقت الأم جيها وصاحت : وإيتاه !! ثم خرت الى الأرض منهدة وقد جمدت الدمعة فى عينها • وجاءت قارئة القرآن وبقيت مع الأم ترتل لها آى الذكر ساعة وتجاهد لعزائها ساعة أخرى • فلما أذن نذير الصباح نزلت القارئة وتركت الأم وحيدة مع جثة ابتتها الهامدة •

فى سكون الليل • فى ذلك الصمت المطلق المهوب • وفى هذه

الوحدة المخوفة المرعبة ، بقيت الأم وحيدة في غرفة الموت وأمامها جثة ابنتها هائدة باردة وقد ملك عليها اليأس السيل . وكلما أخرجها الحزن عن طوقها نادى : يا حسناء ، وكررت النداء . فيموت صوتها مختفيا في هواء الغرفة المملوء بأى الموت وأعلامه . ثم اذا خانها الصوت رفعت الغطاء عن وجه ابنتها وانحنت فوقه تملأ جوانبه قبلا . ويغلبها الهم بعد ذلك فتخر الى جانب الجثة وتضمها اليها كأنما تريد أن ترسل فيها من حياتها ما يعيدها الى الحياة .

أذن مؤذن الفجر مناديا : الله أكبر . ولطالما حنت الأم المضجوعة الى سماع هذا النداء يحيى من قلبها المملوء بالايمان والتقوى ما ينطق لسانها . الله أعظم . الله أعظم . لكنها فى هذه المرة وجعت لسماعه واعتراها أمام صيحات المؤذن ذهول ورعدة الله أكبر هو هذا الاله الكبير العظيم الذى اختطف ابنتى فى أول شبابه ورعبان قوتها وما جنت ذنبا ولا أتت اثما الله أكبر كذلك ينقل بنو آدم من الحياة الى الموت غدرا وغيلة ! كذلك تختطف البنت من حضن أمها فى ساعة كانت تود البنت أن تكون أما هى الأخرى ! أين أنت يا عدالة السماء ؟ أين أنت يا عدالة الرحمن ؟ أين أنت يا حسناء ؟ أين أنت يا ابنتى يا حبيبتى ؟ ! ما قيمة الحياة والموت متربص يخطف الناس خطفا .

. وفى كل هذه الساعات المؤلمة المفجعة لم تنزل من عيون الأم

دمعة تهدى بعض الشيء من حزنها ولوعتها . وكلما خرج بها الحزن عن طوقها أمسكت بيدها يد المائدة وانحنت فقبلت جبينها وصدغها وثغرها .

وأخيرا ، بعد زمن طويل ، سوية مستبشر ودهر مجزون ، بهت زجاج النافذة وابتدأت أشعة النهار تنسل الى الغرفة الصامتة ؛ فخفت نور الصباح وانتشرت فى جو المكان خيوط الضوء ، خيوط اليأس والأمل . وتبينت السماء . فلما وقع عليها نظر الأم ردت الى ابنتها ثم ردت الى السماء وهمست : ما أقسى الموت ! ان هذا حرام ثم ارتمت الى الأرض مهدودة وأسبلت عينها تود لو تختلط روحها بروح ابنتها الذاهبة .

لكنها ما لبثت أن حدقت بنظرها من جديد الى الوجه الشاحب أذبله الموت وقد كان من ساعات يتلأأ بنور الحياة . حدقت به حتى لا تترك لحظة من اللحظات الباقية على الفراق الأخير من غير أن تكون مع ابنتها ولا بئتها . حدقت بعينون ثابتة جامدة كأنما امتلأت موتا هى الأخرى . وفى كل هذه الساعات الطويلة لم تنزل من عينها دمعة واحدة .

وأخيرا فتح الباب ودخلت إحدى قريباتها صارخة نادية ، ثم لم

تكن الا لحظة حتى امتلأ المكان وحتى أفرجت الدموع شيئاً من
كربة الأم المصابة .

والى اليوم لا تزال الأم المملوءة القلب بالايمان والتقوى جامدة
العين ذابلة اللب مشردة الخاطر تشتملها سحابة من حزن أليم
لا تسعده دمة ولا ينجع فيها عزاء ، وكلما أراد أهلها وأصحابها
أن يجيئوا لها بمن يرد دينها الذى خرجت منه حين شقت جيها
تداولها التقوى والذكرى فتتهزم الأولى أمام الأخرى وترفض
الحزينة ما يريدون .

هل لئلا هذه الأم فى الحياة عزاء ؟ ! ...

حديث شبّاب

كانت الساعة العاشرة صباحاً حين فتحت عائشة عينها بعد نومها
الطويل . فرفعت جفنها بالقدر الذى يسمح لها أن ترى النور من
خلال ستار النافذة . ثم أمالت رأسها وفتحت ذراعها متمطية متثابة
حين تميزت خطاً من شعاع الشمس ينعكس فى المرآة وعلى
سريرها . وقامت بعد ذلك متكئة على المخدة تنظر بعيون وسنى لكل
ما أمامها . وظلت كذلك حتى نبهتها الخادمة بدخولها . فلما علمت
أن ستها قد استيقظت بادرت فناولتها رسالة وقالت :

— سيدى أعطانى الجواب ده علشان ستى .

فأخذته عائشة بيد فاترة وأمرتها أن تفتح أبعد ستار عنها . ثم
فضت الرسالة فاذا هى ممضاة من صديقتها نفيسة واذا فيها :

عزيزتى عائشة

من يوم سافرت من مصر ودخلت البيت هنا لم أخرج الا مرة
واحدة رغماً عما كنت أؤمل من أن أجد حرية أوسع تسمح لى
أن أمرح فى الهواء والفضاء . ولهذا قد بدأت أمل الريف وسكنى
الريف مع ما أجد من وداعة الناس الذين أعيش بينهم والفلاحات

اللاتى يترددن على من وقت لآخر • فكل ما رضى به عمى أن أصبح مرة الى جرن قريب منا وأن نبقى فيه معا حتى منتصف الليل • وهى هاته المرة التى تجعلنى أتردد فى التصميم على الرجوع لمصر ثانيا أو أن أبقي هنا أسبوعا آخر على المصادفة تحقق أملى وأخرج مرة أخرى ولو الى هذا الجرن القريب •

ولقد كانت أكبر آمالى فى هذه المرة الأولى التى خرجت فيها أن أجذك الى جانبى لنتمتع معا بما كنت أشاهد • وأما الذى أود أن يكون معى فى المرة الثانية فهو شخص لا أعرفه ولكنى أتمثله أمامى فى كل ساعة من ساعات وحدتى وخلوتى •

اننى أريد أن أشرك معى فى السرور الذى نالنى من وراء هذه الفسحة الصغيرة • غير اننى آسف لعدم استطاعتى أن أصل مهما جاهدت الا الى قليل لا يكاد يذكر مما رأيت • وعلى كل حال فاحسب من واجبى أن أقول لك كل شئ كما اتفقنا ليلة سفرى •

خرجنا بعد العشاء فاذا السماء منشورة فيها النجوم ولا بدر بينها تلبس الجو رداء من الليل والظلمة وتدعنا نجد الصعوبة فى تلمس الطريق ، خصوصا أنا التى لم أعتد هذه الأماكن ولا مشيت قدماى فى هاته السكك من زمان طويل مضى • ولكن عمى لم يجد وقتا

أنسب من هذا لنخرج فيه خيفة أن يرانا أحد أو تقع علينا عين انسان • واتخذ بنا جانبا من الطريق يدل ما فيه من التراب على أنه غير الجانب الذى يمشى الناس منه ويدقونه بأقدامهم • وسرنا وكأن على رؤوسنا الطير لا ننس بكلمة ولا نحدث صوتا حتى خرجنا من بين جدران البلد الواطئة التى تزيد بسوادها سواد الليل ولا تتم عن شئ مما فى جوفها • ولقد هالنى الصمت المطلق الذى بقى محيطا بنا حتى كنا على مقربة من غايتنا • وأحيى الصرصار بصفيره السكون الآخرى •

برغم الظلمة المحيطة بنا تبينت على مقربة شيئا أشد من الليل سوادا وهو قائم كأنه ينتظرنا • فعدتلى لمراه قشعريرة الخوف ولم أتمالك أن قطعت سكوتنا بسؤال عمى عنه • فأجبنى أننا صرنا عند الجرن وأن هذا الأسود عرمة من تبين القمح لم يذر بعد • ثم رجع السكون والسكوت الى ما كانا عليه وجعلنا نسمع فى صمتنا صفير الصرصار ونقيق الضفدع •

ولما وصلنا وجدنا نوارج الدراس مفرقة فى نواح مختلفة قد تركها العمال بعد أن انتهى عملها • فاتخذناها مقاعد وجلس عمى وابن عمى على أحدها وجلست وفتاة ريفية على آخر وتفرق الباقون حيث أرادوا • فلما أحسست بها الى جانبى ووجدتها ساكنة لا تتكلم أردت أن أفاتحها الحديث • ولكن ابن عمى لم يمهلى أن

أتى فوقف الى جانبنا وسألنى ان كنت أريد شيئاً فالحديقة قريبة •
فاذا كنت أفضلها ذهبنا اليها • فأجبتني راضية بمكانى مسرورة
بجارتى • هنالك شعرت بالفتاة تضم نفسها الى كأنها لم تجد
ما تشكرنى به الا هذا • ووجدنى ابن عمى قد سكت فلم يجد
جديداً يقوله وتركنا وانصرف •

رأيت السماء تبهت وحدقت الى جهة القرية فاذا الشرق يلمع
بشيء من النور واذا القمر من فوق أبينتها يحبو مبطناً وكأنه منهوك
متعب • واجتليته فاذا نحوله قد قضى على بعضه • ولكنه مع ذلك
أرسل على هذه الأكمام من التبن الى جانبنا نورا انجلت فيه لمعتها
وملاً الجو من شعاعه بلجة تركته وكله أحلام هادئة • والنسيم
العذب يبعث فى النفوس من لذته ما يتركها نشوى خادرة •

اعتلى القمر وثبت بين النجوم وكلما حددت النظر نحوه رنا الى
بعين ساهية وخيل لى من شدة نحوله أنه سيقع بين أحضانى •
ولا أدري لعلى فتحت ذراعى أريد أن أستقبله • فقد أحسست مرة
واحدة بالفتاة تطوقنى بذراعيها وتجذبنى نحوها ثم ابن عمى يجرى
نحوى ويمسكنى بين يديه كأنما خافا أن أقع من مكانى • • • وهل
أقدر أن أخبرك عن السرور الذى شعرت به لهذه الضجة بعد أن
وصلت الى أعماق فؤادى نظرات القمر ؟ • • • وتركونى أحرق

لمحبوبى فى السماء حتى ظن عمى أن السكة انقطعت من عليها
الرجل • حينذاك دخلنا •

ولكنى من يومها مشتة البال أريد بدل محبوب السماء محبوباً
على الأرض • محبوباً من بين بنى آدم • انساناً أحبه ويحببنى •
من أجل ذلك أخبرتك انى أود أن يكون معى فى المرة الثانية
شخص لم أعرفه بعد ولكننى أتمثله أمامى • • • أود أن يكون ذلك
المحبوب الى جانبى فينظر إلينا القمر نظرة مهنىء أو حاسد لا نظرة
مشفق ولا متألم •

هذا ما قدرت أن أكتبه اليك ولعلى أكون وفيت بالوعد • الى
الملتقى وأهديك ألف قبلة •

نفيسة

قرأت عائشة الرسالة فلما جاءت على آخرها وضعتها جانباً وألقت
ذراعيها الناعمين فوق لحافها ورجعت الى عالم خيالها الذى كانت
فيه بالأمس ساعة نومها والذى مدت نفيسة برسالتها فى أطرافه •
وبقيت حتى دخلت الخادمة من جديد لتخبرها أن والدها قد حضر
ويريد أن يراها • فقامت ولبست ثياب البيت وذهبت اليه فأخذها
الى جانبه بعد أن تبادلنا تحية الصباح • ثم ملس على شعرها الأسود
البديع المرسل على أكتافها وسألها :

— من عند نفيسة الجواب الى أخذته النهارده • مش كده —
أنا عرفت خطها • خطها كويس • وازيها •

فأخبرته عائشة أنها مسرورة وأنها تسلم عليهم ثم استأذنته أن تذهب لترد لها على خطابها • ولما انفردت بنفسها أخذت قرطاسا وكتبت :

عزيزتي نفيسة

بلغتني رسالتك وبلغتني رسالة القمر فهاجت من نفسي كامنا كنت أود أن يبقى في كنه حتى أحبه نفسي وإن لم أقدر بقيت حتى يذهب معي الى قبرى • أما اليوم وقد ظللت أعالج من أثر الفكر ما أضناني وما أحسبه سيقى حتى يزيدنى ضنى ولوعة فما أحوجنى لهذا الشخص الذى لا أعرف والذى أتخيله أنا الأخرى أمامى • وانى أسأل نفسى اليوم ان كان ذلك الشخص هو الذى سيقدمه لى أبى يوما ما أو هو شخص آخر فأشعر كأن صوتا يرن فى صدرى وتسمعه آذانى يقول لى انه لن يكون محبوبى الذى آمل ، بل هو الانسان الذى يسلبنى حريتى وحياتى طوعا أو كرها فيوقعنى هذا الشعور فى ألم ما أكبره • وليس فى وسعى أن أكتب لك اليوم طويلا فاذا سمحت أن تعجلى بالرجوع الى وجدت كل منا فى صاحبته عزاء • وفى انتظار مجيئك القريب أهديك ألف قبلة وألف سلام •

عائشة

وبعد كتابته ذهب الى مكتب أبيها فأخذت منه طابعا ألصقته على الغلاف وأعطته الى خادمتها لتضعه فى صندوق البريد •

الكتاب الثالث

خواتم

فى التاريخ والأدب

الأدب واللغة

القديم والحديث

الأدب القومي

دارت مناقشات ذات شأن في مسألة القديم والحديث في اللغة وكان الجدل حادا بين أنصار كل من المذهبين ، وكان مداره على ألفاظ والعبارات التي يجب اعتبارها صالحة في الكتابة • فأما أنصار القديم فكان مذهبهم أن اللغة العربية وما وصلت اليه حين مجد العرب وسلطتهم قد وسعت كل الصور والمعاني والآراء • وأن ما يذهب اليه المجددون في اللغة إنما يقوم على أساس من جهلهم اياها أو انصرافهم عنها ، وانهم لو كلفوا أنفسهم مؤونة الحرص على عبارات القدماء وألفاظهم لما ضاقت بهم عن كل معنى يريدونه لابساً أبهى ثوب وأجمله • أما أنصار الحديث فكان مذهبهم أن اللغة قد وقفت عند عصر بعيد ، وأن تطور الحياة وتقدمها قد سبقا هذا العصر بما لا تلحقه عبارات القدماء وألفاظهم • فمن الحق أن

يأخذ الكتاب من اللغة بجديد يحتمل ما بلغته الحياة من تطور وتقدم •

ولم تقف المناقشات عند حد تقرير المبادئ السالبة والدفاع عنها ، ولم تقف عند ألفاظ اللغة وعباراتها ، بل تعدت الى أساليب الكتابة وتغلغت عند ذلك في بيء التفصيل • وبلغت أن جعل المتناقشون أساليبهم الخاصة موضع الأخذ والرد • ولعل أحدا لم ينس ما كان بين الأمير الجليل شبيب بك أرسلان والأستاذ المحترم خليل أفندي السكاكيني من حوار وجدل في هذا الباب ، وقد يكون هذا الانتقال من المبادئ الى التفصيل طبيعيا • فان الانسان لا يعنى غاية العناية بالقديم لأنه القديم ولا بالحديث لأنه الحديث ما لم يمس القديم أو الحديث ذاته •

ومعركة القديم والحديث بين كتاب اللغة العربية في هذا معركة قديمة ، والجدل في أى الأساليب أصح للحياة الحاضرة لا يكاد يهدأ حيناً حتى يستعر من جديد • وهذه المعركة وهذا الجدل ليسا مقصورين على كتاب العربية وان كان لهما بينهما طابع خاص مرجعه اختلاف لغة الكتابة عندهم عن لغة الكلام ، ومرجعه أكثر من ذلك اتجاه العناية لطريقة التعبير أكثر من اتجاهها لما يجب أن يشتمله ذلك التعبير من الصور والمعاني •

ونحسب أن قصر البحث عندما يصح استعماله من الألفاظ والعبارات والحكم على صلاح هذه الألفاظ والعبارات للحياة الحاضرة وعدم صلاحها يكاد يكون بحثا لغويا ضعيف الصلة بالأدب ويقوم على شيء غير قليل من التحكم • وهو بعد بحث تافهة نتائجه • فان الأدب لا يقوم على الألفاظ ولا على العبارات التي يستعملها الكتاب بمقدار ما يقوم على الصور والمعاني التي تلهم بها خيالاتهم وتوجد بها قرائنهم • فاذا كانت هذه الصور والمعاني وما ينطوى تحتها من وصف وعاطفة وعلم والهام من الروعة بما يملك على القارئ لبه وينسيه نفسه لم تكن الألفاظ ولا العبارات الا ثانوية عنده فلم يحفل منها بقديم ولا بجديد ، ثم كان حكمه على الكاتب راجعا الى ما بعثه الى نفسه من لذائذ والى مشاعره من اهتزازات والى خياله من صور والى ذهنه من تفكيرات • فاذا هو اطمأن الى حفظه من هذا وحمد الشاعر أو الكاتب على ما جناه منه عاد الى الثوب التي لبسته تلك الصور والمعاني فكان له من جماله وروائه ما يزيد اعجابا بصاحبه ، أو كان له من اضطرابه ما يبعث الى نفسه شيئا من الأسف على أن يفوت هذه المعاني السامية بعض ما يجب لها من بهاء الثوب وجلاله •

نفس الكاتب وما تفيض به من تفكير والهام هي اذن موضع حكمنا • وهي ما دامت قوية تجتمع لها الصفات التي تجعلها ممثلة لعصر خاص أو لبيئة خاصة فقد حق لأثارها أن تخلد • فاذا كان

فيضها والهامها كلسيا مع ذلك أسلوبا مثلا في قوته وصفائه ودقته فهي في خلودها أكثر بريقا واشعاعا • وسواء أخذ هذا الأسلوب بالتقديم أم أخذ بالحديث في اللغة فلن يضره ذلك الا بمقدار ما يدور حوله من نقد أول ظهوره • ثم يكون حظ ذلك النقد من البقاء أو الاهمال بقدر ما يشتمل عليه من معان وصور •

هذه النفوس القوية التي تمثل عصرا خاصا أو بيئة خاصة والتي نخلد آثارها هي التي يصدر عنها الأدب القومي • فهو ميروس وفرجيل وشكسبير وفولتير وجيت خلدوا برغم تطور الحياة وتقدم الحضارة في العالم لأن نفوسهم مثلت أمة خاصة وعصرا خاصا فانطبعت فيها الصفات الخالدة لأممهم والتي لا يأتى عليها تقدم أو تطور ، كما وقفوا أعلاما في التاريخ يهتدى بهديهم أهل عصورهم كما تهتدى به الأجيال من بعدهم • ولو أن هؤلاء الشعراء والكاتب وقف أمرهم عند اختيار اللفظ والتركيب من غير أن تملأ نفوسهم وأذهانهم ومشاعرهم هذا اللفظ والتركيب قوة لانحدروا كما انحدر المئات والآلوف الى عالم النسيان • وكم كان بين هؤلاء الذين نسيهم الناس من يدل بأسلوبه وبحسن اختياره لفظه وعباراته ، وكم منهم من لقي معجبين به يوم كتب • لكن ما كتب هؤلاء كان أجوف كالطبل • عال رنينه خال جوفه • لذلك ما لبث أن تمزق ظاهره وبدا باطنه وأهمله الناس في ازدراء ثم أسدلوا عليه ثوب النسيان •

وهؤلاء الكتاب الذين يمثلون عصرهم ويصدر عنهم الأدب القومى هم سادة الأدب والحاكمون على اللغة • هم الذين يبعثون فى الألفاظ حياتها ويحددون كم هذه الحياة وكيفها • لن يستطيع أحد سواهم أن يجعل لكلمة قوة غير قوتها ولا أن ينبش لفظا من قبور القديم ليعيدوه فتيا جديدا • ولن يستطيع غيرهم أن يختار لفظا ابتذله الناس فيخلع عليه رقة ووقارا • لحكمهم تخضع المعاجم وبسلطانهم يعترف علماء اللغة وان آثروا الجمود والمحافظة ، ولن يقدر سواهم للغة ولا لألفاظها ولا لأساليبها على شيء لا يرضونه ولا تناله حمايتهم •

وهذه اللغة العربية يصدق عليها فى ذلك ما يصدق على كل اللغات ، بل هذه معاجمها الواسعة كلسان العرب اذا أردت أن ترجع فيها الى لفظ رأيتها فى تحديدها معناه تعود بك الى مواضع وروده فى قصائد الشعراء وعبارات الكتاب • وذلك هو الشأن فى معاجم اللغات جميعا • ثم أنت تراها تورد للفظ الواحد أوضاعا قد لا يختلف المعنى فى بعضها عن بعض ، لكنك تحس مع ذلك تمام الاحساس بأنها تتفاوت فى مدلولها • وهذا التفاوت لا أساس له الا أن كاتباً قومياً رأى لها هذا الوضع فى عصره فكان رأيه حكماً على أهل زمانه وساغ استعمال اللفظ على ما أراد •

وهذا التفاوت ليس مرجعه أصل اللغة وانما مرجعه طبيعة اللغة وأنها كائن حى يتطور مع الحياة ويمور مورها ويخضع كما تخضع سائر الخلائق لحكم الانسان القوى الذى يمثل فيه عصره ؛ وهو ليس مقصورا على الألفاظ ولا على العبارات بل هو يتخطى الى الأساليب فى الشعر والكتابة والخطابة والتأليف العلمى ومساوها • وبحسبك أن ترجع البصر الى العصور والدول المختلفة التى ترعرعت فيها الحضارة العربية لترى مصداق ما تقول • فليس أسلوب الجاهليين كأسلوب الأمويين ، وهؤلاء لبست الأساليب فى عصرهم ثوبا خلعتة حين انتقلت الى عهد العباسيين • والفرق أكثر وضوحا بين أساليب العربية فى شبه جزيرة العرب وفى الأندلس • فأنت ترى البون كبيرا بين هؤلاء الذين أخذوا بحضارة أهل الغرب وأسلافهم فى طرائق التعبير وفى أساليب الكتابة • ولم يكن من ذلك بد • لأن لكل حضارة زهرة هى الفن والأدب • فهما يموران مورها ويأخذان ألوانها ومظاهرها • والحضارة أثر من آثار الحياة الانسانية • فيجب أن يخضع الفن والأدب للحياة الانسانية وآثارها • ويجب أن يكون لأعلام الحضارة من رجال الأدب حكمهم على أداته وهى اللغة •

أذكر أن جماعة من ذوى الفضل والعلم فكروا أثناء الحرب ثم ألفوا هيئة « المجمع اللغوى المصرى » وجعلوا غايتهم من تأليفه

التواضع على الألفاظ العربية التي تقابل ألفاظاً أوروبية لم يتفق لأحد أدائها أو اختلف الكتاب عليها • ومع سمو الغاية وكفاية أعضاء المجمع فإن عملهم لم يظهر له أثر حتى اليوم فيما أعلم • ولم يكن هذا المجمع أول هيئة تألفت لهذه الغاية • بل كانت قبلها هيئات أخرى تجمع أعضاء ذوى فضل وعلم • لكن هذه الهيئات لم تكن أحسن من المجمع اللغوى حظاً فى آثارها • وذلك طبعى محتوم • لأن الألفاظ الأوروبية لم توجد فى لغات أهلها عفواً • وإنما جاءت نتيجة حضارة قوية وعمل جد ثم تقرر على لسان الكتاب الذين يمثلون عصرهم • فلم يكن لعلماء اللغة بعد ذلك كله إلا أن يعترفوا بها وأن يسجلوها فى المعاجم •

ولكى تنتقل هذه الألفاظ الى العربية لا يكفى البحث عن أصل اشتقاقها بل لا يكفى تقصى تاريخها ثم وضع أقرب مقابل لها • إنما يجب أن تكون تمت حضارة مستعدة لقبولها وأدب قومى هو مظهر هذه الحضارة وكتاب يمثلون عصرهم يبعثون فيها الحياة ويخلعون عليها القوة •

هذا الأدب القومى هو الذى يجب لذلك أن يكون مدار البحث • فهل هو كائن فى الأمم التى تتكلم العربية فى هذا الظرف الحاضر ؟ وهل هو مشترك بينها جميعاً ؟ أم أن لكل منها أدباً قومياً خاصاً هو مظهر حضارتها ؟

ليس من ينكر على الشرق العربى شعراءه وكتابه وأدباءه • وليس من ينكر أن من بين هؤلاء الشعراء والكتاب فحولاً لهم من الصور والمعانى ما يأخذ باللب وينسى الانسان نفسه ، لكننا مع شئ كثير من الأسف مضطرون للاعتراف بأن هؤلاء الشعراء والكتاب لا يمثلون حضارة معينة • بل هم ملتقى حضارات تختلف جد الاختلاف أحياناً وتبلغ حد التناقض أحياناً أخرى • لذلك لم يبرز من بينهم الأدب القومى الذى يطبع عصره بطابعه لأنه زهرة هذا العصر والصورة الناطقة بكل ما فيه من كمال وقوة • بل وقف كل واحد منهم منفرداً يتحدث الى الناس بما لا يفيض عن نفسه مما عندهم ، ولكن بالصور التى اجتمعت اليه من تلك الحضارات المختلفة المتناقضة أحياناً • فكان بهرهم لسماعه راجعاً تارة الى سحر لفظه وأخرى الى واسع معارفه • لكنهم لم يصلوا يوماً لتقديسه وتخليد آثاره • لأن هذه الآثار ليست صورة ما فى نفوسهم ولست زهرة حضارتهم •

وليس يرجع ذلك الى أن الشرق العربى لا حضارة له ، ولكنه يرجع الى أن حضارته طمست معالمها تحت سلطان الأمم التى تحكمته فيه والتى عملت متعمدة على أن ينسى ماضيه وعلى أن يخضع لحكم حضارة هؤلاء المتغلبين • وإذا نسى الناس الماضى وخضعوا فى الحاضر لسلطان مدنية غريبة عنهم ضعفت قوميتهم ، وانحل

تضامنهم ، وطمس الظلم على الحضارة الخاصة بهم ، ثم لم يكن لهم أدب قومي واضح الذاتية يعبر عن هذه الحضارة الدفينة •

والعجب أن العاملين في نهضات الشرق الحديث لم يفكروا في هذا ولم يحاولوا علاجه • وانك لتدهش حين ترى جامعتنا المصرية تلقى فيها دروس الأدب القديم والحديث للأوربيين والعرب ثم لا يلتقى فيها درس واحد عن الأدب المصرى القديم والحديث ؛ ولا يلتقى فيها درس واحد عن التطور الفكرى فى مصر ؛ وكيف تمثل ما ورد عليه من حضارات الشرق والغرب التى وردت عليه ؛ وهل خلع عليها حلة من القومية المصرية بتاريخها القديم وبطبيعتها المنسقة وبسمائها الصفو وبما يمتاز به أهلها من رقة فى الخلق وظرف وكياسة ؛ أم أن هذه الحضارة بقيت غير مهضومة حتى مرت وحل محلها غيرها ؟

ندهش لذلك حقاً • فإن هذه الدراسة تعتبر فى كل الأمم المتحضرة أساساً من الأسس القومية التى يجب أن تمتلىء بها نفس أبناء الوطن لتزداد بينهم روابط الولاء لوطنهم • وهؤلاء الأمريكيون على حداثة عهدهم بالحياة المدنية وعلى أنهم قوم لم يحظ بتاريخهم شىء من هذه القداسة التى تشتمل تاريخ الأمم القديمة كلها قد جعلوا من التعليم القومى وسيلة قوية منتجة لخلق القومية الأمريكية فصادفوا من النجاح ما جعل الذين نزحوا الى أمريكا ولم يولدوا فيها أكثر تعلقاً بها منهم بأوطانهم التى أنشأهم • ولقد كانوا أول

عهدهم بالفن والأدب عيالا على أوروبا وعلى الأدب الانكليزى بنوع خاص ؛ ثم لم يلبثوا بفضل هذه النشأة القومية أن ظهر من بينهم أمثال لنجفلو وامرسن شعراء وكتاب تمثلوا الحياة القومية الأمريكية وكانوا الشخصين لمجموع هذه الحضارة الجديدة القائمة على أساس من النشاط العملى وحب الحياة •

والأمريكيون يعنون بهذا الجانب القومى وبغرسه فى نفوس ناشئتهم برغم حداثة عهدهم به وتأخرهم عن سواهم من الأمم فيه • وهم بهذه العناية قد خلقوه عندهم خلقاً وجعلوا منه للأمريكى موضع فخر • أما نحن فى مصر فقد أهملناه على ما رأيت فى الجامعة المصرية وأهملناه فى مدارس الحكومة ، وأهملناه فى الأزهر وسائر المعاهد الدينية ، وتعلق جماعة منا بالأدب العربية فى غير مصر ، وتعلق آخرون بالأدب غير العربية • ثم كانت هذه المعارك بين القديم والحديث ، وكان أكابر كتابنا وشعرائنا يفيض الهامهم أكثر الأمر بشىء غير مصرى • فاذا نزع واحد منهم الى الجانب المصرى بدافع الحماسة الوطنية أو لظرف طارئ لم تشعر فيما كتب بما يجب أن يكون • لم تشعر بأن نفسه كلها وأن فؤاده وقلبه وذنه وعقله وكل قواه ومشاعره وعواطفه انتقلت الى لسانه والى قلمه ففاضت بهذا السيلال الروحى الغزير الذى يمثل أمة بحالها فى عصر من العصور •

وسائر أهم الشرق ليست أحسن من مصر في هذا الباب حظا .
وأنت قل أن تجد من بين كتاب جاراتنا وإخواتنا في الشام والعراق
وفي تونس والجزائر ومراكش هذا الكاتب أو الشاعر القومي
الذي يقف من أمته ومن عصره موقف هوميرو في اليونان أو جيته
في ألمانيا أو الفرزدق وأبي نواس والمتنبي وأضرابهم في بلاد
العرب .

ويرجع السبب في ذلك الى ما قدمنا من عمل المدينيات الحاكمة
التي استبدت بهذه الأمم وسعيها لطمس حضارتها . فقد كانت
حضارة آل عثمان تعمل لتريك الممالك العربية التي خضعت لحكمها
ما استطاعت . وكانت انكلترا وفرنسا أشد من آل عثمان بالحضارة
العربية استبدادا أو أكثر امعانا في طمس معالمها . وكذلك بقيت
هذه الأمم المغلوبة كامنة حضارتها لا تجد متفسا ولا تجد من فنان
أو شاعر أو كاتب علما لها تثير آثاره أرجاءها ويجمع في شخصه
ما كدسه الماضي من حضارتها .

على أن هذه الأمم العربية المتصلة بصلة الجوار والتي يبلغ عدد
سكانها أكثر من سبعين مليونا لها سبق في الحضارة وقدم راسخة
في المدنية . وهي تشترك في كثير من مظاهر حضارتها ويتميز كل
منها بطابع خاص به ، مستقل عما سواه ، راجع الى تكوينها الطبيعي
والى جوها والى صور النشاط الموجودة فيها . ولقد تجد بين هذه

الأمم من عامة الناس ممتازين يضعون أنواعا من الأدب الخاص
بهم يمتاز بطابع البلاد التي عاشوا فيها ويفض حياتها . لكن هذا
النوع من الأدب العامي غير مهذب ولا يصلح بحال للبقاء . وأكثر
ما يصلح له أن يكون مادة للمؤرخ أو الكاتب الذي يريد أن يقف
على تاريخ هذه الأمم وتطورها في هذه العصور التي عاشتها محكومة
بالاستبداد مطموسا على السامى من مظاهر حضارتها . فهل تمت
سبيل لعود أدب قومي سام يميز كلا منها ويميزها جميعا ؟ وبعبارة
أخرى هل يمكن أن يكون لها في الحاضر وفي المستقبل القريب
حضارة خاصة بها ، يكون الفن والأدب زهرتها ، ويقوم من بين
كبرائها من يعتبر المثل الناطق بمعاني هذه الحضارة .

نعتقد أن الأمر ممكن اذا صحت العزيمة عليه واذا تضافرت
القوى على خلق هذا النشاط القوي يشتمل كل طبقات الأمة ويدفعها
للسعى وللعمل في سبيل ظهور ذاتيتها بارزة ممتازة . في هذه
الحال تسرع كل أمة الى تمثل الحضارات التي ترد عليها فتصبح
جزءا من حياتها ويشعر الناس بها كأنها لهم وليست غريبة عليهم ،
و كأنها تحت حكمهم وليست متحكمة فيهم . وفي هذه الحال تظهر
ذاتية كل أمة بماضيها البعيد المجيد فيشارك الآباء والأجداد الى
عصور أول التاريخ في تشييد هذه الحضارة . فاذا تم ذلك لم يكن
بد من ظهور الفنان القومي والكاتب القومي ، ولم يكن بد من أن

يكون للشرق العربي عامة ولكل أمة منه خاصة أدب يميزه عن الأدب القديم ، وعن هذا الأدب الحديث المدين بأكبر حظ منه لمدنية الغربية المتحكمة بسلطانها في الشرق وأممه .

ويومئذ يكون الأديب القومي هو المتحكم في اللغة وهو الذي يملئ على المجامع ما يضعه من الألفاظ لتثبتها المعاجم . وهو الذي يقرر الأسلوب الذي يحتضنه كل كاتب من كتاب الدرجة الثانية . ويومئذ يكون البحث في القديم والحديث بحثا قل أن يطرأ أو أن يجد من الحيز ما يجده في هذا الوقت الذي لا يعيش فيه الكتاب بأنفسهم وإنما يعيشون عالة على القديم أو الحديث ، ويومئذ يكون لنا أن نطمئن إلى أن هذا الجمود الذي وقفت عنده اللغة قد زال وأن الحياة قد بعثت فينا فتية قوية .

لسنا مع هذا ننكر فضل فحول الشعراء والكتاب الذين جاهدوا ولا يزالون يجاهدون في سبيل التوفيق بين حضارة لنا كامننة وحضارات أخرى متحكمة مستبدة . فهؤلاء سيكونون في المستقبل حلقة الاتصال التي لا بد منها بين الأدب القومي في عصر من العصور والأدب القومي الذي سبقه . وهؤلاء سيكون حظهم حظ الأبطال الذين ظلوا حاملين العلم في ساعة التقهقر والهزيمة حتى نجت أوطانهم بفضل ثباتهم وقوتهم . وهؤلاء سيعرف لهم الأديب القومي ، الذي نرجو أن يكون قريبا زهرة حضارتنا وحضارة الشرق العربي ، بأكبر الفضل وأعظم المجد .

الأدب واللغة

القديم والحديث



ثارت مسألة القديم والحديث مرة أخرى . وتلك مسألة اذا ثارت لم يكن يسيرا أن تهدأ . فهي عند بعض الكتاب صيحة حرب لا تلبث أن ترتفع حتى يهرع من يسمون أنفسهم أنصار القديم إلى صف القديم ينصرونه ، ومن يسمون أنفسهم أنصار الحديث إلى صف الحديث يعززونهم . واذا انتظم الكتاب صفوفًا للنضال عن كتابتهم فويل للمحابر والأقلام وويل للأوراق والصحف . أما القراء فلهم البشري . ان لهم من ميدان هذه المعركة خير منظر تراشق فيه الحجج مطمئنة تارة محتدمة طورا وتتجاوب الأدلة مستقيمة حينًا ملتوية أحيانا . وما بالك بقوم يدفعون عن وجودهم ويندودون عن كياناتهم . أو ليست الكتابة حياة الكاتب . فدفاعه عنها دفاع عن الحياة . واذا كان المزارعون من أهل الريف ينسب أحدهم أظافره في عنق جاره حتى ليقتضى عليه ان حاول ليصد الماء عن مزرعته فان للكتاب بديلا من أقدامهم عن الأظافر ينودون بها عن حياض حياتهم كما ينود المزارع عن حوض حياته .

ومن العجب في أمر معركة القديم والحديث التي تشب هذه
السنين ما بين آن وآخر في مصر أنها تشب بين أقوام يعلنون جميعا
أنهم على اللغة العربية وقواعدها حراس، في حين أن قوما آخرين
لهم بين كتاب العربية اسم ومقام ولهم فيها تواليف ورسائل وغرضهم
الظاهر في كتاباتهم العدول بالعربية عن أصولها وقواعدها وأساليبها
والفاظها، يقولون بعيدين عن المعركة ينتظرون ما ينجلي عنه غبارها،
أملين أن يكون لهم من ورائها مغنم • وهل رأيت الريحاني أو
جبران خليل جبران أو من شايهم يعيرون اعتراض أنصار القديم
أو أنصار الحديث عناية أو التفاتا • أم هم كأنما يقولون في سخرهم
المطئن وازدراؤهم للمتازعين : أولئك أقوام تعلقوا بالقشور دون
اللباب • فيظلوا في معاركهم حول الألفاظ والتراكيب فلن يكون
لهم من ورائها الا التناحر • يومئذ يكون لجديدا نحن ، هذا
الجديد الممتلئ حياة وقوة ، هذا الجديد النائر على أمة العرب
العتيقة المتهدمة ، هذا الجديد الطامح الى حياة الغرب وعلمه وأدبه ،
بل الطامح للفظه ان أتيج له بلوغه ، يومئذ يكون لجديدا نحن
الفوز على حين يبقى هؤلاء في معاركهم التي تشب لغير غاية ،
وتنتهي الى غير نتيجة • وينجلي غبارها عن غير فكرة جديدة ، أو
أمل في التقدم نحو فكرة جديدة •

هذا من العجب حقا • فأبصار القديم هم الأساتذة : صادق عنبر

ومصطفى صادق الرافعي والشيخ علام ومن نحا في أسلوبهم
نحوهم • وأبصار الحديث هم الدكتور عزمي والدكتور صبرى
واخوانهم • فان تسل ما قديم أولئك وما حديث هؤلاء ترى المقالات
تواجه المقالات والرسائل تنقض الرسائل • لكنك ترى هذه المقالات
والرسائل جميعا مكتوبة بأسلوب عربي مبين • لم يصفع أحدها
قواعد النحو والصرف بما تصفعها به رسائل الريحاني وجبران •
ولم تكره الألفاظ خلخالها حتى لتراك في حيرة قبل أن تصل الى
ما يريد أصحابها منها • فقيم اذن هذه المعارك يحدث فيها الجدل
وترتفع فيها جلبة الألفاظ وضجيجها حتى لتشبه فرقة البازود
وقعقة السنان ؟

ما القديم وما الحديث ؟ مسألة يجب حلها لمعرفة حدود الخلاف
بين الفريقين • فهل القديم في اللغة والأدب ما يرجع عهده الى
عصور الجاهلية الأولى • أم هو ما اجتمع أيام حضارة العرب الى
حين بدأ التدهور في أدبهم بعد أن تدهورت سيادتهم واستعجمت
حضارتهم • ما نظن أحدا ممن يسمون أنفسهم أنصار القديم يريد
قصر اللغة والأدب في عصرنا الحاضر على ما كانا عليه في الجاهلية
الأولى • فهل يقول لنا أحدهم بعد هذا أى لغة وأى أدب عربي
يفضل ؟ ما نخالهم ينكرون أن لغة امرئ القيس وأدبه ليست لغة
أبي نواس وأدبه • وانك لتقرأ المعلقسات وما عاصرها فتري فيها
شيئا غير الذي تراه في شعر العباسيين أو في شعر الأندلسيين •

وانك لتقرأ نشر الهمداني فتراه غير نشر الجاحظ وغير نشر ابن المقفع وغير نشر أبي الفرج صاحب الأغاني • ثم أنت اذا عدلت عن الشعر والأدب الى الفلسفة والتاريخ رأيت في رسائل الفارابي وفي كتب ابن خلكان وابن خلدون صورا من النشر متباينة • فعن أى الصور في النشر والشعر يرضى أنصار القديم ؟ وأى هذه الصور في نظرهم هى المثل الأعلى للغة وللأدب ؟ وهل يرى أحدهم أن يقف فى أدبه وكتابته عند ما اشتملت عليه ؟

كذلك ما نظن أحدا ممن يسمون أنفسهم أنصار الحديث ينكر على هذا الميراث العربى فى اللغة والأدب مجده وعظمته • بل مانظن أحدا منهم ينظر الى ثورة التجديد التى يحمل لواءها جبران خليل جبران وأصحابه بعين مطمئنة • ومهما يعجب أحدهم بما تستجبه مدرسة الثورة هذه من بعض الثمرات ، ومهما يجد فى مثل كتاب الاجنحة المتكسرة من فيض الخيال الشعري ، فكل واحد منهم جد حريص على بقاء الصلة بين الحاضر والماضى وثيقة متينة • ذلك بأنهم يعلمون أن كل حاضر لا يتصل بالماضى وشيك الزوال •

فيم الخلاف اذا ؟ الخلاف فى رأى أنصار القديم أن هؤلاء « المحدثين » قد انصرفوا عن العرب وأدبهم الى الغرب وأدبه • وأنهم لذلك جهلوا من أساليب العرب أفصحها لفظا وأبلغها عبارة واكتفوا بالقليل الذى درسوا فى مكاتبهم وحاولوا اكراه هذا القليل

على احتمال ما امتلأت به رءوسهم من العلوم الحديثة فنزل بهم ما عرفوا من اللغة وأساليب الأدب الى الاضطراب والركاكة • والخلاف فى رأى أنصار الحديث أن هؤلاء « الأقدمين » حبسوا أنفسهم فى غيابات الماضى ووقفوا من الألفاظ ومعانيها والعبارات وتراكيبها موقف العرب ، جاهلين أو ناسين أن اللغة مظهر من مظاهر الحياة ، وأنها لذلك يجب أن تحتل أداء كل ما يريد الأحياء من صور ومعان على الوجه الذى يريدون أدائه به • فوقف بهم ذلك عن مجاراة الحضارة الحاضرة ، وعجزوا عن أداء ماتريده الحياة من صور هذه الحضارة ومعانيها •

ولئن صدق هذا التصوير فالخلاف ليس بين القديم والحديث ، والقديم والحديث لا يمكن أن يكون بينهما خلاف ، وان كان أبدا بينهما اختلاف • بل الخلاف بين أدب اللفظ وأدب الفكر • فالذين يسمون أنفسهم أنصار القديم يريدون البقاء فى دائرة حضارة العرب يستعبدون تصورهم للأشياء وتصويرهم اياها بالألفاظ ، ويعملون على اكراه الحضارة الحالية فى قوالب الحضارة العربية • والذين يسمون أنفسهم أنصار الحديث يحاولون الفرار من بيت الحضارة القديمة ويعملون على أن يخلقوا لما أنشأته الحضارة الحديثة قوالب جديدة من اللفظ قد لا تتفق وما يرضاه فقه اللغة العربية وسرها •

مثل هذا الخلاف يرجع الى قيام طائفتين اختلف تهذيب كل منهما واختلفت ثقافتهما عن الأخرى ، فتعذر عليهما التعاون الواجب لخلق روح قومية للثقافة والأدب • ولن يزال هذا الخلاف ما بقي الاختلاف بين الطائفتين فى التهذيب والثقافة وما بقيت الأمة فى علمها وأدبها كلا على سواها وعالة على غيرها • فيظل « الأقدمون » بين جدران قصور الماضى المجيد بحضارته وأدبه معجبين بمخلفاته ، ناسجين ثمرات أفهامهم وخيالاتهم على منواله ، قانعين بالنظر الى الحاضر وأعماله وآماله من نوافذ هذه القصور ، فرحين بما قد يجدونه فيه من مشابهات لما عندهم ، مؤمنين بأن ما لديهم خير وأبقى ، وبأن ما يرون من سناء ولآلاء ليس الا خلبا من برق وسرابا من آل • فاذا حسن ظنهم بالحاضر قالوا انما هو فروع هذا الجذع الذى جمعنا حوله وأوجب علينا أن نزيده قوة وصلابة • ويظل « المحدثون » فى فضاء الحاضر الحر الدائم الحركة مأخوذِينَ بما أبدع الغرب فيه من ثراء وغنى فى الحكمة والعلم والشعر ، ممثلة نفوسهم بمحبته واجلاله ، متمثلة كل ما فيه من بهاء لا يلى ، وجدة لا يهرمها شتاء حتى يعقبه ربيع أكثر بهاء وجدة • فاذا أداروا رموسهم الى قصور « الأقدمين » التى منها درجوا حاولوا أن يتصل ما بين كنوزها وهذه الحضارة الجديدة ، فان تيسرت الصلة الصحيحة فذاك • وان لم تيسر فلا ضير أن تكون صلة أقل صحة

ما دامت ترضى منهم هوى النفوس وتكفى عندهم لبوسا للمعاني الجديدة والصور المستحدثة •

والحق أن اللغة العربية على ما خلفتها حضارة العرب كثيرا ما تستعصى على صور هذه الحضارة الحديثة • وليس عليها فى ذلك ذنب ، وليس فى طبيعتها دون الوصول اليه عجز • ذلك بأن اللغة أداة ان لم يدم صقلها علاها الصدا ، ثم كان فيها تناقل عن السير المطمئن الى حيث يحتاج اليها الذهن الفياض بمعان وصور جديدة • ولقد يبلغ من صدئها أن يقبرها • وهذه الهيروغليفية واليونانية القديمة واللاتينية والآشورية وما اليها من لغات ، حملت أسمى صور الحضارة الانسانية القديمة ثم أهملت فصارت قبورا لهاته الصور ، ينشئ العلماء اليوم لاستخراج ما تحتويه من كنوز ودقائق تضيف الى سلطان الحاضر وعظمته سلطانا وعظمة • ولا ريب فى أن اللغة العربية تنطوى من الكنوز على ما لو اطلعت عليه جميعا لوقفت أمام جلاله وبهائه مبهورا مقدسا • وذلك سر سحرها الأقدمين وأخذها اياهم عن أنفسهم • لكن اللغة العربية كائن حتى لاتزال ولن تزال • وكل كائن حتى لا يستطيع القيام دون الاشتراك مع سائر الكائنات التى تتصل به اشتراك تعاون وتنافس • وقد هدمت منشآت الحضارة الحديثة ما بين الدول من حدود وما كان يحيط بثمرات الفكر من قيود • فأصبح العالم كله كتلة واحدة ذات حضارة واحدة • وأصبحت عقول السكسون والجرمان

واللاتين والعرب والهندوس والصين تتجارب ثمراتها وتتأفص آثارها وتتجاذب في نضال وتضامن • واندفعت الأمم العربية واللغة العربية ، حتما مقضيا ، تغامر في المضمار وتعد كاهلها لاحتمال حضارة الانسانية كلها بكل ما فيها من علم وفن وأدب • ولا مفر لها من أن يبلغ صفو صقالها ما يجعلها في حملها حضارة العالم تعدل كل لغة من لغاته • فاذا أتاح القدر لأهلها أن كان لهم على الحضارة الغلب يوما كانت بين اللغات جميعا زينة وسحرا وبهرا •

ولعل هذه المعارك القلمية التي تشب بين « الأقدمين » و « المحدثين » احدى الخطى في سبيل هذه الغاية • « فالأقدمون » يريدون أن يمسكوا « بالمحدثين » لكي لا يندفعوا الى ما يندفع اليه الريحاني وجبران خليل جبران • و « المحدثون » يحاولون أن يخرجوا « الأقدمين » من غيابات الماضي الى نور الحاضر وحر كنه •

وذلك نضال غاية الكمية حرص الطائفتين على التضامن والتعاون في الحياة القومية لتؤدي كل ما أوجبه عليها الحياة لخير الانسانية جميعا •

لكن هذه المعارك لا تزيد على أنها خطوة ضيقة • ودرك تلك الغاية السامية تعوزه خطى العمالة وجهود الفحول • هؤلاء العمالة الفحول هم النوابغ يقف الواحد منهم من قومه موقف الهادي تتعلق به الأنظار وتفتح لعبارة الأفئدة والقلوب • يعتصر ذهنه الفرد لب

الحضارة جميعا ، وينفثها من روحه القوى في أحاديث وقصص أو في قصائد منظومة أو في كتب علم وفن ، فيلقاها عنه قومه وقد لبست ألفاظه ثيابا من المعاني يجب أن تقرها معاجم اللغة راضية أو كارهة • ولهذا النابغة يخضع « الأقدمون » و « المحدثون » جميعا • ليكون في عبارته ما فيها على قواعد اللغة من خروج وشذوذ ؛ هي لغة الحضارة وروح العصر ؛ هي الجواب الكافي لحاجة في النفوس تتطلع لسدها ؛ هي الأداء الصحيح لما يجول بخاطر الانسانية من المعاني • والانسانية ميراث متجدد يسفر كل صباح عن حظ منه جديد • فاللغة التي تؤدي حاجة الانسانية وما يجول بخاطرهما لا يمكن الا أن تكون الثمرة الناضجة لهذا الميراث والجماع الكامل لكل ما كدسه الوجود من علم ووهم ومن حس وتصور •

متى يتاح للغة العربية أمثال هؤلاء النوابغ الذين ينشئون الأدب القومي ويفرغون في قوالبه المصقولة حضارة الانسانية بكل ما تنطوي عليه ؟ ذلك سؤال جوابه للزمن • لكن أهل هذه اللغة بحاجة الى مجهودات صالحة يقوم بها المثات والألوف من أبنائها في مثابرة وجد لاجتناء ثمرات مجهودات الأمم الأخرى وبثها في جو البلاد العربية • سيجد هؤلاء المثات والألوف من مجهودهم مشقة وعنتا ، وسيقع بعضهم اعياء ويفر آخرون يأسا • لكن الحضارة شجرة من الأشجار الضخمة العظيمة الجذع التي لا تسرع الى الظهور والنمو ولكنها تسير في سبيله مقاومة كل صعب متغلبة علي كل

عقبة ، وتبدو أول ظهورها ضئيلة لا يطمئن من لا يعرفها الى أنها بالغة ما يبلغه أمثالها من ضخامة وعظمة ، ولذلك يصد عنها ولا يعنى بتعدها . وهذا هو شأن الكثيرين من أهل الشرق اليوم . أولئك يريدون العاجلة فيهيمنون باقتطاف زهر النبات الضعيفة سوقه السريع انقضاء أجله . وهم يكتفون بتقىء ظلال جذوع سقطت أوراقها وجفت أغصانها . أما ذوو العلم فلا يشبههم عن تعدها عجز ولا طمع . فإذا هى أورقت كان من ثمرها قطاف النابغة الهادى .

يوم يقيم النوايغ الأدب القومى ، بعد أن ينشر المجاهدون العلم والثقافة القومية ، تنتقل المعركة من ميدان القديم والحديث الى التنافس حول الكمال والقرب منه والابتعاد عنه ، ويومئذ يتشعب الكمال الى ما يريد النوايغ من صور ، ويومئذ يسلس قياد اللغة ويسرع تيارها الفيض الى حيث يحتاج اليه الذهن . ثم يكون التعاون الصادق بين ثمرات الفكر . وتكون هذه الثمرات لذاتها هى الغاية أن أصبحت اللغة منهلا عذبا كثير الزحام . ويومئذ ترى هؤلاء المقتتلين من « الأقدمين » و « المحدثين » قد انصرفوا عن نضالهم الحاضر الى ما هو خير وأبقى ، ونرى اللغة اتصل ماضيها بحاضرها دائمة الأبهة لتمثل ما تخلقه الحضارة من كل حديث .

لكن انصراف المقتتلين اليوم لن يحسم المعركة . وكيف تحسم في الحياة معركة والحياة تمور في نضالها الدائم الاتجاه نحو

ما ترجوه الانسانية من كمال . انما يكون صلح الطائفتين المتنازعتين اليوم مثارا لقيام طوائف جديدة تقف في وجههما جميعا . ألم تر فى نضال الفن كيف قام الآخذون عن الفلمنك فأنشأوا اليوم شتى المذاهب ووقفوا ينصرونها فى وجه المدرسة اللاتينية العريقة الأصل والحسب ؟ أو لم تر الى من قد يسميهم الأستاذ عزمى المكعنين *Los cubistes* اذن فسيقوم عند بلوغها من صفو الصقال غايته أولئك « المكعبون » ومن اليهم من التأثيرين . وسيكون أثر هؤلاء فى اللغة أثر السموم تدخل الى الجسم القوى فتزيده قوة وتؤتية من المناعة ما يقيه ويحفظه .

لا نطلب اليوم اذن الى « الأقدمين » و « المحدثين » أن يكفوا عن النضال ما دام نضالهم خطوة فى سبيل الكمال . انما الذى نرجوه ونطلبه أن يتضامن المثات والآلوف من أهل اللغة العربية لتمثل لغتهم حضارة الانسانية وليحتمل كاهلها كل ثمرات الذهن الانسانى من علم وفن وأدب . فإذا بلغوا من ذلك أن كان لأمهم حظ ونصيب من الثقافة القومية فقد آذنت الساعة لقيام النوايغ الذين ينفثون فى الشرق العربى روح حياة وقوة ويخلعون على اللغة ثوب البهاء الذى يجدر بها أن تكسوه فى هذه المدينة الحاضرة لتكون به جديرة بآبناء هذا الشرق مهد أسمى الحضارات الانسانية وأكبرها مجدا وعظمة .

العربية

والحضارة الإسلامية

سبعون مليوناً أو يزيدون يتكلمون اللغة العربية في هذا العصر الحاضر • ويقومون في دول متجاورة تمتد حول الشاطئ الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط وتحيط بالبحر الأحمر وتمتد داخل آسيا إلى العراق وتتسلل بعده إلى بعض طوائف في العجم وأفغانستان وتركستان والهند • وهذه الدول المتجاورة يدين الأكثرون من أهلها بالإسلام • وقد خضعت كلها منذ أكثر من ألف سنة لمصائر متشابهة فسرت بينها مع وحدة اللغة والعقيدة والحظ وحدة في الفكرة وفي الحضارة جعلت منها كتلة تتأثر بمؤثرات متشابهة وتنتظر إلى المستقبل ولكل منها فيه ما لسائرهما من رجاء •

هذه الوحدة في اللغة والعقيدة والمصائر يرجع تاريخها في هذه الأمم جميعاً إلى تاريخ دخول الإسلام إليها مع العرب الفاتحين • أما قبل ذلك فكان لكل أمة منها لغتها وعقيدتها ، وكانت أمم إفريقية تكاد تنفصل عن أمم آسيا خلا سوريا وفلسطين وما يتصل بهما ، فكانت في أكثر حقب التاريخ ، وشيجة الاتصال بمصر وإن استقلت بلغتها الآرامية عن الهيروغليفية وغير الهيروغليفية من اللغات التي

استقرت على ضفاف النيل • ولقد لعبت هذه الدول التي اتحدت لغة وعقيدة ومصائر بعد الإسلام دوراً في تاريخ العالم من أكبر الأدوار لا يزال له أثره بارزاً • وقد أقرت هذه الدول في العالم حضارة لا يزال أثرها ولن يزول •

كان لكل أمة من هذه الأمم قبل الإسلام لغتها وعقيدتها ، وكان مصير بعضها يتعلق تارة بدولة كبيرة أخرى كدول الفراعنة أو دولة الروم أو دولة الفرس ، ويتحكم تارة في مصائر هذا الغير من طريق الغزو أو من طريق الدين كما كان الأمر بعد ظهور اليهودية والمسيحية • أما العرب المقيمون في شبه الجزيرة والذين نشروا الإسلام في أقطار الأرض بعد ما نزل وحيه على رجل منهم فقد كانوا قبل الإسلام كما هم اليوم قبائل وعشائر تعيش في بلاد كانت ، كما لا تزال ، قاحلة لا يتجه نظر أحد للاستيلاء عليها إن لم يكن من هذا الاستيلاء ، أية فائدة • ولذلك لم يفتحها اليونان والرومان كما فتحوا سائر الممالك المجاورة لها • وكانت تعتمد في قوامها الاقتصادي على التجارة أكثر من اعتمادها على الثمرات القليلة الضئيلة التي وهبها القدر إياها • وكانت بلادهم ، بموقعها بين آسيا وإفريقية ، يجذبها واضطرار أهلها للسعي في مناكب الأرض وراء الرزق ، طريق التجارة بين الأمم المحيطة بها • وكان البر يومئذ وسيلة صالحة للنقل لأن البحر كان لما يذلل منته ، ولما يخضع لحكم الإنسان عبابه • لكن العرب لم يكونوا لذلك تجاراً بل كانوا حماة

للتجارة التي تمر بأرضهم من غزو القبائل أياها وعدوانهم عليها ،
كما كانوا أصحاب رواحل تنقل المتاجر من مصدرها الى مورها •
وهذه الحياة التي تقضى في الحماية من غزو المعتدى وفي نقل
التجارة من بلد الى بلد تدفع الى النفس أسى معاني البطولة والاقدام
والاعتماد على النفس والاعتداد بالذات • لكنها كذلك حياة قاسية
قليل ما تدره من الربح ، كثير ما تستغرقه من وقت من يعانها •
وهي بعد حياة تجوال قل أن يستقر صاحبها الى ذويه ، وقل أن
تسمح بقيام المدن وتكون الجماعات المتشابكة المصالح القائمة حياتها
العامة على التضامن والتنافس جميعا • وما تزال تلك هي الحال
الاقتصادية في جزيرة العرب الى يومنا الحاضر • فالمدن فيها قليلة ،
والموجود منها قليل عدد سكانه • ولقد حرمت ما كان لها من قبل
من مزية مرور التجارة بها بعد ما أصبح البحر أكثر من البر أمنا ،
لكنها استعاضت عن ذلك بموسم الحج يدر عليها من فضل الله
ما يقيم أهلها طول عامهم •

مثل هذه الحياة الاقتصادية التي تقضى على أهل شبه الجزيرة
بالعزلة والتجوال وتحتم عليهم مواصلة العمل لكسب الرزق
ولا تيسر انشاء المدن الكبيرة ليس في طبيعتها أن تقرر حضارة ثابتة
القواعد باقية الأثر • ذلك بأن الحضارة ثمرة من ثمرات الاجتماع
في الحضر • وهي لا تتفق وحياة البادية في كيانها على نحو ما هو
ظاهر من لفظ الحضارة نفسه • ثم ان الحضارة فيض من عمل

الانسانية عن حاجاتها المادية والمعنوية والأدبية يزيد من هذه
الحاجات ثم يحفز الانسانية في نفس الوقت الى سعى جديد يكون
من أثره فيض جديد • وهذا الفيض المتتابع هو الذي نقل الانسانية
من حياتها الأولى الى ما تنعم به اليوم من ترف ورفاهية ، وهو الذي
سينقلها في حدود النظام والتقدم الى أبعد مدى ترتجيه نحو
الكمال • وقد كان العربي في وفرة من حاجاته الأدبية والمعنوية •
لكن حاجاته المادية وحكمها القاسي الذي اضطره الى البداوة والى
عيش العزلة هي ركن من قواعد الحضارة لا سبيل لقيامها بدونه •

وهذا في ظننا هو أكبر السبب في غموض تاريخ العرب قبل
الاسلام غموضا يكاد يكون تاما • فيينا يرجع تاريخ مصر لأكثر من
سنة آلاف سنة فيصور لنا حضارة عظيمة ثابتة الأركان والقواعد ،
تمتد من ضفاف النيل عبر البحر المتوسط الى اليونان وروما وتجتاز
برزخ السويس الى فلسطين وسوريا وما وراءهما ، وتظهر فيها
الحياة المادية والمعنوية والأدبية واضحة الحدود والثنايا ، ثم هي
ما تزال تزداد بالبحث والتنقيب ظهورا ووضوحا ؛ وبيننا يحدثنا
التاريخ عن اليونان وروما ويدل فيهما على حضارة ترجع الى نحو
ثلاثة آلاف من السنين ؛ وبيننا سائر الأمم التي كانت معروفة في
تلك العصور النائية قد تأثرت بهذه الحضارات وأثرت فيها وكانت
لها حضارات خاصة — بينا يكشف لنا التاريخ عن هذا اذا به لا يروى
عن شبه جزيرة العرب قبل الاسلام بأكثر من مائتي سنة شيئا معينا •

واذا رواياته عن هذين المائتين من السنين لا تدل على أكثر من أن العرب كانوا أهل بأس ونجدة وحياة معنوية فياضة • أما الحضارة ومظاهرها من علوم وفنون ، أما هذا الفيض الذي يربو على حاجات الانسانية ثم يندمج فيها ليخلفه فيض جديد يندمج ليحيى بعده فيض غيره ، ثم ما يكون من ذلك من التقدم في سبيل الكمال ، فلا يحدثنا تاريخ العرب قبل الاسلام عن شيء منه • بل لا يزال شبه الجزيرة في تاريخه من بعد الاسلام الى يومنا خلوا من هذا لأنه لا يزال كما كان خاضعا لسلطان الحياة الاقتصادية التي لاتجود بما يقيم الركن المادى من أركان الحضارة •

على أن الناحيتين ، المعنوية والأدبية ، كانتا قويتين في النفس العربية قبل الاسلام ولا تزالان قويتين فيها الى حد عظيم • وهذه القوة المعنوية أثمر من آثار قسوة الحياة الاقتصادية العربية ، أو هي تعويض عن هذه القسوة تجود به الطبيعة وتقيمها في الكائن الحي فطرة الاحتفاظ بالحياة • فلو أن الحرمان المادى قابله حرمان معنوى لما استطاع هذا البدوى المقيم على شظف العيش أن يجد في نفسه من الهمة ما يتغلب به على شدائد الدهر ونوائب الزمن • بل لو أن نفسه كان فيها هذا الاستسلام الوداع المطمئن الى ما تجود به الطبيعة من عيش ناعم لقضى نجبه جوعا وظمأ • والقليل الذي بقى لنا من أدب العرب قبل الاسلام وفي صدره الأول فيفيض بمعاني هذه الهمة وآثار تلك القوة التي كانت دائمة التحفز لمجادة الطبيعة

ومقابلتها • وماذا تسمى هذا الازدراء للتكسب بالشعر الا أنه سمو عن المسألة واحتقار لكل من تحدثه نفسه بأن يعيش عالة على غيره • وأن يكسب حياته من غير جده ونشاطه ؟ ثم ماذا تسمى هذا الترفع من جانب الرؤساء عن قول الشعر - حتى كان امرؤ القيس عار أبيه - الا أن هؤلاء الرؤساء كانوا يرون واجبه في الدفاع عن عشائريهم والذود عن حياضها والحكم بين أهلها يقضى عليهم بالترفع عن القول الى العمل خصوصا اذا أوجب هذا القول ما يوجب الشعر العربي من غزل لا يتفق ورياستهم الرفيعة • على أن الشعر الذي قاله الرؤساء وغير الرؤساء كان يفيض حماسة ونجدة وينبىء عن رفعة في النفس تبعدها عن الدنيا وتدفعها الى أسمى الغايات •

هذا الفقر في الناحية الاقتصادية والغنى في الناحية المعنوية ، وهذه العزلة الدائمة التجوال ، كل ذلك جعل من العربي رجلا خياليا لا يعرف من دقائق حياة الوجود الا قليلا • ثم مع هذا يرد كل ما في الوجود الى شخصه فيمتليء بذلك زهوا وافتخارا • وأنت فيما ترجع اليه من أشعار العرب قبل الاسلام لا تجد الا حديث الشاعر عن نفسه • فحبه وغزواته وكرمه ومجده ونسبه • وأنت تجد ذلك كله مذكورا بزهو أي زهو ، واعجاب أي اعجاب • فأما ما كان من مظاهر الحضارة في الشعر ؟ أما هذا الوصف لحياة الجماعات ونشاطها وغزوات الدول الاجنبية اياها وفخارها بالنصر وبأهلها للهزيمة مما تجده في الباذة هو ميروس ، وأما هذه الفلسفة الدينية أو الوثنية التي تعبر عن ايمان الجماعة وآمالها في الحياة

وفيما بعد الحياة مما تجده في آثار المصريين اليونان والرومان وأما هذه الفلسفة التي تعبر عن نظام الجماعة التي فرغت من سعيها لحياتها وجلست تفكر في أمسها ويومها وفي الحياة والموت وما بعدهما ، وأما هذه القصص التي يتلها بها أهل المدن في مسارحهم وحين قصصهم ولهوهم ؟ أما هذا وما إليه من آثار الفكر والفن ومن ثمرات الحضارة فلا تكاد تحسه في الشعر العربي قبل الاسلام . وكيف تطلبه الى قوم حياتهم الاقتصادية ما رأيت ولهوهم هو هذا الغزل بالنساء والاشادة بالحب وذكره ؟؟ والحب كما تعلم ليس الا حديث بقاء النوع ، كما أن الكفاح ليس الا حديث الاحتفاظ بالحياة .

تلك كانت حياة العرب قبل الاسلام . أعدتهم الطبيعة لحياة العزلة والجهاد فظلوا قبائل لحمتها النسب وسعيها حماية الجار عربيا كان أو غير عربي . وأنت لن تجد في شعر الجاهلية معنى أسمى من هذه الحماية وبذل النفس في سبيلها واستعداد العشيرة على من يتعدى عليها . كما أنك لن تجد عند الجاهليين من دوافع الطبيعة غير الغزل جاوز عندهم ما تدفع اليه فطرة استبقاء النوع وتحسينه الى أن صار فناء يفكر الاعرابي في محبته على أنها أمل يتخيله وصورة يصل في وصفها الى ما لم يصل اليه سواه . وذلك أن الشاعر العربي القديم كان يقاسي من ضرورات الحياة ما يقاسي ثم لا يجد من صور الترف والنعمة سوى المرأة . فكان لذلك يسبغ عليها كل ما في عقله وقلبه وكل ما في بصره وبصيرته من الصور والمعاني .

أما ما سوى هذه المظاهر من صور الحياة فلم يذكر عنه التاريخ شيئا . وإذا كان بعض المؤرخين قد وجد في بلاد اليمن وفي بعض سواحل العرب شيئا من آثار الحضارة فذلك لأن تلك السواحل كانت في حياتها الاقتصادية أحسن حالا من داخلية البلاد المحاطة بالصحراء ، لكن حظها لم يكن من الوفرة بحيث ينيل ما وراءها من المتاع المادي الذي يقيم الحضارة في شبه الجزيرة أو في قسم منها ذي قوام خاص ، لذلك بقيت حياتها البدوية أساس كيانها وبقي لها من هذه الحياة كل ما سبق وصفه من الآثار .

ولما جاء الاسلام كانت شبه الجزيرة على حالها القديم منقسمة شيئا وقبائل كل منها ذات كيان مستقل بحاله من نسب وتقاليد ولهجة عربية تختلف قليلا أو كثيرا عن لهجة قريش . لكنها كانت جميعا ذات حياة معنوية وأدبية ممتازة في القوة . وكانت هذه الحياة المعنوية غير متفقة مع ما كان سائدا بينها من عقائد أورثها آياها سلفها وجنى عليها ما كان يرد اليها مع أبنائها حماة التجارة من عقائد القبائل والشعوب المجاورة . لذلك وجدت كلمة الاسلام في بساطتها وقوتها وحقيقتها مرعى خصباً في نفوس ترجو أن تطمئن ، فلما اجتمعت كلمة العرب في شبه الجزيرة حول الاسلام وتناصرت قبائلهم المتقاتلة وأصبحوا أمة جمعت كل قوى العربي المعنوية اتجهوا الى القتح ليقموا الدين ولو كره الكافرون .

أوغل العرب المسلمون في الشام والعراق والفرس ومصر فألفوها بلادا ذات حضارة كاملة الأداة والمظهر ، ووجدوا فيها ثمرات الاجتماع من فلسفة وعلم وفن . وتلك شئون ليس لشبه الجزيرة

بها عهد • ولكنهم ألفوا الجانب المعنوى من هذه الحياة الحضرية ضعيفا متهدما نخره الترف وزعزعت أسسه المظالم • وهذا الضعف المعنوى ، هذا الضعف فى ايمان النفس بذاتها ، هو الذى فتح أمام النفوس العربية - التى ازدادت بايمانها الجديد قوة وحماسة - أسوار هذه الأمم • فبدأ العرب أول فتحهم هذه البلاد ينشرون الدين فيها ويقسمون العدل بين أهلها ، ويعفون عما استقر من الحضارة بين ربوعها • وهذا يفسر لنا ما يقال من احراق بعض دور الكتب وعدم العناية بأى مظهر من مظاهر الفن • لكن فترة الغزو الأولى لم تلبث أن تمر ولم يلبث العرب أن اطمأنوا الى معانى النعمة التى أفاضتها عليهم خيرات البلاد المفتوحة حتى بدأوا يترددون فى وجوب التعفف عنها • ولعل أول مظاهر هذا التردد صراحة انتقال حكومة الدولة من مكة والمدينة الى دمشق • فليس شك فى أن من الأسباب التى أدت الى هذا الانتقال ما رأى العرب من فقر شبه الجزيرة واقفارها ومن استحالة قيام الحضارة فيها • وبانتقال الحكومة الى دمشق وأخذ الخليفة من مظاهر الترف بنصيب بدأ هؤلاء الذين قضوا حياتهم الى ذلك الحين فى شطف من العيش ينالون من آثار النعمة ما يرفه عنهم مضض الجهاد وما يزيدهم للغزو حبا وفيه امعانا •

واذ كانت الناحيتان الأدبية والمعنوية ناميتين عنده كما أسلفنا ، وكان ذا حظ من الذكاء عظيم فقد استطاع أن يتمثل حضارة البلاد التى مر بها • بل استطاع أكثر من ذلك أن يهضم الحضارات

المختلفة وأن يسيغها وأن يجعل منها حضارة واحدة هى الحضارة الإسلامية • فهو قد وجد على شواطئ دجلة والفرات ، ووجد فى بلاد فارس صورا من الحضارة ماثلة فى مظاهر الفكر والفن على غير الصورة التى مثلت بها الحضارة الرومانية على ضفاف النيل ، وعلى غير ما وجد على شواطئ البردا بدمشق • مع ذلك جمع هذه المظاهر كلها ومزجها فى فكره مزجا وأبرز منها للحضارة الإسلامية صورة جعلت ترقى رويدا رويدا وتزداد باتساع الفتح رقا وتمثل صورا ومعانى للحضارة جديدة حتى كانت حضارة بغداد وحضارة قرطبة غاية ما وصل اليه التقدم الانسانى فى تلك العصور • ولما تدهورت دولة العرب وقام الترك على حكم المسلمين وقفت هذه الحضارة الإسلامية التى ساغها العقل العربى فلم تتقدم وظلت واقفة الى زمن قريب من عصرنا الحاضر ، ثم هبت عليها نسيمات من الحياة تبعث فى النفوس اليوم أكبر الأمل أن يعود لهذه الحضارة مجدها وسلطانها •

خرج العرب المسلمون اذن من شبه الجزيرة ولا حضارة لهم ، ثم كانوا أداة اتصال بين الحضارات المختلفة القائمة فى الفرس وفى مصر وفى الأندلس فتمثلوها ، ثم خلقوا من مظاهرها جميعا وافية كبرى • ولقد قام أهل البلاد التى فتحها الاسلام بهذه الجهودات فألفوا بها بين حضارتهم السابقة وحضارات الأمم التى اشتركت معها الحضارة ما اقتضاه قيام كل حضارة سبقتها من مجهودات عقلية حضارة متحدة هى الحضارة الإسلامية • وقد اقتضى قيام هذه

بعد فتح العرب اياها في نعمة الاسلام . أما العرب الفاتحون أنفسهم
فقليل منهم من اشترك في هذه المجهودات الفكرية والفنية وان كانت
جميعا قد تمت بأمرهم وتحت اشرافهم . ولعل أكبر ما يقنعك بهذا
أن الأدب العربي ، الذي كان باقيا للعرب أنفسهم لم يشاركهم فيه
من أهل الأمم المحكومة الا قليل ، قد بقي بطابعه العربي القديم مع
قليل من التحول زمنا طويلا . ثم هو على كل حال لم يتأثر في غير
الاندلس بمظاهر الحضارة الجديدة من وصف للمدائن والقصور
وما تحتويه . وهو لم يتأثر ولا في الاندلس تأثرا ظاهرا بالأبحاث
التاريخية والفلسفية والعلمية التي كان يعالجها أهل تلك الأمم ،
والتي بلغت في رفعة الحضارة الاسلامية مقاما محمودا وكانت ذات
أثر مباشر في تطور المدنية الغربية وفي بلوغها مكائنها الحاضرة .
وانه لعجب حقا أن يدل الأدب العربي على أن العرب الذين
تمثلوا حضارات الأمم التي حكموها ظلوا محتفظين بسختهم العربية
حتى لكأنما أنفوا أن يستعبروا من أدب غيرهم ما لم يكن في أديهم
قبل الاسلام من قوالب وصور . أم أنها لم تكن أنفة بل كان الطبع
العربي السريع التقل والتجوال هو الذي احتبسهم في تلك القوالب
القديمة ؟ أرأيت شاعرا عربيا قحا عدا في أوزانه أوزان العرب
الجاهليين ؟ وهل رأيت كتاب العرب اختلفوا في نقل الروايات
عن سبقهم ؟ ثم هل جدد عربى في الأدب نوعا من الأنواع لم
يكن معروفا من قبل ؟ وهل وضع أحد القصة الطويلة أو الرواية
التمثيلية أو ما الى ذلك مما عرفه أدب اليونان والرومان وما كان

معروفا في مصر وفي غير مصر من البلاد التي خضعت للفتح العربي ؟
أم أن الذين جددوا في اللغة العربية لم يكونوا عربا اعرابا وأن
الذين كتبوا كليلة ودمنة وألف ليلة وقصة عنتر وما الى هذا
من الأنواع الجديدة انما كانوا من أهل البلاد التي دخلها العرب
واتصل ما بينهم وبين أهلها برابطة الاسلام فكان تعاون على اعلاء
شأن الدين والحضارة التي لازمته .

أستغفر الله فقد ابتدعت في الاندلس صيغ وأوزان في الشعر
جديدة أخذها مشاركة المسلمين عنهم . كما أن الشعر العربي والنثر
العربي تأثرا بكل حياة جديدة مرا بها في تصويرها المعاني . لكن
أكبر عوامل هذا التجديد ليسوا العرب الأعراب وانما هم الذين
دخلوا في الاسلام واتخذوا اللغة العربية لغة لهم . وقد يكون من
الأعراب من تابعهم . لكن العرب الذين نزحوا من شبه الجزيرة
ظلوا أغلب أمرهم محتفظين بكيانهم القديم كما ظلوا أدوات اتصال
بين الأمم التي شاركهم دين الهدى والحق .

على أن أكبر ما يسر للعرب الاشراف على قيام حضارة مشتركة
بين هذه الأمم المتجاورة ما تربط الطبيعة به هذه الأمم من أواصر
فهي جميعا ترجع الى أجناس متقاربة كما أن وسائل الاتصال بينها
عريقة في التاريخ تقرب بينها اليوم كما كانت تقرب بينها من قبل .
ميسورة بسبب وقوعها جميعا على شواطئ البحر الأبيض المتوسط
أو على مقربة منه . ولقد كانت الحضارة التي قامت على شواطئ
هذا البحر متقاربة أبدا . وكان التفاهم لذلك بين أممه ميسورا .

وكان فضل العرب الأكبر أنهم جاءوا الى هذه البلاد في عصر انحلت فيه عناصر قوتها المعنوية وتخاذلت النفوس ، فوفعوا اليها من قوتهم ومن ايمانهم الجديد نشاطا وقوة وتماسكا حفزتها للعود بحضاراتها الى الانتاج والتقدم كما قربت بين هذه الحضارات وأدمجتها في الحضارة الاسلامية . واتصال العرب بهذه الأمم جميعا اتصال جوار وجنس وتجارة مكن لهذه الحضارة الجديدة أن تؤتي كل ثمراتها وأن تبدع في مظاهر الفكر والفن والعلم مبتكرات ما يزال أثرها الى اليوم باقيا .

هذه الأواصر التاريخية القديمة التي تربط أمم الشرق العربي بروابطها المتينة الى يومنا الحاضر هي التي جعلت اللغة العربية والحضارة الاسلامية تبقى في أكثر البلاد التي أقام فيها العرب واتصلوا فيها بروابط النسب والقربى . أما الدول التي لم تكن متينة الارتباط التاريخي بالحضارة الجديدة كالأندلس وفارس فقد عادت الى عناصرها لأول ما دخل على السلطان العربي الضعف والانحلال . وها نحن أولاء نشهد أعيننا اليوم كيف تنبض هذه الأمم بدقات قلب واحد حين بدأ يدب فيها من جديد ديب الحياة والقوة برغم ما تعانیه من ذل وأسر . فهذا المظهر وحده يدل على أنها جميعا اليوم على أبواب جدة (Renaissance) كجدة أمم الغرب في القرن الخامس عشر ، ولا يمكن أن تنفرد احداها بهذه الجدة ما دامت الحضارة الاسلامية التي نشر العرب لواءها هي مرجع هذه الجدة وهي التي تطعم عليها حضارة الشرق العربي الجديدة كما طعمت حضارة العرب أيام جدته على مدينة اليونان والرومان .

أليس عجبا أن نذكر في هذا الطرف الذي يحدونا فيه الرجاء ويملأنا الأمل في أن نرى جدة مدينة الشرق العربي كيف كان هؤلاء العرب الأعراب ولا حضارة لهم سببا في تكوين الحضارة الاسلامية وفيما خلفت من آثار جمّة في العالم ، أو ليس عجبا كذلك أن يظل هؤلاء العرب الأعراب الى يومنا هذا ولا حضارة لهم لأن واديعهم غير ذي زرع لا يصلح مستقرا للحضارة وأدواتها من فن وعلم وفلسفة . وأعجب من كل هذا أن أولئك الذين لا حضارة لهم قد أقروا في منابت أكبر حضارات شهدتها التاريخ لغتهم ، فربطوا بذلك بين أمم هذا الشرق بأوثق رباط وصار حتما مقضيا على هذه الأمم أن تتفق حضارة ومصائر ما اتفقت لغة وعادات . ولكن لا عجب . فانما الايمان الذي رفع النفس العربية الى المستوى السامى الذي يبعث النفس الانسانية الى التقدم نحو الكمال هو الذي بعث الحياة الانسانية في نفس الأمم التي أضعفها الاستعباد والتترف فانتقلت بايمانها طفرة الى النشاط الصالح وأقامت الحضارة التي بعثت الى الكون حياته مئات من السنين .

ولقد كان الايمان منذ بدأت الانسانية هو القوة الدافعة الى الرقي والتقدم ، وكان قوام الحضارات في مصر وآشور واليونان ورومة كما أن الايمان بالعلم وسلطانه هو قوام المدينة الغربية الحاضرة . وايمان شعوب الشرق العربي في هذا العصر الخاضر هو الذي يبعث في كل نفس أكبر الأمل بأن أمم هذا الشرق ستقوم عما قريب بدور عظيم في أدوار حياة الانسانية .

فهرس

صفحة

- ٣ اهداء الكتاب
٥ إلى القارىء
٧ الكتاب الأول : في النقد
٩ خواطر في النقد ؟ السياسة في ٣ مارس سنة ١٩٢٥
اناتول فرانس :
٢٢ ١ — الاحتفال بيلوغة ثمانين عاماً » في ١٨ ابريل ١٩٢٤
٢٣ ٢ — مناسبة وفاته » في ١٤ أكتوبر ١٩٢٤
٤٠ ٣ — تاييس » في ٢ نوفمبر ١٩٢٤
٥٩ ٤ — الآلهة ظمأى
٦٧ ٥ — ماري بشكير مستف » في ٣ يناير ١٩٢٣
٧٨ ٦ — خرافة يونانية
٨١ بيرلوتي
٩١ قاسم أمين
٩٨ » » السفر ٣ مارس و ١٤ ابريل و ١٩ مايو
١٢٧ ذكرى قاسم أمين لم تنشر
١٤٤ توماس وودرو ولسن السياسة في ٥ فبراير ١٩٢٤
١٥٢ أحمد لطفي السيد، ترجمة ارسططاليس » في ٧ ديسمبر ١٩٢٤
١٥٩ محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين في ٨ ابريل ١٩٢٥
١٧٧ الدكتور طه حسين ، صحف مختارة الخ الأهرام في ٦ يناير ١٩٢١
١٨٦ » رد على نقد جول كتاب روسو ، السياسة في ١١ فبراير ١٩٢٥
١٩٤ حديث الشمس السفر في سبتمبر ١٩١٦

صفحة مصطفى صادق الرافعي :

- ١٩٨ تاريخ آداب العرب الجريدة في ٢٨ و ٢٩ ابريل ١٩١٢
جورجي زيدان :
٢١٥ تاريخ آداب اللغة العربية الجريدة في ١١، ١٤، ١٥، ١٦ يوليو ١٩١٢
٢٤٣ محمد السباعي
٢٤٥ الكتاب الثاني شؤون مصرية
آثار وادي الملوك :
٢٤٦ ١ — من القاهرة إلى الأقصر السياسية في ٢٥ ديسمبر ١٩٢٢
٢٥١ ٣ — في بيان الملوك » في ٢٩ ديسمبر »
٢٥٧ ٣ — قبر توت عنخ امون » في ٨ يناير ١٩٢٣
٢٦٣ في حضرة القراعنة » في ١٤ فبراير »
٢٦٩ ايبس » في ١١ مارس ١٩٢٥
٢٨٨ سميراميس » في ١٠ يونية »
٣٠١ خالد » في ٢٥ مارس »
٣١٨ انتقام من الجود الجريدة في ٢٦ ابريل ١٩١١
تذكريات الطفولة :
٣٢٦ ١ — في الكتاب السفر في ١٢ نوفمبر ١٩١٥
٣٢٩ ٢ — في المدرسة » في ١٩ نوفمبر »
٣٣٢ ساعة وحدة مع جثة محبوب ذاهب » في ١٦ فبراير ١٩١٧
٣٣٧ حديث شباب الجريدة في ١١ ابريل ١٩١١
٣٤٣ الكتاب الثالث : خواطر في التريخ والآداب
الأدب واللغة :
٣٤٤ ١ — الأدب القومي السياسة في ١٨ مارس ١٩٢٥
٣٥٧ ٢ — القديم والحديث » في ٢٣ ابريل ١٩٢٥
٣٦٨ العرب والحضارة الاسلامية » في ٣ يونيو ١٩٢٥

دار الطباعة الخريفة

٦ كنيسة الزيتون - ازله شارع بنين
ش ٩٠٨٢١٨ - س - ش ٨٩٦٩١